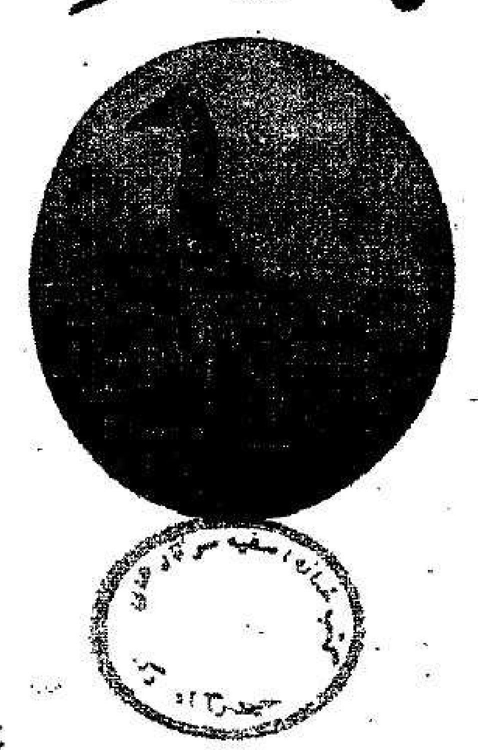
العالم كما رأيته

للرحالة المصري

محمد ثابت

جولة في ربوع أفريقية



مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ بالقاهرة

٣٢

جولة في ربوع أفريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح



من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

مدرس أول العلوم الاجتماعية بمدرسة القبة الثانوية

الناشر : مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

« الطبعة الثانية »

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ — ١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اليوم أقص على بنى وطنى نبأ جولتى فى ربوع إفريقية بعد أن تقدمتها (جولة فى ربوع آسيا) و (جولة فى ربوع أوروبا) . تلك الجولة التى أبدت لدى ما نعرفه عن (القارة الغامضة) فى شعوبها وحيوانها وأحراشها ومفاوزها . وكم كان لبحثى فى تلك الأنحاء لذة دونها ما لقيت فى أوروبا وآسيا أعوامى السالفة ، ففى أوروبا لمسنا مدنية الغرب التى تقوم على المادة تكامل حسناتها من رقى وعمران وما يستتبعه ذلك من رفه وانحلال .

وفى آسيا واجهتنا مدنية الشرق العريقة ، تلك التى تقوم على أسس معنوية ودعامات روحية لم تفسدها المادة و إن أفسدت منها الرجعية والتمسك بأهداب القديم .

أما إفريقية فقد بدت بريئة لم يفسدها الدخيل . حيث وضحت الفطرة تتجلى فى إنسانها الهمجى وحيوانها البرى ، مما أذكرنى بعصور ما قبل التاريخ يوم كان الإنسان ساذجاً ، يأتى ما توحى به الفطرة ، وتدفعه إليه الغريزة ، هنا يستطيع المنقب أن يتعقب خطى التطور الآدمى فى كل شىء ، فى بنية الإنسان ولغته وعقائده وعاداته . ولطالما خال قراء الأسفار أن مجاهل إفريقية وهمج أهلها قد خضعت جميعاً لوفود المستعمرين ، ولكن تلك فكرة جد خاطئة ، فالسواد الأعظم من أهل تلك الأصقاع لا يزال حراً لا يعترف بسلطان ، ولا يفقه للحكم الأجنبى معنى ، وهيهات أن تنال منه مدنيتنا أو تخلف فيه أثراً .

واشد ما كان أسفى إذ لم أوت من فسحة الوقت ما يشفى للبحث غلة ، أو يروى للنفس ظمأ . على أنى أرى فيما قصصت هنا قبساً قد ينير السبيل . والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير الوطن المفدى وأبنائه الأبرار ؟

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتي أكيدة . يوم بدأت جولاتي ، في ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأندس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الخلائق والعادات . وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتاباً يضم مشاهداتي عن البلاد التي زرتها

وكم كان سروري عظيماً أن يتهافت أبناء العربية من مواطني الكرام على اقتناء هذه « الجولات » . حتى نفدت الطبعة الأولى ، وها أنا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن أسعد « الجولات » شرف اقتنائهم لها . فأقدم الطبعة الثانية بعد أن أدخلت فيها يد التهذيب . وأضفت إليها من مذكراتي بعض ما كنت قد أغفلت نشره في الطبعة الأولى

وإني لسعيد بأن أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف شعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التي قصدت إليها جولاتي هذه

وقد راعني عمقاً ما لاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الجولات . حتى لقد تحدث إليّ في ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلهم حريصون على أن يقرنوا مذكرات رحلاتهم بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتي أن نعرف أبناء هذا الوطن العزيز بناحية هامة « كتاب الدنيا » فنقف فيه على أحوال شعوب متمدنة من الأمم ، وأخرى متخلفة ، وعسى أن يكون لنا من هذه أحسن العبر . ومن الله أجزل الأجر



(شكل ١) ميناء بور سودان

نبذة تاريخية

طالما أشاد الناس بذكر (فاردينان دلسبس) على أن طاف برأس العواصف كما
قال الكثيرون بمرور السفن من قناة السويس بعد فتحها ، لكن فاتهم أن ذلك
لم يكن بالشيء الجديد المستحدث . فلقد حاول فرعون مصر (نكو) قبل ميلاد
المسيح بنحو ستمائة سنة فتح قناة النيل والبحر الأحمر . والقناة التي تصل بحر أرتريا
فتحها سيتي قبل ذلك بسبعمائة عام ، وكانت تقطعها السفن في أربعة أيام وكان
سعتها يكفي لمرور سفينتين متجاورتين تتجاذفهما وقد مات في حفرها في عهد
(نكو) ابن عشرين ألفاً . وقد خاف (نكو) عاقبة هذا عبر انه سبى أنه دارا الفارسي
محاجة لإرسال أسطوله الحربي تحت قيادة بعض الإغريق لتصل البحرين بعث
بها من الفينيقيين سفينة وأمرهم ألا يرجعوا إلا عن طريق أعمدة هرقل Pillars
of Hercules وهو جبل طارق بالمدخل مصر ، أعني بعد الطواف حول إفريقيه كلها ،
وفي السنة الثالثة من بعد خروجهم أتموا ذلك وقصوا على الفرعون عجباً ، أنهم وهم
طوفون بإفريقيا رأوا الشمس ظهراً ناحية يدهم اليمنى . أي أنها تميل عنهم شمالا بعد

إذ كانت وهم فى نصف الكرة الشمالى لا تميل إلا إلى الجنوب بالنسبة لهم ، و يرجح الكثيرون أن المصريين جميعاً هاجروا من أواسط إفريقية فى عصور ما قبل التاريخ وحلوا مصر ، و يؤيدون ذلك بقرب الشبه بين سحن المصريين الأصليين و بين بعض قبائل كنيا اليوم نخص منهم — المساى والتوركانا — وقد يكون لآثار زمبابوى فى روديسيا علاقة بالمصريين ، ولا شك أن لنهر النيل العظيم أثراً كبيراً فى توزيع الإنسان قديماً لأن سير الإنسان كان قيد الأنهار الكبيرة ، ولقد سجل الاغريق علاقتهم بشرق إفريقية إلى زنجبار منذ القرن الثانى قبل الميلاد ولعلهم أتباع الفينيقيين والعرب من قبلهم ، ولما أعقبهم الروم وأغرموا بالذهب والأحجار الكريمة لا يبعد أن يكونوا قد فتحوا طرقاً تجارية إلى هنالك ، ولدينا وثيقة Periplus كتبها اغريقى قبل الميلاد يصف بعض المين التجارية من ممباسا شمالا ، و يقص عن زوارق القوم من الشجر المنقور أو الألواح الموثوقة بالحبال وشباك الصيد وتجارة العاج الهائلة وقشور السلاحف وقواد السفن من العرب والقرصان ، و بعض السلع كالقمح والنبيذ والزجاج والأسلحة المعدنية ، و بعد ذلك بقرن كان بطليموس يحاضر عن جغرافية إفريقية ومنابع النيل مستنداً إلى المعلومات التى استقاها من رحالة الأغريق ومن مؤرخى الهنود الذين اعتلوا هضاب كنيا وافدين من السواحل الشرقيه

على أن هناك أسرارا يحار فيها العلماء من بينها كشف أراضى الذهب بين اللمبوبو والزمبيزى فى روديسيا الجنوبية وكذلك بعض الأعمال الهندسية التى حول الزمبيزى وموقع الجبع [illegible] آثار زمبابوى (وزمبابوى معناها مصانع الذهب أو مطاحنه) ولا ندرى متى بدأ الإنسان استغلال تلك المناجم وصناعة الذهب . و يظن البعض أن زمبابوى من عمل البانتو فى القرون الوسطى . و يرى البعض أنها من عمل الهنود والدراوديين . والراجح أنها من عمل عرب سبأ عهد سليمان ، وعلى ذلك فروديسيا تعد موطن مناجم الملك سليمان . وكان ثغر سوفالا الذى أرسل منه الذهب والعاج

والفضة والقردة والطاووس إلى أوفير Ophir من بلاد اليمن حيث نشأت الملكة سبأ وسلكت طريق القوافل الموصلة إلى بيت المقدس وهى التى بعث إليها سليمان وهرون يجلبان منها الذهب والأحجار الكريمة والعقاقير والبخور والعصى الحلوة (قصب السكر).

ويغلب على الظن أن عرب سبأ لم يستعمروا رودسيا بل استغلوا مناجمها و بنوا معبد زمبابوى وغيره واستخدموا فى العمل الهنود والشعوب السوداء ، يؤيد ذلك الأثر القديم الذى يرى شاخصاً للهنود والعرب فى أهل سواحل إفريقية الشرقية ، ولا يعلم مبدأه باليقين ، فالمسعودى يخبرنا عن ممتلكات العرب وتوابعهم من الهنود فى القرن العاشر ، وفى لغة أهل السواحل والجزائر و بعض عاداتهم ما يؤيد صلتهم بالعرب منذ القدم ، وفى الأقاصيص أن سام أب آسيا الصفراء ماهو إلا سبأ ، وحام أب إفريقية السوداء هو كوش ذاك الاسم الذى نطلقه على بلاد النوبة وهؤلاء ما هم إلا سبأ أيضاً .

(شكل ٢) طريق كلندى يشق غابات المانجو فى ممباسا

انقطع حبل التاريخ فترة طويلة إلى ٦٠٠ بعد الميلاد وفى ٧٤٠ حمل العرب دعوة الإسلام إلى هنالك ، وقد أجمع المؤرخون على أن العصر الذهبى لشرق إفريقية هو العصر العربى حين ازدهرت التجارة وقامت المدن وفتحت الطرق فى داخل

القارة . وكان سكان إفريقية هم الخدم والأتباع لأن العرب أقاموا نفوذهم على الرقيق وتسخيره فى الزراعة على طول السواحل الخصبة ، تلك التى أضحت أهراء بلاد العرب ، وقد ربت المحصولات لدرجة بررت اعتبار إفريقية بالنسبة لآسيا فى القرن الثامن كموقف أمريكا من أوربا اليوم ، وغالب مدنهم الساحلية بين كلوا ومجديشو لا تزال قائمة إلى اليوم ، وبعد انتشار الإسلام قام زيد حفيد على كرم الله وجهه على رأس طائفة من الملحدين وحلوا سواحل شرق إفريقيــة إلى خط الاستواء وامتزجوا بالأهلين وبعدهم بقايل وفد كثير من المسلمين وطاردوا أشياع زيد وتقدموا إلى سوفالا حيث وجدوا الذهب فاستقروا هناك ، وقص المسعودى — الذى زار إفريقية — فى كتابه (مروج الذهب) عن العرب والفرس الذين سلكوا طريق الرياح الموسمية من مدغشقر وشرق إفريقية إلى ساحل ملابار وسيلان ، والسفن التى كانت تسير بين البحر الأحمر والخليج الفارسى وسوفالا ، وعن اقزام البشمن الذين أسماهم (واق الواق) وعن زنوج البانتو الذين كانوا يجتاحون البلاد جنوباً ويتبادلون الذهب والعاج وجلود الفهود وقشور السلاحف مع العرب لنقلها لأسواق الهند والصين .

وفى القرن الحادى عشر قام طائفة من الشيعة الفرس وحلوا ثغر كاوة وكانوا حضوه مسمى العرب هناك وعابوهم وأشرفوا على سوفالا وملندة وممباسا وبمبا ورشعار ومافيا وموزمبيق ، وكان لهم محاط عند الزمبيزى وفى مدغشـقر والجزائر المجاورة ، وقد جاء ابن بطوطة يقص علينا نبأ نفوذ العرب التجارى فقال بأنهم كانوا يقيمون المدن على الجزائر التى يسهل حمايتها ، واستبدلوا ببيوت الطين والخشب القديمة بيوتاً من الحجر بسقوف مسطحة وأفاريز تطل على أزقة ضيقه ملتوية ، وقد قامت سراى الســلطان تواجه البحر ، وكانت مآذن المساجد تبدو شامخة وسط المساكن . وحول تلك البيوت البيضاء نسقت الحــدائق وبواسق النخيل . وكانت طبقة الأرستقراطيين والأغنياء من العرب تسير بأرديتها



(شكل ٣) على حافة قلعة ممباسا

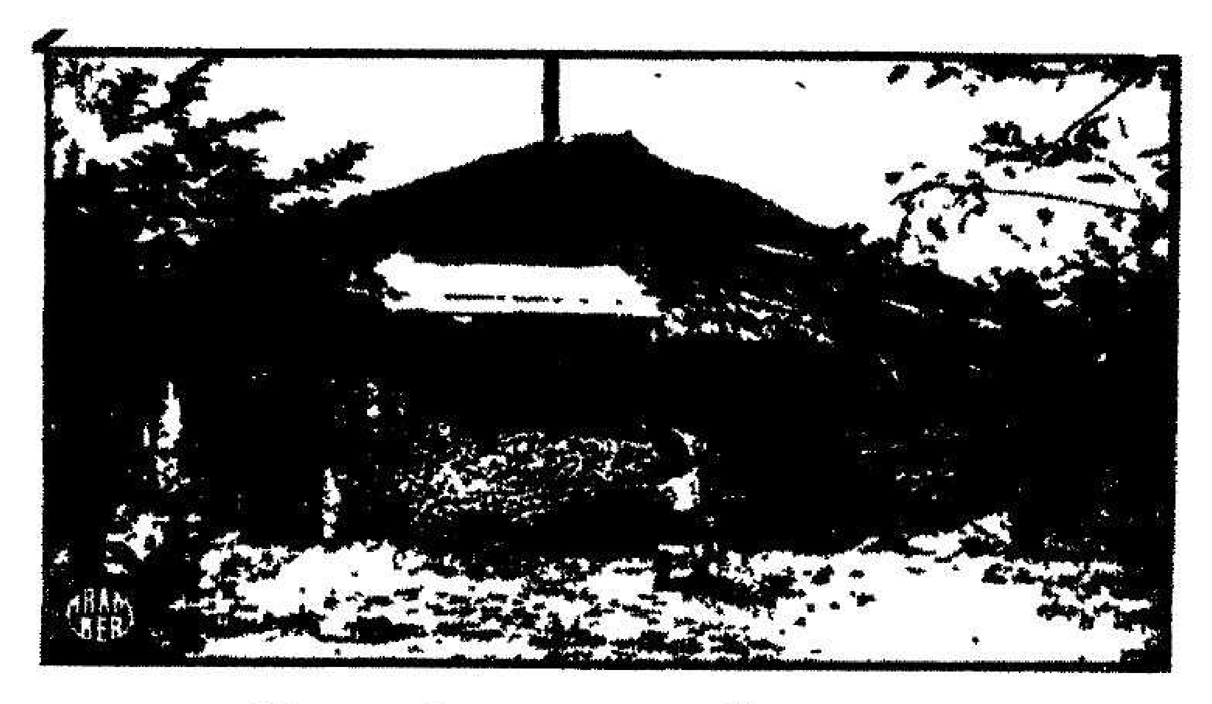
الفضفاضة فى شىء من الوفار والأبهة وسط الطرق ، وقد ميز المسلمون عن كافة الألوان بلبس العمامة وحمل السيف حتى ولو لم يكن بعضهم يرتدى من الملابس شيئاً ، وكان السيف هاماً لديهم لكثرة الخصوم ، وتعدد المنازعات بين مسلمى العرب والفرس ، و بين أرفاض (زيد) و بين السنيين العرب والشيعة من الفرس و بين الكفرة من السود لا بل و بين كل أولئك . على أنه رغم كل ذلك . فقد امترج العرب بالبانتو وكان المولدون من أولئك واسطة جلب المتاجر من الداخل ، ولم يتوطن العرب فى الداخل بعيداً عن السواحل بل كانوا يستفيدون من الضرائب على طريقة قرطاجنة ، وكانوا ينقلون متاجرهم فى سفنهم المسماة (داو) التى لقبت بطيور السماء العظيمة ، تلك التى غالبت الرياح الموسمية إلى فاليقوت ، وكان يديرها المولدون ، وكان الوسطاء فى قاليقوت من الأروام وأهل الشرق الأقصى الذين وفدوا بالبهار من جزائر الملوك ، و بالأخشاب العطرة والحرير من الصين واليابان .

ثم أقبل عهد (ماركو بولو) فى القرن الثالث عشر ، فوصف الإقليم قائلا : إن أهل زنجبار عبدة أصنام ، جسومهم ضخمة يأكل الواحد من الغذاء ما يكفى

خمسة أشخاص ، وهم سود يسيرون عرايا ، وأشكالهم كأنها العفاريت ، طعامهم اللحم واللبن والأرز والبلح ، وقال بأن الفيل والزراف يوجدان هناك بكثرة ، وأن أهلها شجعان بواسل فى القتال ، يحاربون على ظهور الفيلة والإبل . على أن البعض يشك فى صدق تلك الرواية ، لأن (پولو) لم يزر الجزيرة بنفسه .

وقد وصف أحد مؤرخى القرن الرابع عشر أهل مجدشو بأنهم نهمون فى الأكل ، دباغون ، يلتهم الواحد غذاء جمهور كبير وحده ، وأن ممباسا مدينة كبيرة تغص بالموز والليمون ، وأن أهلها دينون شرفاء ؛ وأن (كلوا) بيوتها من خشب ، وقد ظل ملك السلاطين فيها خمسمائة سنة ، ويظهر أن غالب الناس والحكام هناك كانوا من المنفيين من بلاد فارس .

البرتغال : على أثر تقرير قدم لملك البرتغال سنة ١٤٨٥ يحبذ زيارة أملاك العرب الشاسعة فى شرق إفريقية ، أرسل فاسكود جاما مع أربع سفن بحارتها من المجرمين الذين وُعدوا بإطلاق سراحهم فى الشرق ، لكن استقبال البرتغال هناك كان قاسياً ، إذ دخلوا فى نزاع مع العرب دام قرنا كاملاً ، وأخذ نفوذ البرتغال وامبراطوريتهم يمتد ، وساعدها انقسام العرب وضعفهم فى البحر ، وكان غرض البرتغال فى البدء تجاريا ، وقد حنقت عليها البندقية ، سيدة تجار البحر الأبيض إذ ذاك ، ومصر التى خشيت ضياع ٢٩٠ ألف جنيه كانت تردها فى العام مكوساً تجارية ، فتعاون كل أولئك على البرتغال ، لكن شاءت المقادير أن ينتصر (المابدا) على المصريين والعرب فى واقعة (ديو) وبذلك أصبح المحيط الهندى بحراً برتغالياً مدة قرن . على أن البرتغال لم يتوغلوا فى داخل إفريقية لوحشية الأهلى ، ولكثرة الأوبئة ، لذلك لم يحس نفوذهم فى الداخل ، خصوصاً وأنهم لم يستخدموا العرب وسطاء لهم خوفاً منهم وحنقاً عليهم ، ولقد بدأوا أعمال التبشير ، لكنه لم يجد فتيلاً رغم اختلاط جنودهم بالسود والهنود ومصاهرتهم ، مما أضعف نفوذهم حربياً . ولقد تدهوروا مدنياً لأن سياستهم كانت تقوم على



(شكل ٤) مساكن مماسا من جدائل العصى تسد بالطين

الابتزاز والأسلاب ليس غير ، وأتم انحلال نفوذهم ضم (فيليب) بلاد البرتغال لأسبانيا ، فأصبح أعداء أسبانيا الكثيرون أعداء للبرتغال ، وبدأت مزاحمة هولندا وانجلترا وفرنسا لهم .

تقدمت أساطيل هولندا إلى جنوب إفريقيـة ، وأقامت شركات تجارية ، والهولندى بحكم طبيعة بلاده وسيط تجارى ، على أن عيبهم كان عدم التضامن ، فهم اعتادوا القيام جماعات صغيرة لا يهمهم جيرانهم من بنى جنسهم ، مما دعا شركائهم إلى التنافس الذى أضعفهم ، وزادت هجرة الأوروبيين إلى الكاب . هولنديين وألمان وفرنسيين ، خصوصاً طوائف الهيوجنوت الذين فروا من فرنسا إلى هولندا فشجعتهم هذه على السفر لجنوب إفريقية ، وتصاهر الجميع مع السود والهنود فكان منهم شعوب البوير (المزارعين) وقد ساعدتهم نزعتهم إلى الرعاية على الارتحال بعيداً فى داخل القارة وافدين من الجنوب ، ولذلك نقلوا عناصر مدنيتهم إلى قلب إفريقية .

بدأت مزاحمة الإنجليز بعد أن أخذوا الغلبة فى البحار ، وتحول المركز المالى

المالى من أمستردام إلى بنك انجلترا فى لندن ، وقام أهل اسكتلنده المعروفون بالمثابرة ، إلى جانب الإنجليز المعروفين بالمغالبة والمخاطرة فى شىء من الحرص ، وساعدهم على النوز افتقار الشركة الهولندية إلى الحكمة حتى فسد موظفوها ، وابتزوا منها الأموال الطائلة مما أضعف ماليتها ، أضف إلى ذلك خسائر الحرب وكره الأهالى لها ، أولئك الذين بدأوا يطالبون بالاشتراك فى حكومة البلاد ، وألحوا فى طلب دستور مسطور ، خصوصاً بعد أن نجحت ثورة أمريكا ضد الاستعمار .

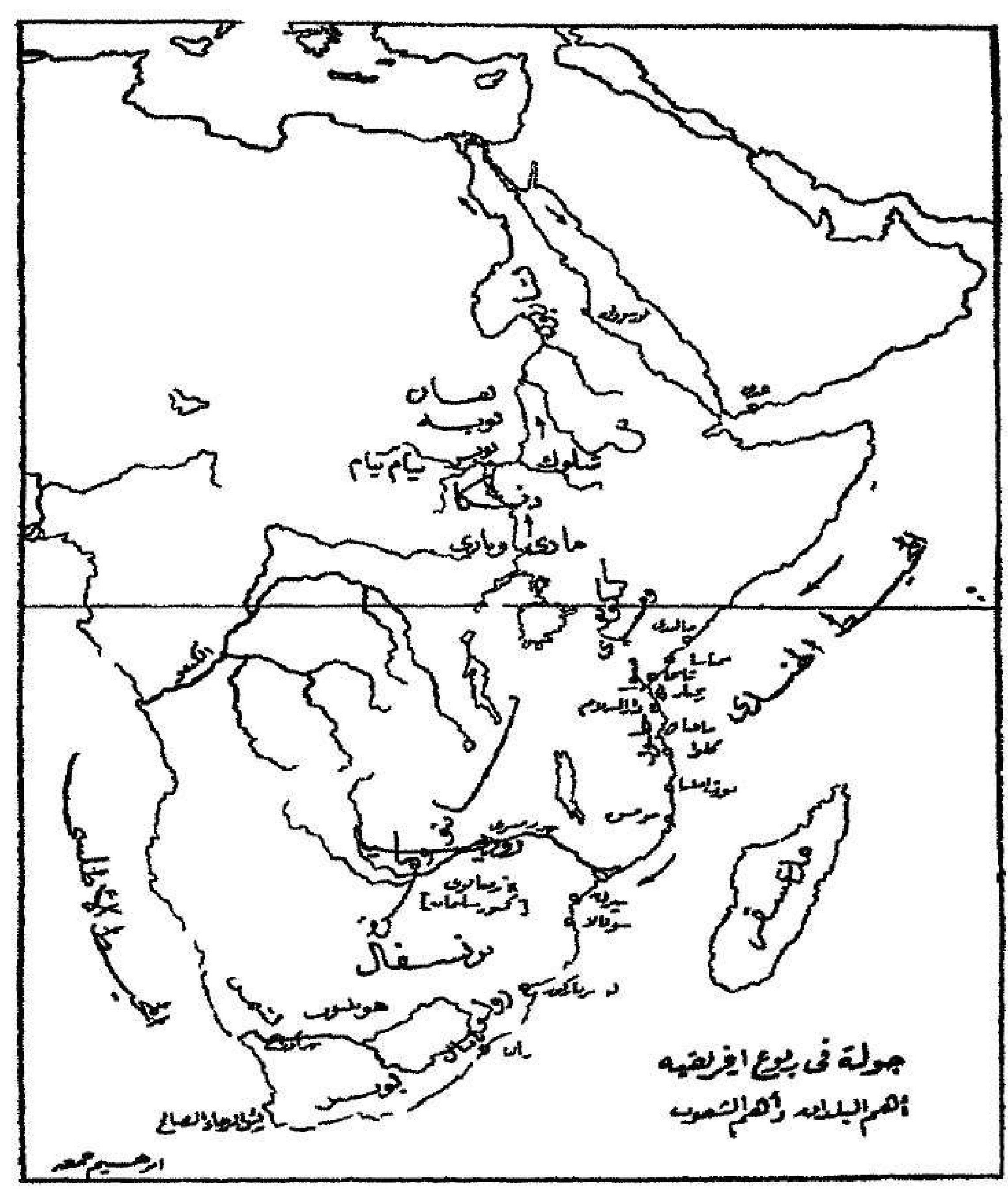
وصلت سفن الإنجليز وأمنت السكان على متاعهم ، ومنحتهم حرية الاتجار وأبقى الموظفون فى أماكنهم إلا الوظائف الرئيسية التى أخذها الإنجليز لأنفسهم ، ومال الإنجليز إلى كلنزة البلاد ، لكن اللغة الهولندية كانت لغة الكنيسة ، أما لغة الكلام فكانت الإنجليزية إلى جانب الهولندية ، وطالب الناس بجعل إفريقية للأفريقيين ، وأخيراً تأسست جمهورية الترنسفال ، وأورنج الحرة ، ثم توحدتا فى جمهورية واحدة ، ثم أوجد نظام جمركى بين كل ولايات جنوب إفريقيه سنيه (الزلفرين) ودخلته روديسيا الجنوبية ؛ لكن محيت الجمهورية ، وضمت لاتحاد جنوب إفريقية تحت إشراف بريطانيا ، ولا يزال يحن كثير إلى العصر الجمهورى ، و بعضهم يرغب فى حكومة الدومنيون ، وقد خرجت روديسيا من الاتحاد لأنها أقل خبرة وعلماً ، أندر سكاناً ، وقد حاول الجنرال (سمطس) ضمها مؤيداً رأيه بأنها استعمرت من الجنوب ، وأن قانونها مقتبس من قوانين الاتحاد كما أنها كانت عضواً فى الاتحاد الجمركى ، وهى لا تستطيع وحدها الوقوف مالياً بدون مساعدة الاتحاد إلى ذلك إتمام الصلة الحديدية بينها و بين الكاب .

أما فى شرق إفريقيـة فقد عاد للعرب بعض نفوذهم القديم ، خصوصاً حول زنجبار ، وفى عهد أظهرهم نفوذاً (السلطان سيد سعيد) ثار عليه زعيم شعوب (مزروى) وطلب حماية الإنجليز لممباسا ، لسوء معاملة السلطان لهم ، فأعلنت



(شكل ٥) نقف تحت شجرة الباوباب فى غابات شرق إفريقية

الحماية ، ورفع العلم البريطانى لأول مرة هناك ، وتحالف السلطان سيد سعيد مع الإنجليز . ونقل مركزه الرئيسى من عمان إلى زنجبار ، وتضامن مع الإنجليز فى منع الرقيق ، وأقام قصوره فى الجزيرة . ولما مات تنازع خلفاؤه الحكم فتدخلت انجلترا ، وزادت مصالحها فى شرق إفريقية ، فرفعت الحماية على زنجبار نفسها . وكان كبار الكاشفين الإنجليز قد أوغلوا فى إفريقية ، وفى سنة ١٨٨٦ اتفقت الدول العظمى على تحديد ملك سلطان زنجبار كخطوة لاقتسام شرق إفريقية ، وأخذ الألمان يزاحمون الإنجليز هناك ، وأرغموا سلطان زنجبار أن يتنازل لهم عن جزء من ساحل إفريقية بسطوا عليه حمايتهم ، لكن الشركة الإنجليزية التجارية قاومت ذلك ، ومدت سكة الحديد من ممباسا إلى فكتوريا . ولما كسدت تجارتها تنازلت عن أملاكها لسلطان زنجبار مقابل مبلغ من المال ، ولا يزال علم زنجبار الأحمر يرفرف على حصن ممباسا ، وتدفع حكومة كنيا ستة عشر ألف جنيه سنويا مقابل احتلالها للسواحل . ومنذ سنة ١٩٢٠ أضحت كنيا مستعمرة للتاج ما خلا شريطا ساحلياً ضيقاً فهو حماية لأنه من أملاك زنجبار



يبين الخريطة حواء السر . وأهم البلدان التي حللناها ، والشعوب التي
اد ها و ، ناهـيت الما ، اي قطعناها ، عشرة آلاف ميل وخمسمائة ،
ـ شـ ور

بدء الرحلة



الى بور سودان :

غادرنا بور سعيد عصر الأربعاء نشق قناة السويس جنوباً ثم أوغلنا فى خليج السويس الذى كانت تبدو سواحله على الجانبين تارة تنأى وطوراً تقترب إلى أصل الحميس حين دخلنا البحر الأحمر وظل الساحل المصرى بادياً . وفى باكورة الجمعة كنا وسط الماء لا تبصر العين من اليابسة شيئاً وفى غداة السبت أقبلنا على بور سودان . حللت المدينة فبدت صغيرة جديدة ليس بها ما هو جدير بالذكر طرقاتها نظيفة وفى استقامة وعلى جوانبها

(شكل ٦) سن الفيل قد يبلغ ضعف قامة الرجل طولا

تقوم المبانى الحديثة فى طبقة واحدة ومظهر واحد مجدب عار عن النبت لا تكاد العين تقع على خضرة قط ؛ ويزيدها جدباً جبالها المقفرة التى تحيط بها من كل جانب اللهم إلا جون من البحر طمر القوم جانباً منه وأقاموا الميناء غابة والأرصفة مرودة بالروافع الثقيلة تجرى على قضبان تؤدى من السفن إلى حظائر للسلع ما صدر منها وما ورد ، وأظهر بناء إذا أقبلت على المدينة من الماء ، دار المديرية من

طابقين كان يعلو ساريتها العلمان المصرى إلى جانب الانجليزى ، وأهل المدينة أخلاط من السود يتكلمون العربية والزنجية . وكان عمال الميناء من قبل من مهاجرى اليمن لكن الحكومة رأت أن تخص الوطنيين بهذا العمل فاستقدمت من داخل السودان جماهير يقومون بالنقل مقابل أجر خمسة قروش فى اليوم وأعجب قبيلة كانت تبدو بينهم البشارية يرسلون شعورهم تتدلى على أقفيتهم فى جدائل رفيعة وشعر الناصية يترك منفوشاً وفاقعاً فى كرة ، وجو المدينة لافح محرق شديد الجفاف ذلك لأن أمطارها تسقط فى الشتاء و بمقادير قليلة إلا إذا صادفهم السيل وعندئذ ينذر بالخطر ، ومن هذا الماء يملأون أحواضاً يرشحون الماء فيها و يستقون منها ، وهنالك وراء الجبال عند منازل المطر نطاق ضيق تكسوه الخضرة ، وهو المكان الوحيد الذى يستنبتونه فى هذا الأقليم القفر .

غادرنا المدينة فأنعشنا نسيم البحر قليلا ، وقد كان جو البحر الأحمر هذا العام جميلا فى الجملة ولم نحس ذلك السكون الخانق الذى كابدناه عامنا القائت فى طريقنا إلى الهند والصين واليابان ، ويظهر أنه لا يكون إلا فى أواخر مايو ، على أن الحرارة أخذت تتزايد من يوم لآخر ، وفى يومين دخلنا :

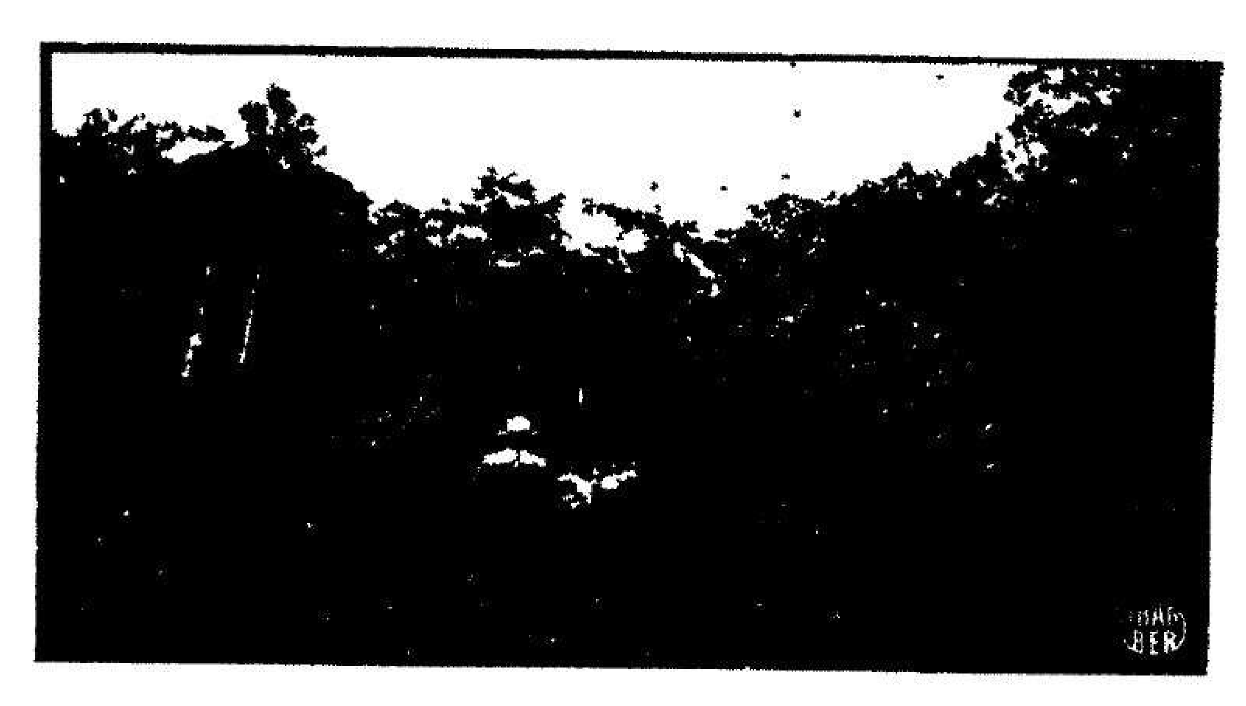
عدن : بجزائرها المجدبة الجافة تقام البيوت والحصون على منحدراتها المواجهة للقارة ، وكان ساحل القارة يبدو جاثماً وطيئاً على بعد ، وقد زرت المدينة للمرة الثانية فلم أسترد منها بشىء جديد ، صخور عاتبة عريت عن النبت يكاد يصهرها وهج الشمس . وفى الأصيل برحناها والماء هائج مضطرب أنذر بمرض البحر وأخذ ذلك يتزايد حتى انقضى اليوم التالى وظهر إلى يميننا قرن إفريقية عند رأس (جوار دافوى) فى حائط صخرى مجدب مخيف يمتد إلى الآفاق وهنا تغيرت الظروف الجوية ، فأضحت الريح الجنوبية بايلة كادت قطرات ضبابها تكسو الجبال على بعد منه ، وأخذت الرياح الموسمية هذه تزأر فى شكل مخيف حتى لم ينج فرد من مرض البحر ، وظلت السفينة تترنح طوال يوم الأربعاء و بعض الخميس ،

وخف الحر الذى عودنا أياه البحر الأحمر . وكان الهواء بارداً عاصفاً بليلا يحس المرء أنه مشبع بالرطوبة ذاك البلل الذى هو سر فيض نياما الغامر ، وخصب بلاد الهند النادر ، وكانت السماء تتلبد بالغيوم الثقال ولبثنا وسط هذا المحيط الزاخر القاتم الرهيب يومين ثم عبرنا خط الاستواء جنوباً فتحسنت حالة البحر نوعاً وخفت حدة الريح وندرت سحب السماء وأضحت متقطعة ، وكان ينعشنا الأمل بوصول أرض ممباسا فى الغداة كى نجد عوضاً عن هذا البحر الممل ولو إلى حين .

(شكل ٧) بعض سيدات السواحليين من المسلمات

ممباسا : فى ستة أيام من مغادرتنا لعدن ألقت الباخرة مراسيها على أرض ممباسا ، وهى جزيرة ذرعها ميلان فى ثلاثة ، تسمى « ملكة الجزائر المرجانية إذ تحفها هالة من شعاب المرجان ، وبدت فى خضرتها الوفيرة القاتمة كأنها زمردة ألبست لحوة من شرق إفريقية ، وفيما بينها وبين القارة يتلوى البحر فى مخابئ آمنة جعلت

الميناء من أجمل مين شرق إفريقية وأمنعها على الاطلاق ، ولقد كانت الميناء القديمة تقوم شمال الجزيرة ولكن الانجليز اتخذوا ساحلها الجنوبي مرفأ لأنه أفسح مجالا وأبعد غوراً فأقيمت عليه الأرصفة الممتدة تقوم عليها المنائر والروافع التي تديرها الكهرباء ، ويطلق القوم على هذا الجزء : مرفأ كلنديني ، ومعناه بلغة السواحليين : مكان الماء العميق ، نزلنا إلى رصيف الميناء باكورة الصباح ، وكانت الجزيرة تعلو تدريجاً في منحدر من صخر الجير المهشم القديم ، فسلكنا سبيلنا صعداً في طريق (كلنديني) الذي يشق الجزيرة نصفين ، وتقوم عليه المباني الرئيسية من متاجر ودور للحكومة وبيوت منسقة ، والطريق تحفه الغابات ذات الأشجار الباسقة على اختلاف أنواعها ، ولا تكاد تخلو قطعة من الأرض من النبات والعشب الوفير ، فهو كسائر طرق الجزيرة قد شق وسط غاباتها الكثيفة ، وكان أظهر الشجر المانجو ، الذي كنا نرى ثمره ملقى على الأرض في كثرة هائلة ، ولا يعنى المارة بأمره ، فثمنه هو وسائر الفاكهة الاستوائية زهيد للغاية ، فقد كنت أنتقى أطايب المانجو من بائعه بمليمين . ولما أتينا على آخر الطريق بدت القاعة التاريخية تطل على الميناء القديمة — ويسمونها قلعة يسوع — شادها البرتغال سنة ١٥٩٣ . ومع أن أصبحت ممباسا عاصمة دولتهم الأفريقية ، لكنها سقطت في يد سلطان ممباسا سنة ١٦٣١ ، حين قتل جميع البرتغاليين في المدينة . وبعد أربع سنوات استعادها البرتغال وأعادوا بناءها . وفي ١٦٩٦ بدأ العرب حصارها العظيم الذي دام ثلاث سنين وانتهى بفتح القاعة وقتل من نجا من حاميتها . وهي اليوم سجن ويزمع تحويلها إلى متحف ، وفي مدخل ذلك الميناء كاد شيكو دجاما يفقد أسطوله ، لأن قواد سفنه ، وكانوا من العرب ، تآمروا على تدميره . فاتفق القائد وسبب اصطدام سفينتين تحطمتا ، ولما قبض عليهم وعند تعذيب ... في جسدهما اعترفا بأنهما فعلا ذلك انتقاماً للعرب



(شكل ٨) وسط الغابات المغلقة

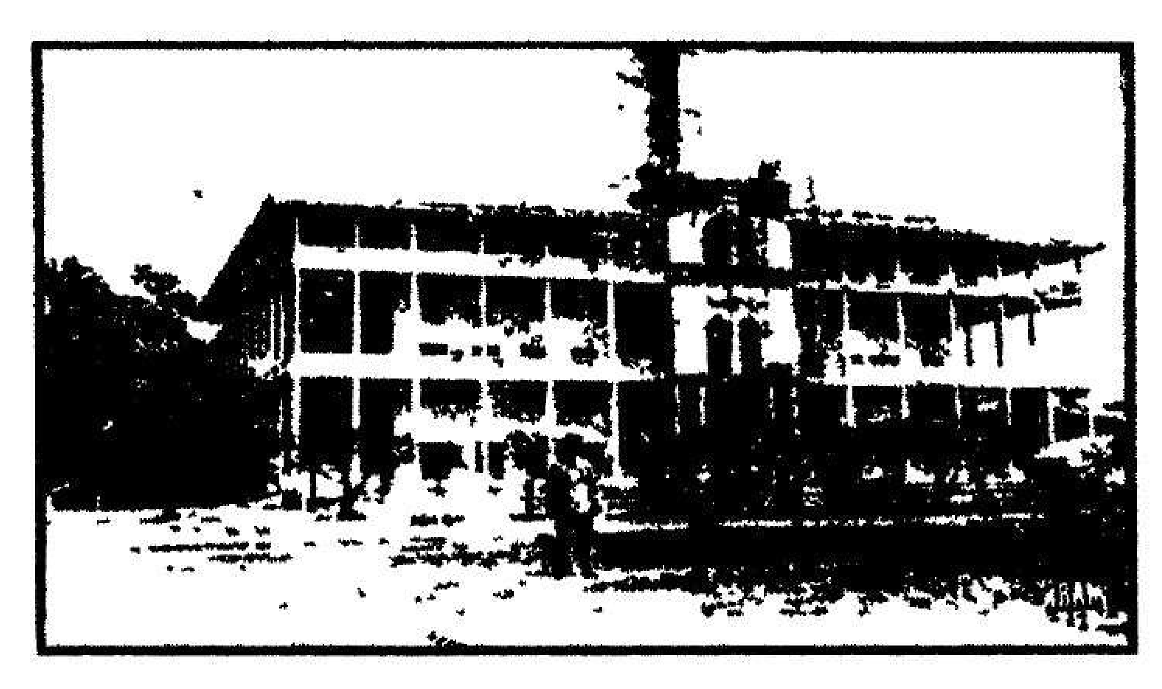
فشنقا قصاصاً . ولفاسكو دجاما شارع صغير باسمه ، وعامود تذكارى ، كأنه قمع البكر شكلاً ولوناً .

وممباسا كانت منذ القرن الثامن حصناً للعرب منيعاً تحت أئمة عمان ومسقط ، وكانت أكبر أسواق للرقيق إذ ذاك ، ولما كشف البرتغال طريق الرأس وجدوا فى مرافىء شرق إفريقية أماكن آمن من البحر وغوائله ، تلك التى قاسوها فى جنوب إفريقية ، وفى سنة ١٥٠٩ أحرز (الما يدا) قائدهم النصر فى إحدى معارك التاريخ الحاسمة ، هى (واقعة ديو) حين دمر أساطيل العرب والمصريين مجتمعة ، وضمن للبرتغال احتكار المحيط الهندى لمدة قرن من الزمان كامل ، ولا يزال يطلق القوم على الجزيرة (كسيواتشا مقيتا) أى جزيرة الحروب

ومدينة الأهالى هنا أشبه بقريه صغيرة تقام بيوتها ، وكأنها الأخصاص من شباك العصى والأعواد ، تملأ فضاءاتها بالطين ، وسقوفها متحدرة ، تكسى بالقش أو صفائح المعدن . والبيت فى مجموعه مربع الشكل ، والطرق أزقة متلوية فى غير نظام . وكنا نرى جمهرة من تلك الدور بين فجوات الغابات الفطيرة

والسكان أخلاط من بينهم ٧٥٥٦ من الهنود ، و ٧٥٢٣ من العرب ، و ١١١٩ من الأوربيين ، و ٢١٣٥٢ من السود ، ومجموع السكان حوالى ٤٥ ألفاً ، يتكلمون لغات مختلفة أخصها : السواحلية ، وهى خليط من لهجات البانتو مع العربية ، وكنت أتلمس فى كل جملة كلمة أو اثنتين أفهم بها سياق الحديث ، وتكتب بحروف عربية ، وهى اللغة الرسمية فى شرق إفريقية ، فكنت أراها تكتب إلى جانب الإنجليزية حتى فى الإعلانات ، فمثلاً عند منحنيات الطرق كنت أجد كلمة (أصبر) بمعنى خفف السير ، وعند بائع الماء ترى كلمة (ماج) ومن الكلمات الشائعة : (زمانى) بمعنى من زمان مضى ، و (بريدى) بمعنى البرد ، و (كرتاس) بمعنى الورق . و (سفرى) بمعنى الرحلات ، و (مَبَارَك) للتحية ، و (دَوَى) للدواء ، واللغة الساحلية سائدة فى شعوب السواحل جنوباً إلى الناتال ، ومن ممباسا إلى فكتوريا نيانزا فى داخل إفريقية .

والشعب السواحلى وليد اختلاط العرب بالزنوج ، فهو من أب عربى وأم زنجية ، وهم يعيشون اليوم عيشة خمول فى السهول الساحلية ذات النبت والشجر الوفير ، وقد كانوا تجار عاج ورقيق من قبل ، ولما حرم الاتجار بالرقيق أهمل العرب مزارعهم لأنها كانت تتوقف فى فلحها على أيدى الرقيق ، وكان هؤلاء يحبون سادتهم من العرب ويختلطون بعائلاتهم لأنهم كانوا يعاملون معاملة حسنه وكانوا لذلك أصحاء الجسوم . لكنهم بعد إلغاء الرقيق فقدوا سادتهم ولم يستطيعوا العمل وحدهم ، فأصبحوا وكأنهم الغنم فقدوا راعيهم ، كذلك العرب فإنهم اعتادوا من قبل حياة السادة يشرفون على عبيدهم فحسب ، فلما فقدوا عمالهم لم يستطيعوا مباشرة العمل وحدهم . فكان من نتائج هذا التحرير أن انحط النوعان : السيد والمسود ، وتدهورت حالة الإنتاج فى الأراضى الخصيبة الساحلية . والعرب هناك لا يزالون يفاخرون بحسبهم القديم ، ويتمسكون بأهداب من العزة واهية فى فلول قصورهم المتوارثة فى مدن الساحل . ولا يزالون يحتقرون العمل اليدوى ويظهرون



(شكل ٩) أمام « بيت العجايب » قصر سلطان زنجبار

شيئاً من كبريائهم القديم كنا نلمحه على وجوههم وهم آخذون فى التدهور السريع لا بل والانقراض أمام المزاحمين من الأجانب ، أسيويين وأوروبيين ، ويقال عن السواحليين أنهم مبذرون كسالى ، على أنهم قوم مرحون ، قانعون بما يلقون يشتغلون بجد أسبوعاً من كل شهر ، وبما يكسبون يسدون حاجاتهم بقية الشهر ، وكفاهم فخرا أنهم نشروا لغتهم التى أصبحت لغة التعارف بين كثير من وسط إفريقية وشرقها .

وفى ممباسا طائفة من أصفياء العرب تحكى لهجتهم لهجة أعراب البادية فى مصر ، على أنهم قذرون ومتأخرون ، ويشبهون فى السحن مسلمى الهنود الذين يكثرون هنالك . وللمدينة مظهر إسلامى فى تعدد مساجدها ، وهم يتمسكون بشعائرهم لا يحيدون عنها . أما سحن الزنوج فمنفرة للغاية بقاماتهم القصيرة ، وأنوفهم الفطساء ، والنساء أشد قبحاً ، يلبس غالبهم الطربوش ، تتدلى خصلته الغليظة الملونة فيما يحكى « زر » العمامة على جباههم وكأنهم البلهاء .

وممباسا تقع إلى جنوب خط الاستواء بأربع درجات ، وكان الجو مدة إقامتى

بها جيلاً ، أميل إلى البرودة إلا أنه رطب ، فالسماء قلما كانت تخلو من الغيوم ، ولم أشعر وأنا بهـا أنى أقارب خط الاستواء بحره القائظ ، على أنه إذا بزغت الشمس فإنك تلاحظ فرقاً عظيماً فى الحرارة ، إذ ترسل الشمس أشعتها الرأسية فتكاد تخترق الجلد ، فإذا ما حجبتها سحابة — وكثير ما هى — انتقلنا من وهج المنطقة الحارة إلى نسيم الجو الأوروبى البليل ، والموسم البارد هناك بين ابريل وسبتمبر ، و يلفت النظر أشجار عتيقة هى بقايا أشجار (الباو باب) التى نمت إبان سيادة العرب والبرتغال ، وقد اعوجت أعوادها بمضى السنين ، وكثرت تجاعيدها وفروعها ، بحيث كانت تبدو الشجرة وكأنها أربع شجرات أو ست ضمت إلى بعضها وتشعبت كل فى أعلاها تشعباً مستقلاً عن جارتها .

والميناء صاخبة تظل حركة الشحن والتفريغ بها دائبة وهى الميناء الرئيسية لمستعمرة كنيا ، والمنفذ الوحيد لماجر أوغندا إذ يصلها بالبحيرات خط حديدى ، وكذلك تصرف عنها بعض متاجر تانجانيقا والكنغو . وأشهر ما تصدره : البن الذى يزرع فى مساحات شاسعة فى كنيا ، ثم السيسال وهو نبات كالصبار يدق فيصبح أليافاً صفراء براقة لكنها خشنة تحكى الليف الأبيض من نخيل مصر ، وينسج للأشرعة والغرائر والحبال ، ومن المواد الصادرة من هنا القطن ذو الليفة القصيرة ، وقشور شجرة (Wattle) تستخرج منها الأصباغ وكذلك العاج ، وقد زرت فى ميناء ممباسيا مستودعاً للعاج تجمعه الحكومة وتصدره تحت إشرافها بمقادير وفيرة ومن الأسنان ما كان بالغ الطول زنة أكبرها مائتا رطل أعنى أن الفيل الواحد قد ينتج أربعة قناطير ، ويختلف العاج جودة باختلاف الحيوان سناً ونوعاً وكان ثمن الرطل الغال من النوع الجيد خمسين قرشاً و يصدر الخرتيت بقلة وقرنه قصير وفى مخروط مقوس إلى الخلف وثمن الرطل منه سبعون قرشاً .

وغالب الأعمال التجارية يقوم بها الهنود أما باقى الأهالين فأجراء ، وقد قيل لى أنه بسبب الكساد العالمى الحالى اضطر نحو نصف الجنس الأبيض و بخاصة



(شكل ١٠) فى احد أزقة زنجبار

أصحاب الأعمال الكبرى من الانجليز أن يبرحوا البلاد ، وقد لاحظنا الكثير منهم يعودون لانجلترا لكساد أعمالهم هنا وها هى باخرتنا غصت بهم يوم برحت ممباسا

قامت باخرتنا (لانجى كاسل) تشق ما بين جزيرة ممباسا إلى اليسار و إفريقية إلى اليمين وكانت الشواطىء وفيرة النبت و بخاصة شجر المانجو إلى اليسار والنرجيل إلى اليمين . والساحل مشرف رأسى ومن صخور الجير الذى أصفر بعدى السنين وفى خمس ساعات أقبلنا على بلاد تنجانيقا وأولها :

تانجا : التى قرت عيوننا باكورة الصباح بجمال المناظر حولها دخلناها فى الليل ونحن نيام ، والخليج تحفه الجزائر الصغيرة المترامية ، وفوق الجزيرة الكبيرة أقيمت المدينة ببيوتها المشورة ثم طغت على جوانب الخليج قبالتها ، حيث يصب نهر سيجى Sigi الصغير ، وقد كانت عهد الألمان أولى ثغور تانجانيقا ، لكنها اليوم فقدت شيئاً من شهرتها ولا يزال يصدر منها فوق ثلث حاصلات البلاد ، والأقاليم حولها غنى بمزارع السيسال والكبرا وفوق المرتفعات البن والشاى ، وهى منفذ طبيعى لأقاليم كلمنجارو وأهلها أحد عشر ألفاً من بينهم ٤٦٣ من البيض و ٢٥٨١ من الأسيويين ، هاجمها الانجليز سنة ١٩١٤ لكنهم ردوا بخسائر فادحة ، وفى سنة

١٩١٦ فتحها الجنرال (سمطس) ولا تزال ترى باخرة ألمانية صغيرة غرقت هناك أبان الحرب . أقلتنا سيارة طافت المدينة وهى على نمط دار السلام ثم أوغلنا فى مجاهل الغابات خلفها فهالنا ما بها من فصائل النبات المتكاثف المتعانق بين صغير وعملاق وخلالها قطع القوم فجوات زرعوها من السيسال والتابيوكا ، لكن غالب الأراضى مهمل يحتاج فى زرعه واستغلاله إلى جهد كبير حتى تستأصل تلك الطفيليات التى كنا نمر أمامها فتغطى جوعنا تماماً بعضها فى أعواد وأوراق كأنها قصب السكر والبعض شجيرات أوراقها مهفهفة خفيفة عريضة ، هنا ذكرنا حقاً مخابىء الوحوش التى خبرنا السائق عنها طويلا وبخاصة السبع والشيتا نمر إفريقية الأرقط وبينا نحن نتحدث إذ بجمهرة من القردة فى أحجام مختلفة تجرى على بعد وتتسابق إلى الشجر وهنا قال الرجل بأن هـــذه القردة أضحت من أكبر المنغصات هناك لا بل وفى باقى إفريقية إلى أقصى الجنوب فهى تسير فى جماعات وتهاجم حقول الذرة ويقف منها حارس أو اثنان للرقابة ولا يفتأ الباقون يقطعون أكواز الذرة ويولون سراعاً ، ولقد اتبعوا فى مطاردتها طريقة عجيبة هى أن يصاد واحد فى فخ ثم يحلق شعره كله ويطلى جسده بدهان أزرق ويطلق سراحه ، فإذا أتى عشيرته ورآه الجمع هكذا خشى أن يحل به مثل ذلك فينقطع الجميع عن زيارة تلك البقعة مدة طويلة هروباً من ذاك المنظر المخزى !

أدى بنا التسيار خلال تلك الغابات إلى مغاور بها من الصاعدات والداليات والفجوات ما يشعر بمرور نهر تحت الأرض نقب الصخر هكذا ، والمنطقة حولها جد موحشة لولا ما ترى من جموع الفراش رائع النقوش ومن أسراب الطيور مغردة فى ألوانها الساحرة . وبعد أن سرنا طويلا فاجأنا نهير يكاد يغطيه كثيف النبت وخايعه ومن الشجر الذى استرعى أنظارنا (الباوباب) الشامخ ، وكان له ثمر كأنه أكواز الشيم الكبيرة تغشى قشوره وبر أملس ناعم ، إلى ذلك شجر متعدد الثمرات من بينها ثمرة حمراء هشة كأنها التفاح قلبها ناصع البياض تتوسطه نواة



(شكل ١١) مصنع للقرنفل ينشر المحصول أمامه فى زنجبار

صخمة كنواة المانجو ويسميها القوم بالسواحلية (توفاه) بمعنى تفاح ، والجوافة والمانجو التى أثقلها الثمر دون أن تجد صاحباً يستغلها . هنا حط رهطنا الرحال وأخذنا نأكل من ذلك الثمر الشهى حتى امتلأنا بطوناً وجيوباً ، ويتخلل كل أولئك شجر النرجيل الذى لايغيب عن العين . طال بنا التجوال والركوب زهاء ساعتين بين وهاد ونجاد فهمنا خلالها معنى الغابات الكثيفة حقاً فى رهبتها ووحشتها وجمالها الرائع .

زنجبار : فى أربع ساعات بدت أرض زنجبار فى شبح فاتر لبث كلما قار بناه يجلو فى جزائر صغيرة منثورة حول الجزيرة الكبيرة وحول الجميع نطاق أبيض ناصع من تكسر موج البحر على جسور المرجان يحيط بها وكان النبت الوفير يكسوها جميعاً ، وفى أكثر من ساعتين رسونا على بعد من الأرصفة وأقلتنا الزوارق الصغيرة إلى الشاطىء فبدت المدينة شبيهة بناحية الميناء القديم فى الاسكندرية ، طرقها مختنقة لكنها نظيفة وغالب بيوتها من طبقتين فى هندسة بين العربية والمصرية ، ويواجه الميناء قصر السلطان القديم فى منظر لا بأس بأبهته فى أعمدته التى تحوط طبقاته كلها

ويسمونه (بيت العجايب) وهو اليوم دار الحكومه كان يرفع عليه علم البلاد فى قماش أحمر ويجانبه القصر الجديد للسلطان وعلى مدخله لوحة نحاسية كتب عليها (السلطان الخليفة سيد) وهو عربى يلبس عمامة شبيهة بعمامة الهنود ، ومن هنا أقلتنا الركشا إلى أرجاء عدة من المدينة أخصها شارع (دارا جينى) وهو يجانب شعبة من البحر كأنها القناة الضيقة عليها قناطر عدة يصل بها القوم إلى مسكنهم الوطنى وهو أخصاص تقام على شاكلة تلك التى فى ممباسا تماماً ، وفى نهاية الطريق يقوم المتحف ويسمى (دار الأمانى) تحت قبة صغيرة حوى بعض المخلفات القديمة من سيوف ومخطوطات وهدايا وبعض المقاعد والطبول الكبيرة التى استخدمت فى الحروب والمعروضات ليست بذات قيمة تذكر ، بعد ذلك زرنا بيت الحاكم الانجليزى — وزنجبار وپمبا سلطنة تحت حماية الانجليز — وهو أفخر مبانى المدينة يقوم فى شكل قاعة تطل على البحر تزينها الحدائق المنسقة وأمامها متنزه فكتوريا وهو ملعب عام وبه بعض المقاهى والمراقص ، أما أسواق المدينة فأعجب شىء بها فهى أزقة مختنقة ذات لفائف كأنها التيه لا يعلم لها أول ولا آخر بشعابها المعقدة فهى أشبه بحى خان الخليلى وما جاوره عندنا أرضها مرصوفة نظيفة وبها تعرض مبيعاتهم وغالبها من منتجات هندية ويابانية ، وتضم المدينة من الأهلين مائتى ألف نفس منهم ١٦٥ ألفاً من السواحليين وعشرون من العرب وخمسة عشر من الهنود أما الأوربيون فلا يجاوزون ٢٧٠ واللغة السائدة السواحلية التى يتكلمها الجميع ، والإسلام دين السواد الأعظم ، أما السحن فبعيدة الشبه جداً ومنوعة وغالبهم فى جهل عميق ويقوم بالأعمال التجارية الهامة الهنود فى الغالب ، وليس للبلاد نقود خاصة فهم يستخدمون النقود الهندية (مثل الروبيه والآنه) وأعجب ما هنالك أن ساعة البلاد تسير على نظام العربى فعند الغروب تكون الثانية عشرة وترى حتى ساعات الميادين تسير على هذا النظام

والمدينة تقوم على الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة التى يبلغ طولها خمسين



(شكل ١٢) إحدى قرى زنجبار

ميلا ومساحتها ٦٤٠ ميلا مربعاً وتبعد عن القارة بنحو ٢٢ ميلا ، والبلاد تاريخية قديمة ، عرفت أخبارها منذ سنة ٦٠ ميلادية ، وظلت قروناً أكبر مين شرق إفريقية وأغناها مورداً . والبيت المالك والطبقة الممتازة من العرب من شيعة أيبادهى لذلك خلت مساجد المدن من المآذن ، والمؤذن ينادى من باب المسجد ، وعدد مساجدها هذه يفوق المائة ، أشهرها مسجد كزمكازى بنى سنة ١١٠٧ عندما احتل الفرس الجزيرة والساحل المواجه لها . وعماد ثروتها :

القرنفل : الذى زرعه السلطان (سيد سعيد) وأمر أصحاب الأرض أن يزرعوه وإلا اغتصب أملاكهم ، فأصبح الغلة الرئيسية منذ مائة سنة إذ ٨٨ ٪ من قرنفل العالم أجمع يصدر من هذه البلاد ، وهو يشغل مساحة ٦٠ ألف فدان ونحو ٤ مليون شجرة تنتج نحو ١٨٠ ألف قنطار قيمتها عشرة ملايين روبية — والروبية سبعة قروش — ويحسن ألا يزيد عدد الشجر على ثمانين للفدان ، وشجره يثمر فى سن بين الخامسة والثامنة ، وقد يثمر فى الثالثة ، وغلة الفدان

خمسة أرطال من القرنفل الجاف ، وجنى القرنفل يحتاج إلى مهارة و إلا تلف كثير من الفروع السفلى ، وهو يجفف بعمليات شاقة ، وإذا نضج وترك حتى تتفتح أكامه فقد قيمته ، و إذا أزهر آذى الشجرة ، لذلك كان العلم بعيقات جنيه وليد خبرة طويلة . والحكومة تتقاضى عليه من الضرائب ما يوازى ٢٠ ٪ من قيمته ، لذلك اهتمت به كثيراً لأنه عماد موردها . ومن القرنفل تستمد الأعطار والبهار والعقاقير والفانيليا (Vanillin) . وعجيب أنه جرب فى السواحل المقابلة لزنجبار ، فى إفريقيه فلم ينجح بتاتاً ، رغم تشابه المناخ ، ولو أنه نجح تماماً فى مدغشقر ، التى بدأت تنافس زنجبار ، إذ بلغ إنتاجها ١٨٠ ألف قنطار . وفى سنة ١٨٧٢ هبت عاصفة عاتية اقتلعت جميع أشجاره فى زنجبار وأعيد زرعها .

قمت بجولة فى ضواحى المدينة ، وهى غابة كثيفة ، تشقها الطرق التى تعلو وتهبط وتلتوى فى تعقيد كبير ، وأظهر الشجر النرجيل والمانجو ، وقد دخلت مزارع القرنفل بأشجاره الكبيرة فى خضرة مصفرة ، وثمره ينمو فى عناقيد من براعم متجاورة يعلوها زهر كأنه الوبر ، ثم تحمر البراعم وتقطف ، ثم تجفف وكنا نرى البيوت كلها تنشره على الحصر أمام الأبواب ، وفى كثير من الجهات تقوم مصانعه ، وكنا نمر ببعض مصانع (الكبرا) وفيها يجمع النرجيل ، ثم يعرى عن قشوره وأليافه ، ويحطم لبابه ، ويشحن إلى الخارج لاستخراج زيوته . وتعد الجزيرة خير بلاد شرق إفريقية بإنتاج الكبرا ، إذ صدرت نحو ١٣ ألف طن سنة ١٩٣٠ . وشجرة النرجيل تزكو فى الشواطىء الحارة الرطبة خصوصاً بين ممباسا والزمبيزى (فى كينيا نحو نصف مليون شجرة ، وفى تانجانيقا ثلاثة أرباع المليون) . ويكمل نمو الشجرة فى سن العاشرة لكنها تغل فى السادسة والسابعة ، وتظل تثمر نحو مئة سنة . ويحسن ألا يزيد عدد النخيل فى الفدان على سبعين شجرة . وتغل الشجرة من الكبرا بما قيمته خمسة قروش ، وفى بعض الجهات يهمل الثمر مقابل العصير من الجذوع . ذاك الذى يعمل منه نبيذ القوم المسمى



(شكل ١٣) تجفيف الترجيل لعمل الكبرا فى دار السلام

(Tembo) . على أن ذلك يؤذى بالشجر جداً لذلك منعته الحكومة فى بعض الجهات .

ومن الشجر الغريب هناك شجرة فاكهة الخبز ذات ورق فى حجم ورق الموز لكنه مخرم مسنن فى وسطه وأطرافه ، وثمرتها فى حجم الشمام الكبير ، إلا أنها أكثر تفرطحاً وأضيق فى وسطها ، وظاهرها خشن محبب ، و باطنها مادة نشوية يتخذ منها الدقيق ، وقيل إن ست شجرات منهـا تمون عائلة كاملة بمـا تحتاج إليه من الخبز طوال العام ، إلى ذلك نبات (الكسافا أو المـاهوجا أو التابيوكا) ، و يبدو كالكروم على بعد ، فإن دانيته بدا أعواداً معقدة فى طول قامة الرجل ، إذا اقتلعت العود من الأرض خرجت معه مجموعة من جذور درنية فى حجم طويل ، ومادتها نشوية لبنية لمساً وطعماً ، و يأكلها القوم طازجة ومطبوخة وما زاد من محصولها جفف فأضحى خفيف الوزن هشاً ، إذا سحق بيع دقيقاً ، وهو من أهم المواد الغذائية فى شرق إفريقية وحيث بكثر يزيد السكان ، و يقال إنه أرخص المواد التى تستخرج منها الكحول

سرنا طويلاً خلال تلك المزارع الكثيفة النبت والشجر و بين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد تغص بالبيوت الريفية ، تقام من أعواد الغاب المتقاطعة ، تطلى بالطين ، وتغطى بجدائل من خوص النرجيل ، والناس مسلمون ، ولغتهم سواحلية ، على أن النساء سافرات يلبسن دثاراً فضفاضاً خفيفاً ، ألوانه زاهية ، ويعلقن فى آذانهن أقراطاً من ورق ملون مثنى وثلاث ورباع ، وبعضها فى حجم نصف الريال ، وسحنهن أجمل من سائر السود اللاتى رأيتهن إلى آخر إفريقية جنوباً ، ولون القوم أخف سواداً مما يشعر بتأثير الدم العربى فيهم جميعاً ، وأعجب ما ترى حفلات الرقص القومى يتمايلون خلاله بشكل مضحك ، تصحبهم قرعات الطبول الأفريقية الضخمة وكأنها البراميل المستطيلة تدق من جانبيها .

وقد زرنا فى تلك الضواحى القصر القديم للسلطان (سيد برغش) ، وهو أطلال وسط حدائق تزينها برك البشنين والبردى ، ولا تزال كثير من أعمدته الضخمة قائمة ، وكذلك جانب من حماماته التركية بمداخنها الكثيرة ويقص القوم أن هذا السلطان كانت له زوجات يناهز عددهن المائة جارية من مختلف الأجناس فى هذا القصر وهذا سر تسميته (بقصر الحريم) ، وهناك قصر آخر يطل على البحر كان مقره الريفى ، ولا يزال السلطان الحالى يقضى فيه يوم السبت من كل أسبوع . عدنا من جانب الجزيرة الآخر مخترقين الحى الآهل بالسكان فى بيوتهم ضخمة البنيان ، ذات الأبواب الحديدية المصمتة الثقيلة ، ومن بينها دار البريد والحربية وأسواق الخضر والسمك ، ثم زرنا الكنيسة الإنجليزية التى أقيمت فى مكان سوق الرقيق القديم . وقد بنى المذبح فى المكان الذى كان معداً للجلد والتعذيب ، وقد صنع الصليب الذى يعلو المحراب من خشب الشجرة التى يدفن تحتها قلب الرحالة لفنجستون على بحيرة بنجويلو فى منابع الكنغو .

دار السلام : بحرنا إلى دار السلام الخامسة صباحاً ، وكان البحر هادئاً جميلاً . وظل عقد من الجزائر المرجانية تمتد من زنجبار جنوباً إلى مسافة مديدة ،

وكنا أحياناً نلمح شاطىء القارة فاتراً على بعد وفى خمس ساعات بدت مجموعة من الجزائر المتقاربة كثيفة النبت ، ومن ورائها مبانى دار السلام . وأخذنا نتطلع إلى مدخل الميناء ، وكان دليل الميناء يدير السفينة يمنة ويسرة ، وكأنها السيارة على ضخامتها ، وأخيراً ظهر المدخل مختنقاً تحفه شواطىء رملية بدرجة لا تسمح بمرور سفينتين معاً ، وعنده رأينا رصيفاً منهاراً وسفينة غارقة كان قد رمى الألمان بذلك إلى قفل الميناء فى وجه

(شكل ١٤) هكذا يبدو أجناد البوليس فى شرق إفريقية كلها

الأعداء من الانجليز إبّان الحرب . وما أن اجتزنا هذا المضيق ، حتى انفسحت الميناء ، بشواطئها الرملية الممدودة فى شعاب لا حصر لها تنتثر عليها المبانى ذات السقوف المتحدرة الحمراء ، تحفها المزارع الغنية ، ويكاد يخفيها شجر النرجيل . وفى الحق إنها لميناء آمنة مختبئة ، حققت فى نظرى تسميتها بدار السلام التى أسسها سيد عبد المجيد سلطان زنجبار سنة ١٧٦٢ ، واحتلها الألمان سنة ١٨٨٩ ، على أن الميناء ضحلة المياه كأنها المستنقع ولا يمكن للسفن دخولها إلا ساعة المد ، وكنا نلاحظ عند المدخل كثيراً من الشجيرات يغطيها ماء المد فى مساحات مترامية وعجبنا لنموها فى هذا الماء الأجاج ، أما منظر الميناء بجزائرها ونبتها ومبانيها ، فمن أروع ما رأيت جمالا ، فقد أبدعت الطبيعة تنسيقها وزادها الألمان تجميلا

هنا أقبل البوليس الزنجى يلبس الطربوش الأصفر — وكان فى ممباسا ، وزنجبار أحمر اللون — تتدلى منه خصلة ثقيلة سوداء وحلته صفراء ويلف على الساق شريط أزرق (الشين) أما الأقدام فبدت سوداء براقة بلونها الطبيعى ذلك لأن رجال البوليس فى شرق إفريقية جميعها يسيرون حفاة الأقدام . جبت أرجاء المدينة بمبانيها ذات الهندسة الألمانية المتشابهة ، طرقها فسيحة مرصوفة وفى استقامة تسترعى النظر تحفها الأشجار الوارقة ، والحى الأوربى منها كثير الحدائق فاخر المبانى لدرجة تفوق الوصف ، والناس أشباه سكان زنجبار وممباسا غالبهم مسلمون ، وكنا نسمع المؤذن ينادى للصلاة من أبواب المساجد أو من فوق سقوفها بلهجته العربية المحرفة ، والهنود هنا كثيرون ويبدهم غالب المتاجر شأنهم فى سائر بلاد شرق إفريقية ووسطها وقد علمت أن نحو نصف الأراضى والمبانى فى دار السلام وتانجا وزنجبار ملك لأغنياء الهنود ، وهم ينبثون بين الأهلين ويخالطونهم ويعيشون معهم على قدم المساواة ولذلك فهم محبوبون إلا من الأوربيين الحانقين عليهم لأنهم فى زعمهم موضع خطر اقتصادى كبير بسبب مزاحمتهم للأوربيين مزاحمة قاتلة فى التجارة ، ذلك لأن معيشتهم بسيطة جداً لا يكادون ينفقون شيئاً ، وهذا ما جعلهم يكدسون الأموال ويزاحمون الغير بأجرهم الرخيص ونشاطهم الزائد ، وكم كان دهشى عظيما لهذا النشاط الهندى الذى كان يبدو مجسما فى جميع شرق إفريقية وقلبها إلى البرت نيانزا فى الداخل ، فلم أكد أدخل ديواناً أو متجراً إلا وهم قادته ، وذلك عكس ما رأيته منهم فى بلادهم على الغالب ، وذلك يظهر بوضوح مبلغ أثر الضغط وفساد البيئة فى بلادهم ذاك الذى يقعد بهممهم إلى هذا الحد الشائن ، أما فى خارج بلادهم حيث تحرروا من قيودهم السياسية والدينية والاجتماعية ، فقد ظهرت مواهبهم الكامنة وكفاءاتهم الخامدة .

ولهم هناك مدارسهم ومساجدهم . وقد زرت فى ضواحى دار السلام مدرسة لصغار الفتيات من الهنود حوت نحو مائة وخمسين يجلسن على الحصر فى مكان



(شكل ١٥) إحدى جيلات دار السلام

نظيف ، وكان الدرس ألعاباً رياضية يقف البنات فى دوائر متداخلة ويدرن وبأيديهن عصى قصيرة من الأبنوس كأنها الصوالج ، وفى وسط الدائرة فتاة تعزف على بيان صغير ، وهن يرقصن وراء النغمة ، ويغمزن بأرجلهن ويغنين ، وتلطم كل فتاة على عصويها ثم تعود بهما فتصدم عصوى جارتها وهكذا .

والمدينـــة تشهد للألمان بحسن القيام على بلدانهم ، وتنظيمها بدرجة تفوق أقرباءهم الانجليز ، وقد كنت أسمع من كثير ، ومن بينهم موظف انجليزى هناك كان يشغل وظيفة عهد سيادة الألمان ، أن الادارة اليوم اضطربت منذ غادر الألمان البلاد فهم فى زعمه كانوا أقدر على حكمها ، وتتردد الإشاعة أن تانجانيقا ستعاد للألمان . وكان جو البلاد بارداً لطيفاً أدفأ من أيام شتاء مصر قليلا ، والسماء يغشاها السحاب المتقطع ، أما صيفهم وهو موسم المطر الغزير فبعد سبتمبر حين يسقط المطر وابلا وقد حفروا له على جوانب الطرق مجارى كأنها القنوات الصغيرة ، والمدينة تقع جنوب خط الإستواء بسبع درجات إلا قليلا ، وسكانها عشرون ألفاً نصفهم

إفريقيون . وهى اليوم أكبر مدن تانجانيقا تحتكر ٥٦ ٪ من تجارتها ، ومن الصادرات الهامة التى كنا نراها توسق فى السفن فى غرائر كبيرة : البن والفول السودانى المقشور الذى يستخرج منه المرجرين ، والكبرا ، وألياف السيسال : ذلك النبات الذى يحكى الصبار الكبير أدخله الألمان إفريقية من بلاد المكسيك فانتشر خصوصاً فى تانجانيقا حيث بلغ الصادر منه فى العام بنحو ١½ مليون جنيه وتقطع أوراقه من السنة الثالثة ، وعددها بين ٢٠ ، ٥٠ ورقة فى العام وتظل تمو كل عام مرة ويمو العود الأوسط تعلوه جة (شوشة) عليها البذور ، وتظهر الأوراق الجديدة فى أسفله ، وبعد السنة الثامنة تموت الشجرة ويبذر البذر من جديد ، وتغل الورقة ٢½ رطلا والفدان ٢٨٠٠ رطل سنويا ، وقد تبلغ أليافه المتر طولا فى لون أبيض براق ، والأوراق تعطن ، ثم تدق وتنشر الألياف على عصى فى الشمس ثم تحزم وهى خير ما يصنع منها الحبال لمتانتها ، وهو يفضل فى مصانع أوربا على قنب مانلا ، وللنبات فضل فى أنه ينجح فى التربة الرملية ، ويحتمل أشد التقلبات المناخية ، ولا يتطلب مالا كثيراً ، وزراعته لا تحتاج إلى خبرة واسعة كما أنه لا يتعرض لأمراض قط ، ويمكن أن يستغل ويصنع فى جميع شهور السنة ، وأصلح الأجواء له الحارة الجافة ، ومن ثم الأجواء الصحية الملائمة للانسان ، فمصر تلائمه جداً ولا أدرى لم لا نشجع انتاجه فى بلادنا رغم توافر الظروف لزراعته وحاجتنا إلى منتجاته ، وقد بلغ ثمن الطن منه سنة ١٩١٨ ٩٩ جنيهاً لكنه تدهور اليوم إلى ١٣ جنيهاً مما هدد زراعته جداً ، على أن الأمل فى انتعاشه كبير لأن الطلب عليه متزايد اذ يفضل قنب مانلا المزاحم له .

برحنا دار السلام الثانية مساء بعد أن اضطرت الباخرة أن تنتظر علو ماء المد ثلاث ساعات ، وأخذت تتمايل حتى أتت على مخارج الميناء وسط المناظر الساحرة ، وفى صباح اليوم التالى كان الجو جميلا مشمساً إلا فى سحب خفيفة منثورة ، لكنه ما لبث أن فاجأنا باضطراب اعصارى شديد أعقبه وابل من المطر ، ولم يكن



(شكل ١٦) بعض الأحياء الوطنية فى دار السلام

غريباً فإنا نعلم أن مضيق موزمبيق أحد مفاوز الأعاصير ، وكان السحاب يرسل القطرات فتتصل بماء المحيط فى شكل قاتم مخيف ، وفى ساعتين انكشف الجو وعاد البحر هادئاً ، أما مهاب الرياح غالب الأيام فالجنوب والجنوب الشرقى ، وتلك هى الرياح التجارية تندفع وراء الشمس إلى القارات الشمالية حيث يخف الضغط ويتخلخل الهواء .

إلى شرق افريقية البرتغالية : فى أقل من يوم دخلنا البحار البرتغالية وأقبلنا على خليج (Pemba) فى دائرة كبيرة ذرعها سبعة أميال فى خمسة مدخله ميل ونصف ، تحوطه الربى الصخرية التى كادت تعرى عن النبت خصوصاً فى هذا الموسم من السنة ، وهو موسم الجفاف ، وعلى مدرجات إحدى الربى تقوم مجموعة من بيوت صغيرة بيضاء جديدة يشقها طريق رئيسى واحد يتلوى فوق المرتفعات والبلدة تسمى بورت أميليا أقيمت منذ خمس سنوات ، وينتظر لها مستقبل تجارى عظيم لأنها أصلح المنافذ الطبيعية لأرض نياسالاند وقبل لجزء من

روديسيا الشمالية أيضاً ، و يزمع مد خط حديدى بينهما ، وعندئذ تزاحم مدينة موزمبيق ، والخليج عميق متسع الداخل بحيث إذا ما أقيمت عليه الأرصفة آوى من السفن مالا يحصى ، وأقليم نياسا الذى خامها غنى بالزراعة والتعدين ومن غلاته السيسال والرجيل والقطن والطباق والدرة والحبوب الزيتية ، وقد ظلت الباخرة يومنا توسق من السيسال والسمسم ، والاقليم كثيف السكان من السود ، و إن كان البيض به قليلون ، والمنياء تعد من أصح مين شرق إفريقية جوا . إذ تندر بها الملاريا ، والحمى السوداء ، وذباب تسى نسى تلك التى تكثر فى سائر مين البرتغال وذلك بفضل جودة الصرف الطبيعى بسبب مرتفعاتها .

الملاريا : تكاد تكون كل إفريقية من روديسيا جنوباً إلى أقصى السودان شمالاً عرضة لهذا المرض إبان موسم المطر ، وهو نتيجة بعوضة مريضة ملوثة ، وجراثيم المرض تحمل فى دم البعوضة ، وتنقل إلى الإنسان إذا لدغته ، وقد تنقل من المريض إلى السليم ، ولحسن الحظ قلما تلدغ البعوضة فى ضوء النهار ولذلك قل خطرها إذا اجتنب الإنسان الأماكن ضعيفة الضوء نهاراً و إذا طرد البعوض ليلا ، لذلك كنا نشاهد كل البيوت فى المناطق الموبوءة تحمى نوافذها وأبوابها بشباك السلك ، وأكبر حامل للمكروب الأهالى من السود و بخاصة أطفالهم ، فإذا أبعد هؤلاء عن البيوت ليلاً قلت الفرصة فى أن ينقل البعوض العدوى منهم إلى غيرهم . وكان يصف لنا الأطباء تناول خمس حبات من الكينين يومياً خصوصاً عند تناول الطعام ، وذلك يكفى لمنع العدوى ، و بعوض الملاريا لا ينقل بعيداً إلا بواسطه الرياح القوية ، ولما كانت المياه ضرورية لحياته لزم ردم النقائع واستئصال الشجيرات والغاب المهشم الذى يتجمع تحته الماء الراكد ، فإذا تعذر ذلك وجب رشها بالبترول ، وكثير من البط وصغار السمك يأكل بويضات البعوض و يرقانه بشره زائد ، وقيل ان سيوة فى مصر تخلصت من ذلك الوباء بنوع من السمك اسمه تاليبيا (Talip'a) جلبته من فرنسا سنة ١٩٢٧



(شكل ١٧) جانب من سوق دار السلام

ويقال إن أنواع الحفاش أفاد فى استئصال البعوض فى جهات من الولايات المتحدة ، وإذا عنى بعلاج الملاريا زالت تماماً ، على أنها كثيراً ما تبقى فى الجسم مختبئة فى الطحال أو الكبد ، وعند ما يناسبها ضعف الجسم تظهر ثانية ، وعدم الانتظام فى علاجها مدة طويلة قد يؤدى إلى مضاعفات منها :

الحمى السوداء : التى تسبب نزول الدم القاتم مع البول ، ومن هنا جاء اسمها ، وهذا المرض أخطر من الملاريا لأنه يضعف القلب ضعفاً شديداً ، لذلك وجب ألا يحرك المريض وألا يجاس ، ويجب أن يباشره الطبيب دائماً .

ومن الأمراض المنتشرة هناك مرض الماشية (Nagane) الذى تنقله ذبابة تسى تسى ، تلك التى تنتشر فى ٦٧ مليون فدان من رودسيا وحدها وتفتك بالماشية فتكاً ذريعاً ، ومما يخفف من وطأتها أنها قلما تلدغ ليلا ، ولا تقارب المياه ولا تعبر الأنهار قط .

لبثت باخرتنا فى بورت أميليا يوما كاملا هاجمنا خلاله جماهير الباعة من السود يحمل كل أقفاصاً من الغاب بها مجاميع من طيور ذوات ألوان ساحرة



(شكل ١٨) مزارع السيسال فى نانحايقا

وكان القفص يعرض بعشرة قروش والببغاء الكبير بخمسة قروش والنسناس بعشرة وذلك يؤيد كثافة الغابات موطن تلك المخلوقات .

قمنا الى موزمبيق : فوصلناها فى نصف يوم فبدت جزيرة كبيرة حولها مجموعة من جزائر تكسوها الخضرة النضرة ، وأخذنا ندخل بين طياتها وعلى منحدرات تلك الجزائر جميعاً تقوم المدينة ، والجزيرة الرئيسية تبعد عن القارة بثلاثة أميال ، والجزائر كلها مرجانية تحفها الشعاب المتعددة وتغص بمختلف الأصداف ذات الأشكال العجيبة التى هاجمنا بها جمهور الباعة ، رسونا بعيداً وحملتنا الزوارق إلى المدينة ، وأول ما استرعى أنظارنا القلعة القديمة بحوائطها الحجرية الضخمة الشاهقة التى يبلغ علوها ٣٥ قدما ، وهى تحيط بطرف من الجزيرة دخلناها وتسلقنا أسوارها التى تنقبها عيون تطل منها المدافع القديمة الثقيلة تحمل على عجل من خشب وفى وسط سقفها حوض غائر لجمع ماء المطر الذى كان يستقى منه الحراس . وفى أسفلها عدة مقاصير وحجرات مظلمة بنيت سنة ١٥٠٨ بحجارة كلها نقلت من البرتغال على بعد ٨٠٠٠ ميل فى زوارق ذلك العصر وهى



(شكل ١٩) بورت أميليا فى شرق إفريقية البرتغالية

تتخذ اليوم سجناً ، ويفاخر البرتغال بأن علمهم ظل يرفرف فوقها منذ أقيمت فى سنة ١٥٠٨ إلى يومنا هذا بدون انقطاع .

خرجنا نجوب المدينة ، فراقتنا طرقها الضيقة الملتوية رصفت بالحجر يجانبها إطاران بالأسمنت وإلى جانب أحدهما مجرى صغير لماء المطر الذى ينزل إبان الصيف وبخاصة فى ديسمبر ويناير ، أما البيوت فكلها من دور واحد وبالحجارة الثقيلة لا تكاد ترى بها من النوافذ شيئاً ، فهى تحكى بيوت القرون الوسطى تماما ، ويخيل إليك أنها مجموعة سجون ممتدة ، وكنا نرى معدن الميكا القديم يقوم مقام الزجاج فى بعض مناورها ، وأجملها بيت الحاكم يطل على الميناء ، والبلدة صغيرة لا يعدو ساكنوها ٧٣٦٥ نفساً منهم ٤٨٦ من البيض و ٢٥١ من الهنود والباقون من الزنوج الذين يدين غالبهم بالإسلام ، ولهم جانب من المدينة أقاموا به أخصاصهم المربعة ذات السقوف المنحدرة بالقش والطين والغاب ، وكم يروقك منظر السيدات وهن يسرن فى ملاءات خفيفة من أسفل الجسد إلى وسط الصدر فى وجوه منكرة يزيدها قبحاً أن الكثير منهن يلطخن الوجه كله بعجين أبيض

بحيث لا ترى منه إلا عينين براقتين وتلك آية التجمل لديهم ، والسيدة إذا سارت بدا تقوسها فى انتفاخ عجزها إلى الوراء وصدرها الكاعب إلى الامام فى شكل مضحك ، أما الطرق الرئيسية فتكاد لا ترى بها مارة قط ، فاذا ما أطلت النظر فى الأبواب المفتحة بدا فى داخلها المظلم حانوت به بعض المعروضات الضئيلة ، والمدينة ظلت عاصمة أملاك البرتغال زمناً طويلا ، والأقليم الذى خلفها خصيب بالذرة والفول (السودانى) والسمسم والتابيوكا والبن ، وظلت السفينة تحمل وسقها من الفول والسمسم والكبرا ، ويزمع مد خط حديدى منها إلى نياسالاند التى تعد احدى منافذها الطبيعية ، وهى وإن قلت أهميتها اليوم عن ذى قبل إلا أنها هامة من الوجهة التجارية ففيها تجمع غلات البلاد المجاورة بواسطة خفاف السفن التى يمتلكها الأعراب وتسمى (داو) ، ومن هنا تصدره إلى الخارج ، قمنا نشق بوعاز موزمبيق إلى :

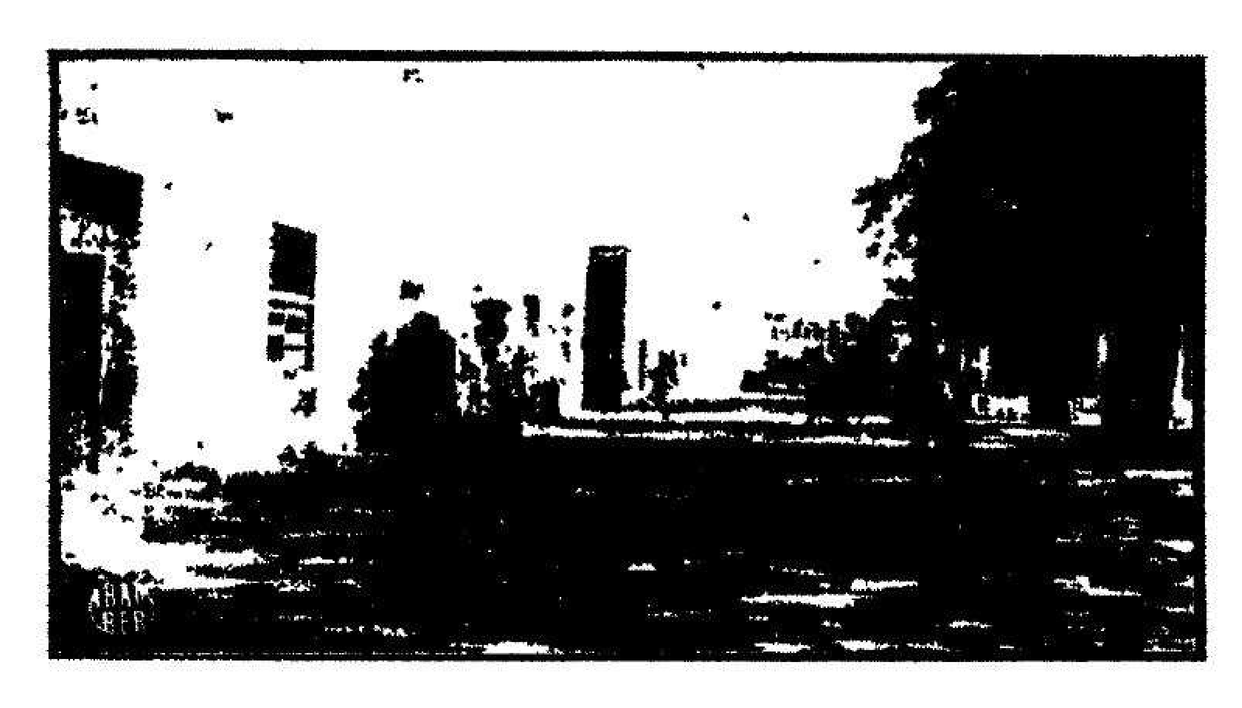
بيرا : فوصلناها فى يوم واحد ، وكان جو يومنا مضطرباً عاصفاً مطيراً وقبل أن تبدو بيرا بساعات تغير لون ماء المحيط فأضحى عكراً كأنه ماء النيل إبان الفيضان ، وذلك من أثر نهر الزمبيزى الزاخر ورغم بعد بيرا عن مصبه بنحو مائة ميل سبب ماؤه حدوث تيارات قاسية تجتاح المدينة ، إلى ذلك فإن المدينة تقع قرب مصب نهرين صغيرين (Pungwee من الشمال و Buzi من الجنوب) ولقد انتظرنا دليل الميناء ونحن نبعد عنها بنحو ١٨ ميلا مما يدل على أن مدخل الميناء ضحل قليل الغور ، وقد عانينا كثيراً ونحن نرسو إلى رصيف الميناء ، ولما غاص الماء إبان الجزر هوت السفينة حتى استقرت على الأوحال ، فأدهشنى ذلك لكن علمت أن السفن مبسوطة من أسفلها وليست مناثة كما كنت أعتقد فلا ضير أن تستقر السفينة على قاعها ، وفى الأصيل علا المد فجاوز ١٨ قدماً وهذا المد العالى الذى يدرك المدينة هو سر شهرتها التجارية ، وإن كانت الجرافات دائبة على تطهيرها من الرواسب ، دخلنا المدينة فبدأنا نسمع البرتغالية ينكلمها



(شكل ٢٠)
أمام قلعة مورمبيق ويفاخر البرتغال أن علمهم ظل يرفرف عليها مند حلوها

غالب البيض ، أما لغـة السود فلهجة أخرى تقرب من السواحلية ، وقد لاحظنا في وجوه السود تغيراً : فاللون أسود والشعر أمعن في التجمد والقامات أخذت في الطول ، والبيوت مبعثرة في غير نظام وكلها من دور واحد ، إلا شارع هو آية في التنسيق له أرصفة بالأسمنت ، وعلى الجانبين تقوم الأشجار ومجار للمطر تطمر بالرمل ، ثم إطار ضيق للراجلين ، وأجمل ما به بيوت في فلات أنيقة تقوم على عمد أو شباك من قوائم الأسمنت والآجر ، وعليها طابق واحد متحدر السقوف تغشاها شباك السلك الدقيق اتقاء البعوض ذلك لأن المدينة تقع في بقعة وطيئة تكثر من حولها الأوحال والمناقع ، ويؤمها بعوض الملاريا ، وكثير من البيوت يبنى بألواح الصاج المحزع أو من الخشب ، وبها خط لسيارات الأمنيبوس وقد كان بهـا ترام ولـكنه أوقف لقلة دخله ، والهنود هنـا أقل ظهوراً منهم في البلدان السابقة ، والبوليس من الزنوج يلبسون فوق الرأس قلنسوة مطوطة توضع على جانب من الرأس وهم حفاة الأقدام .

والغذاء القومى هنا مزيج من مدشوش الذرة يطبخ كالأرز المسلوق وقد تقطع عليه شظايا سمك نيىء أو مقدد ، ويأكله القوم بشكل تعافه الأعين ويسمونه (Milipapa) وسكان المدينـة حول ١٦ ألفاً ، منهم فوق الألفين من البيض ، وأقل من ذلك من الهنود ، وكثير من السود يقومون بزراعة الأراضى الداخلية خصوصاً التى تنتج المطاط والقصب والذرة ، ولا تزال طريقة البرتغال سائدة وهى أن يمتلكوا الأرض جميعها ويكلف السود بفلحها ، لكنهم بدأوا يرون أن الطريقة الإنجليزية فى تمليك الأراضى للأهلين وتكليفهم بخدمتها مقابل ضرائب يدفعونها هى خير وأعود بالنفع ، وميناء بيرا عظيمة ، حركتها التجارية لا تخبو ولا يقل عدد السفن التى تدخلها عن ٦٥٠ حمولتها فوق ثلاثة ملايين طن ، وهى تعد مفتاح رودسيا كلها تلك البلاد الشاسعة عديمة السواحل ، وتصلها بسلزبرى عاصمة رودسيا سكة حديدية ، ونهر زمبيرى يقسم البلاد قسمين : رودسيا الشمالية وهى أقرب إلى الفطرة والهمجية ، والجنوبية وهى أكثر عمراناً ، ولعل رودسيا أقدم بلاد لها تاريخ مدون فى إفريقية بعد مصر ، فأهلها الأصليون كانوا من البشمن الذين تركوا آثارهم فى رسومهم داخل بعض المغارات هناك ، ولسوء حظهم كانت بلادهم مفرطة فى الغنى المعدنى خصوصاً الذهب ، حتى غزا البلاد فى عهد سليمان الحكيم شعب من الأعراب يسمون عرب سبأ ، وهم فرع من الفينقيين تملكوا مناجم الذهب واستخرجوه وأغرقوا به العالم حتى لم يصبح للفضة فى عهد سليمان من قيمة تذكر بجانب الذهب ، وهؤلاء تركوا من آثارهم هناك ما هو جدير بالذكر بين معابد ومناجم وقلاع ، ولعل أفخرها البيوت الصخرية فى زمباوى فى مقاطعـة مكتوربا من جنوب رودسيا قبالة نفر بيرا مباشرة وهى بقايا مدنية عريقة ، حقاً كان أهلها يتعبدون فى الهيكل الاهليلجى الذى كان يحوطه سور من الجرانيت علوه ثلاثون قدماً وبه برج مخروطى شامخ . ويظهر أن السبأيون سادوا أغلب بلاد رودسيا على معظمها من ٢٠٠٠ ق م و ١٠٠٠ بعـد الميلاد حتى غلبهم جماعة



(شكل ٢١) مبانى موزمبيق يبدو كأنها سجون طره

البانتو من الشمال ، ولما أغار البرتغال من الشاطئ سنة ١٤٨٥ دخلوا البلاد عن طريق الزمبيزى لكنهم لم يتمكنوا من البقاء وهزموا سنة ١٧٦٠ وساد الهمج هناك فوق قرن من الزمان حتى كان عصر المستكشفين أمثال لفنجستون وسسل رودس ، والبلاد غنية بالمعادن جداً ، فلقد أنتجت على أيدى البيض مائة مليون جنيه من المعادن ثلاثة أرباعها ذهباً — فهى ثالثة جهات الامبراطورية البريطانية فى انتاجه والنحاس بها كثير و بعض مناجم رودسيا الشمالية تنتج سبعة آلاف طن يومياً ، ومجموع مافى أرضها ٥٠٠ مليون طن من النحاس ، وقد كانت باخرتنا تحمل وسقاً منه فى كتل فطيرة طوال إقامتنا فى بيرا ، وأفخر مناظر رودسيا شلال فكتوريا على الزمبيزى ، وعنده تعبر سكة الحديد النهر فى أعلى قنطرة فى الدنيا ، وليس فى طوق انسان أن يصور روعته ، تصور بحراً زاخراً من الماء فى عرض ميل يهوى كله هوة غورها ٤٥٠ قدما ، وفى قرارها يختنق كل هذا إلى مائة باردة ، و يعلو رذاذ الماء ٧٠٠ قدم فى الجو ، و يسمع دوى الماء على بعد عشرة أميال ، و يزيد المنظر

سحراً كثرة أقواس السماء التى تنعكس بألوانها المتحركة فى ضوء الشمس نهاراً والقمر ليلا ، وفى اليوم المطير الهادئ يصعد البخار فى خمسة أعمدة رأسية تسمى بالأصابع الخمسة أو (بالدخان الراعد) ، وهذه يراها المقبل على بعد ٢٥ ميلا وأطلق العرب على الشلال — آخر الدنيا — و يخال البعض أن الشلال حديث العهد جداً ، وأنه منذ ثلاثة قرون فقط كان الزمبيزى يجرى إلى كالاهارى ، و يغذى أخوارها ومناقعها التى يرى ماؤها اليوم آسناً ، فلما تحول النهر هكذا جف أقليم كالاهارى وزاد مناخه تطرفا ، وللأستاذ شفارتز مشروع هائل به يعيد صلة الزمبيزى بتلك المجارى القديمة فيملأها ماء هى وسائر بحيرات كالاهارى فيعود للمكان خصبه ، و بذلك يمكن رى عشرة ملايين من الأفدنة ، وأهل روديسيا يعيشون على فطرتهم وهم قبائل عدة ، وتتعدد لهجاتهم و يعبدون الجن ، ولعل أعجب قبائلهم قبيلة (أواتوا) الذين يعيشون فوق مناقع لوكانجا ، وتقوم أخصاصهم من الغاب والطين وسط الماء ، و ينتقلون فى زوارق نحيلة ، أقدامهم مكفوفة كأقدام الوز ، وهى فى الحقيقة رخوة لدرجة تجعلهم لا يكادون يطيقون الوقوف على اليابسة ، لذلك حق عليهم التسمية بالإنسان المائى ، وهناك قبيلة شبيهة بهم حول مناقع بنجويلو وتسمى قبائل (وونجا) شعارهم التمساح ، وقبائلهم لا تزال تتعقب أنسابها عن طريق الأم .

و بعض النحاس الغفل الذى كان يوسق فى السفن ونحن وقوف فى بيرا يفد من (كاتانجا) فى جنوب الكنغو البلجيكية ، وتلك مقاطعة أثبت البحث الحديث أنها غنية جداً بالمعادن و بخاصة النحاس والراديوم ، ففى سنة ١٩٢٢ كشف الراديوم مختلطاً بمعدن اليورانيوم و يصدر الخام إلى بلجيكا ، ونسبة الراديوم كبيرة جداً ، فى أمريكا أغنى بلاد الدنيا به إلى سنة ١٩٢٢ كان يستخلص من طن الخام ٢ر٥٧ ملليجرام من الراديوم لكن الطن فى كاتانجا ينتج ٢٢ر٧ ملليجرام و يقدر ثمن الجرام بنحو ١٢٠٠٠ جنيه ، ولذلك يقدر ثمن الطن من الخام بنحو ٣٠٠٠



(شكل ٢٢) أشرف على الحى الوطنى المكتظ فى موزمبيق

جنيه ، والبوليس يحرس المناجم فى كاتانجا اليوم وكأنها مناجم الماس ، وقد كانت أمريكا تنتج أربعة أخماس محصول الدنيا لكن ستزاحمها كاتانجا تماماً ، ومجموع إنتاج الراديوم الآن ثلاثون جراما ، وثروة هذا الأقاليم أخذت تجتذب سكة حديد الكاب والقاهرة إليها ، فبعد أن كانت تنتحى ناحية شرقية انعرج الخط إلى الكنغو ، وأرض كاتانجا مرتفعة تلائم سكنى الجنس الأبيض ، وقد فكر البلجيكيون إبان الحرب الكبرى لما أن كادت ألمانيا تمحو بلادهم من أوروبا أن يتخذوا أمثال تلك المقاطعة من الكنغو وطنهم الثانى وأن ينتقلوا إليها تحت أمير وطنى بلجيكى .

قمنا عصر الجمعة إلى الجنوب ، وبعد ساعتين بدت على بعد إلى يميننا قرية سوفالا التاريخية القديمة التى كانت آخر محاط العرب قديماً ، ويزعم البعض أنها الفاصل بين الشرق والغرب ، إذ النفوذ الأوروبى سائد بعد ذلك إلى أقصى إفريقية جنوباً ، أما فى كل ما سبق من سواحل إفريقية فالأثر العربى لا يزال سائداً رغم خروج تلك البلاد من أيدى العرب ، وفى الصباح بدت :

لورنزومار كوز : فى خليج عظيم الامتداد يناهز طوله ٢٦ ميلا بين شواطئ رملية مشرفة لونها أحمر تكسو أغلبها الأعشاب ، وقد أسماه البرتغاليون خليج (دلاجوا) ومعناه من (جوا) لأنه اتخذ مرسى لسفنهم الوافدة من الهند صوب البرتغال ، أما السفن التى كانت تفد من البرتغال إلى جوا فكانت ترسو على خليج (الجوا) ، ومعناه (إلى جوا) وهو اليوم مكان ثغر بورت اليزبث فى الكاب .

نزلنا المدينة فهالنا ما رأيناه من مبالغة فى التنسيق والنظافة ، جميع الطرق رحبة تتوسطها الماشى ذات الأشجار وبجانبها أطاران عريضان ، أحدهما يرصف بالأسمنت ، وبين آونة وأخرى كنا نمر بمتنزه صغير أنيق تزينه الجواسق الخشبية سامقة السقوف ، وهذه يتخذها القوم مقاهى ومشارب للشاى تحوطها أرصفة من الودع الملون ، وجزء من المدينة مقام على منخفضات الشواطئ ، أما غالب الأحياء الممتازة فتبنى فوق الربى من خلفها ، وتمتد الشوارع بين هذا وذاك فتصعد بانحدار فاس ، وأنت تكشف من طرفها المرتفع المدينة كلها والخليج الرائع من دونك والبيوت كلها (فلات) من دور واحد هى آية فى النظافة والجمال ، ويتوسط المدينة سوقها فى بناء فخم يحوطه متنزه جميل تقوم على أركانه الأربعة الجواسق الأنيقة ، ولعل تلك الجواسق أظهر ما يميز المدينة ، دخلنا السوق فى باكورة الصباح فكان القوم من السود نساء ورجالا يفترشون سلعهم وبخاصة مواد الغذاء والفاكهة على مناضد من حجر ، وتسمع جلبتهم وهم يساومون الباعة وبخاصة النساء بصدورهن البارزة وأعجازهن المنتفخة وعلى ظهورهن يربطن أطفالهن وكأنهم صغار القردة ، وكانت تسترعى نظرى رءوسهم بشعرها الفلفلى وناصيتها المدببة وجبهتها المتطورة المتحدرة ، ومن أفخر مبانى المدينة محطة سكة الحديد التى تعد من أجمل محاط إفريقية ، كذلك حديقة النبات التى تغص بفصائل المناطق الحارة ، وهى تقوم على مدرجات بعضها فوق بعض ، وفى جانب صغير



(شكل ٢٣)
إلى جانب إحدى حسان موزمبيق وقد كست وجهها بالعجين تجملا

منها حديقة للحيوان ، وفى طرفها الآخر متحف جميل ، حوى مجموعة من الحيوان المحنط المحشو بكامل حجمه تحوطه نماذج من بيئته ، ويغلب أن ترى الحيوان ممسكا بفريسته .

ومن أعجب مارأيت أفعى تمسك بقرد صغير ، وأخرى تمسك بغزال التفت حول جسمه وهى تمتص الدم من رأسه إلى ذلك مجموعة من الأسماك المحنطة وبعض الحشرات ، ومن بينها ذبابة تسى تسى فى حجم يزيد قليلا على الذبابة العادية وأجنحتها مجزعة كأوراق الشجر ، وهى إذا لدغت إنساناً بدت عليه عوارض الجنون ثم يستلقى وبعد شهور قليلة يصبح جسمه عظاماً بالية وفى الطبقة العليا بعض المخلفات الحربيـة لهمج إفريقية يوم فتحها البرتغال ، والدخول للمتحف بغير أجر وهناك سجل دونا فيه أسماءنا .

وفى ناحية متطرفة من المدينـة نسق شاطىء البحر فى مدرجات وطرق ملتوية وجواسق وحمامات هى آية فى الإبداع ، وتسمى ناحية پولانا ، وكم يعجبك منظر الشاطىء الوطىء ومن خلفه تقوم شرفة عالية من الرمل الأحمر تتخلله منابت

العشب البرى ، وحقاً لقد أكبرت تلك المدينة فى نظرى من شأن جماعة البرتغال وأيدت حسن ذوقهم ، أما فى المساء فالمدينة مظلمة هادئة إلا فى مصابيح الكهرباء وأشارات المرور ، وهذه على أحدث نظم ، فالمصباح معلق وسط مفارق الطرق ويتعاقب اللون من الأحمر (لإيقاف المرور) إلى الأصفر (للاستعداد للسير) إلى الأخضر (لفتح الطرق) فى فترات منتظمة ، كل ذلك يتحرك بنفسه بدون جندى يباشره (أوتوماتيكى) .

وسكان المدينة ٣٧ ألفاً ربعهم من البيض ، والمسلمون هناك قليلون جداً وليس بالمدينة مساجد قط ، ويظهر أن جمعيات التبشير هناك ناشطة لأنى كنت أرى جماهير السود يمسكون بأناجيلهم تلف فى مناديل من حرير ، وهم يسيرون زرافات إلى الكنائس يوم الأحد ، والمدينة عاصمة شرق إفريقية البرتغالية ، أما بيرا فعاصمة أملاك الشركة التجارية البرتغالية ، وكل منهما له حكومته فهذه تديرها حكومة البرتغال رأساً ، أما منطقة بيرا فتديرها الشركة ، ولكل نقودها الورقية وطوابع للبريد تغاير ما للأخرى ، حتى أننى لم أجد هنا من يقبل نقود بيرا وكذلك لم أستطع وضع طوابع شريتها من بيرا على خطاباتى هنا ، وقيل إن الشركة ستسلم بلادها للحكومة بعد ست سنوات ، ولهجات السود متعددة فأهل بيرا لا يفهمون أهل لورنزومار كوز ، وإن كانت كلها من لهجات البانتو .

البانتو : هم جميع السود من جنوب خط الاستواء إلى حدود جنوب إفريقية ، لغاتهم وإن اختلفت لهجاتها ترجع إلى أصل مشترك ، والبانتو ليسوا سكان البلاد الأصليين بل زحفوا من الشمال وفريق من الشمال الشرقى وهم أخف سوادا ويسمون بالشعوب النيلية التى دخلها الدم الحامى ، ولما كان الدم الحامى هو الذى ميز هؤلاء البانتو عن السود وكان الحاميون شعبة من الشركس أقرباء الأوروبيين ، قال البعض بأن البانتو أقرب إلى الجنس الأبيض منهم إلى الأصفر أو الأسود أو الأحمر .



(شكل ٢٤) بئر في شرق إفريقية الاستوائية وبها مقبرة في غير نظام

وفريق أسود وفد من جانب الكنغو ، والفريقان تقدما من البحيرات جنوباً ، وبعضهم زحف ناحية كلاهاري ، والبعض إلى الجنوب الشرقي وكانوا أكثر غلبة وقوة فأسسوا امبراطورية مونوموتابا في القرن الخامس عشر ، وفي القرن السادس عشر غزاهم فريق آخر أشد شراسة وحل ناتال وتبع هؤلاء قبائل (باروتسي) ضخام الأجسام في لون أسود نحاسي وشعر جعد ولحى نادرة الشعر وأنوف فطساء ، وفي القرن الثامن عشر المافدا والباكوينا إلى الأورنج والدمارا إلى جنوب غرب إفريقية ، وكل قبيلة كانت تحمل اسم رئيسها مسبوقاً بكلمة آما Ama بمعنى الشعب أو الناس .

والبانتو عموما لهم نظام قبائلي تدعمه أسس دينية وكل قبيلة تقدس زعيمها وسلطته زمن الحرب مطلقة وزمن السلم تتوقف على قوة أخلاقه ومتانة عادات القبيلة وتقاليدها التي يفسرها للناس مستشاروه (Indunas) الذين يجب عليه أن يعمل بمعاونتهم ، ويلي هؤلاء مقاماً مجلس القبيلة وعائلتهم من أقرباء الزعيم لأنهم يقدسون البيت المالك وفروعه .

وأغنياء الزعماء يتزوجون أكثر من سيدة ، والزوجة الأولى تسمى زوجة اليد اليمنى والثانية زوجة اليد اليسرى ، وهناك الزوجة العظمى وابنها وارث الملك وهذه الزوجة تأتى متأخرة فى العادة ، ولذلك غلب أن يتولى الوارث الملك طفلا تحت وصاية عمه أو أحد أقربائه ، وقد كان هذا من أسباب كثرة المنازعات خصوصا عند ما يبلغ الصبي الرشد ويتسلم مهام الملك ، أما أولاد الزوجتين اليمنى واليسرى فيعطون رجالا وقطعانا ليؤلفوا عشائر جديدة تنضم للقبيلة ، ولذلك صعب على الأور بيين هناك أن يقفوا على مقر السلطة وصاحب النفوذ الحقيقى منهم ، فقد يعضون معاهدة مع رئيس ، ويظهر لهم أن الباقين ليسوا مرتبطين بها لا هم ولا ورثته بعد موته ، وكان يوقف استبداد الزعيم برعاياه سهولة نظام التبنى ، والتحول من عشيرة لأخرى فان استبد هجروه وانحازوا إلى رئيس غيره ، والرؤساء فى الغالب عادلون ، ولهم محاكم وقضاة ، ويسمحون للمتهم بالدفاع والاستئناف وكل عقوباتهم تنفذ (بالكى) بالحديد الذى يسخن لدرجة الاحمرار ، وعند بعضهم يحول على الطبيب الساحر ليشتم فيه رائحة الإجرام ويلصق به التهمة ، على أن أغلب العقوبات تنحصر فى شيئين : الإعدام أو الغرامة التى تدفع ماشية ، أما السجن فغير معروف بين قوم يقطنون بيوتاً واهنة .

وكان عقاب السحرة الموت واغتصاب أملاكهم لأنهم ارتكبوا جرماً سياسياً ودينياً ، ويعتقدون فى إله واحد يسمونه (امكولونكولو Umkulnkulo) هو الذى خلق الناس وكل شيء حى من الطين وسلخه من عود الغاب ، وكانوا يرون فى هذا الإله أبا أشبه بآدم عندنا منه بإله ، ويحوط كل هذا عالم للأرواح الطيب منها يجب أن نسعى لنتصل بها ، والخبيث يجب الابتعاد عنها ، وهؤلاء هم الذين يتصل السحرة بهم ليلحقوا بالإنسان ضرراً ، أو بالماشية والمحاصيل .

وكان من وظيفة طبيب السحر أن يشتم هؤلاء ، وأغلب الشبهات كانت تحوم حول المجرمين فى التحقيق . ومن القضاة كان يحفظ فى ذاكرة الساسة المحنكين ،



(شكل ٢٥) البانتو يأكلون « الملاما » من مدشوش الذرة ونيئ السمك

(أندونا) أما الكتابة فلم تكن فى لغتهم ، وكلما كان الرئيس لسناً فصيحاً قدره الجميع وحاولوا النقل عنه ، وتكثر بينهم المناظرات ، التى هى فى أوروبا أساس البرلمانات وللنساء هناك — عكس أوروبا — قدرة مدهشة على استماع تلك المناظرات ، ولذلك كان من نصيب المرأة عند البانتو أن تزيد فى ثروة اللغة من ناحية التعابير الموسيقية الجذابة . ولكى يجتنب النساء ذكر أسماء الذكور من أقرباء أزواجهن كان لزاماً عليهن أن يخترعن كلمات جديدة ، واليوم نرى بين نساء الزولو — أشد قبائل إفريقية رجعية — لغة خاصة بهن مجموع كلماتها نحو خمسة آلاف كلمة .

ولهجات البانتو ٢٧٤ تمتاز كلها بكثرة التعابير وبأن أواخر كلماتها متحركة فى الغالب وبأن أوائل الكلمات متحدة الحروف مما يجعلها كلها متشابهة متوافقة النغم على أن بعض لهجاتها لا تخلو من التهتهة وضروب اللكنة التى سرت اليهم من لغة الهوتنتوت .

والبانتو من الناحية الاقتصادية رعاة ماشية يمارسون الزراعة كعمل ثانوى

و إعداد الأطعمة والشراب المسكر وزرع الحبوب وفلاح الأرض وتعهد الحذائق من نصيب المرأة أما رعاية الماشية فعمل الرجال ، والماشية ذات القرون ثروة القبيلة ومفخرتها ، ولذلك قدسوا الماشية وأقاموا بيت الماشية فى الوسط ومن حولها بيوتهم و إذا أرادوا الاتصال بالموتى سلخوا ثوراً حياً وسط بيت الماشية يمثل القبيلة ، وآخر يمثل العدو والذى يظل حياً مدة أطول يدلهم على مبلغ نجاحهم أو فشلهم فى الحرب المقبلة كذلك كانت تدفع الغرامات والتعويضات ماشيــة ، وشعر ذنب نوع من الماشية خير علاج للامراض لديهم .

والماشية هى خير غنم فى الحروب و بهـا يدفع المهر (Lobala) الذى تفاخر الزوجة به والذى يعدونه سر انتاج الذرية ، إذ لولا الماشية لأصبح الأولاد غير شرعيين ! وحيازة الأراضى أساسية لديهم فالأرض والرجال دعامة القبيلة ، والبيت الأعظم (كرال Kraal) للزعيم فى الوسط وحوله تقوم البيوت الأخرى وحول هذه جميعاً مساحات الأرض المملوكة لهم ، وقد تتداخل فى أملاك القبائل الأخرى فإن تنازعوا على أرض كان السيف هو الحكم فمن هزم خسر أرضه وقد تستأصل القبيلة كلها وتضيع والأرض ملك القبيلة كلها ، وليس من حق الزعيم أن يبيعها أو يهبها ، وهنا موضع خلاف شديد بينهم و بين نزلاء الأوروبيين ، الذين يتقيدون بالعقود المكتوبة ، أما البانتو فلا يعرفون للعقود قيمة فليست الأرض لديهم هى الهامة بل الناس الذين فوقها ، وكل فرد من القبيلة بحكم نشأته فوق الأرض له الحق فى هوائها ومائها وعشبها وحطبها وحيوانها ولذلك فإن هؤلاء إذا باعوا الأرض للنزلاء كان معنى البيع لديهم أنهم يمنحون بعض الامتيازات التى لأبنائهم على تلك الأرض مقابل ثمن من الماشية أو الضأن أو الأسلحة وكان معنى ذلك فى نظر الزعيم أن النزلاء أصبحوا أتباعه ! ومثل تلك النزعات والأفكار المتناقضة أدت إلى كثير من الارتباك بين الفريقين وجرت إلى الحروب التى طالما خاضها البيض مع الكفرة فى جنوب إفريقية ، والبانتو عامل من العمال الذين



(شكل ٢٦) أحد أبراج زمبابوى معر كنوز سليمان الحكيم

تعوزهم المهارة والصبر التى اشتهر بها أهل الشرق ، وهو خامل بفطرته لأن حاجياته قليلة ويمكن الحصول عليها بسهولة من الغابات وقنص الحيوان لذلك فهو يميل إلى الرعاية أكثر من الزراعة التى يقع عبؤها على المرأة ، ورغم احتكاكهم بالجنس الأبيض فإنك إذا زرت مساكنهم (تسمى كرال) بدت لك فطرتهم فهم لايعبأون بالكماليات والمسرات ، وهم قادرون على سد حاجتهم القليلة وعدم الاهتمام بالراحة التى نهتم لها نحن كثيراً ويدهشك عدم شعورهم بالمسئولية العائلية تلك التى تقلق بالنا نحن كثيراً ، وهم يملكون الأرض على طريقة المشاع ، ومع أنهم ليس فى مقدورهم انماء الثروة لا يسعون إلى ذلك قط إلا أن الفقر ليس معروفاً لديهم . فكل أفراد القبيلة متساوون لا يتصدق أحدهم على غيره لأن المال حق للجميع إلى ذلك مورد الأب من مهور بناته ، كل ذلك يشجع البانتو أن يعيشوا على فطرتهم ، وأن ينصرفوا عن العمل .

ميناء لورنزومار كوز : والميناء مزودة بأحدث الوسائل وأوفاها من أرصفة وروافع وسكك حديدية ، وهنـاك رافعة للفحم تستطيع تفريغ ٨٠٠ طن فى الساعة يندر وجود أمثالها وهى تجلب الفحم من الترنسفال إذ تتصل بها بخط حديدى فهى أقرب المنافذ لمعادن الترنسفال وذهب الراند أغنى مناجم الأرض جميعاً إلى ذلك فهى تصدر فاكهة جنوب إفريقية ، وقد لبثت باخرتنا توسق من أقفاص التفاح والبرتقال ، وقد أعدت لها مخازن ذات مثالج على الميناء ، وتقارب متاجر الثغر مليون طن فى العام غالبها من الترنسفال .

أرض الذهب : حق للعالم أن يسمى بلاد الترنسفال بأرض الذهب ، فقد زاد مجموع الذهب الذى استخرج منها رغم صغر مساحتها على ألف مليون جنيه فى نحو أربعين عاماً وأغنى بقاعها الراند الذى يغل من الذهب أربعين مليون جنيه فى العام مع أن إنتاج الذهب فى العالم كله ٨٥½ مليون جنيه سنوياً فالترنسفال وحدها تنتج ٥٢½ ٪ من ذهب العالم (أما الولايات المتحدة فتنتج ١٢ ٪ فقط)

وأول من كشف الذهب هناك رجل إفريقى اسمه (ووكر) وهو يحفر ليقيم منزلا سنة ١٨٨٦ فاعترضته صخور من المجمعـات (كنجلمرات) وبعض الرمل الفضى بدا تحتها الذهب فى عرق يتلوى فى امتداد أفقى لمسافة لاتقل عن ٨٠ ميلا وفى سمك قد يبلغ أحياناً خمسين ميلا وامتداده من الغرب إلى الشرق ، وقد بدأ الرجل يعمل فى استخراج الذهب لـكنه قبل أن يأتى شيئاً يذكر مات صاحبه فقيراً ، ولقد أطلق الناس على هذا العرق اسم (عرق سبأ) إشارة إلى عرب سبأ وقوم سليمان الحـكيم وما حازوا من ثروة من ذهب تلك الناحية قديماً ، وقد أثبتت الآثار أنهم استغلوا الذهب فى مناجم تمتـد من زمبابوى إلى الراند ، ويعتقد الجيولوجيون بأن العرق نهر قديم كان يجرى فوق صخور الجرانيت وكان النهر يحمل تبر الذهب فى رواسب وكانت له دلتا وهى التى يمثلها إقليم الراند أغنى البقاع



بالذهب اليوم ثم ما لبث أن طمر المجرى ورفعتـه القوة الباطنة ولقد تكهن العلمـاء عن مستقبل الراند فقدروا أن الخام الذى به لا يقل عن ٥٥٠ مليون طن وبعضهم قال بأنه ١١٦٠ مليوناً مع العـلم بأن كل ما استخرج من الخام إلى اليوم لم يصل ٣٠٠ مليوناً وقال الدكتور (ڤاجنار) إن بالراند الآن ما لا يقل عن ١٢٠٠ مليون جنيـه من الذهب ، وتقوم المناجم على النجاد تتخللها نواتئ الجرانيت

(شكل ٢٧) أمام محطة لورنزو ماركوز البرتغالية

وقد حفرت فتحاتها وتعمقت إلى ٧٠٠٠ قدم حتى قيل إنها أعمق مناجم الدنيا وفى بعضها يشتغل العمال على عمق ٧٦٤٠ قدماً وهذا تصحبه زيادة فى الحرارة وزيادة فى الأجور والنفقات وهذا ما يهدد التعدين هناك وينقص من قيمته عن ذى قبل ، على أن تحسين وسائل الإنتاج لا تزال تعوض على المعدنين خسائرهم .

ولقد درت تلك المناجم على العمال خيراً كثيراً ، فقد دفعت المناجم للبيض من العمال فى العشرين سنة الأخيرة ١٦٣ مليون جنيه وللسود ١٢٠ مليوناً ، ولا يقل عدد البيض عن عشرين ألفاً والسود مائتا ألف . ورأس المـال الموظف فى الراند ٦٣ مليون جنيه وتعد المناجم أبدع مناجم الدنيا وأتقنها نظاماً تحتكرها ٤٧ شركة يمثلها أعضاء فى غرفة تعدين الترنسفال ، ويقولون إن نحو ٨٥ ٪ من

سبائك الذهب التى أصدرت من الترنسفال عادت إلى البلاد نقوداً ، وتلك الثروة الخيالية هى التى قامت من أجلها مدينـة جوهانسبرج فى الراند . وقد بلغ أهلوها فى أمد وجـيز نصف المليون نصفهم من السود والنصف من البيض ، ولا تزال تتضخم بسكانها ، وقد أقيمت على نتوء جنوب نهر ڤال (ومنه أخذ اسم ترنسڤال أى عـبر نهر ڤال) ، وقد بدأ عدد العمال من الســود قليلا فاضطروا إلى جلب الصينيين الذين هددت كثرتهم البلاد فرُحّلوا ثانية بعد أن أحرقوا جثث موتاهم وأخذوا رمادها ليدفن فى بلادهم ، أما اليوم فإن العمال السود كثيرون جـداً وقد أحبوا العمل فى المناجم حتى أن أبناءهم لا يعدون رجالا إلا بعد أن يبدأوا التوظف فى المناجم ، وتراهم يقيمون حفلاتهم يرقصون على أنغام طبولهم وموسيقاهم الخشبية (شرائح خشبية كالبيان تضرب وتعطى أنغاماً مختلفة) كلما حل موعد تسلمهم لمرتباتهم ، وكانوا يتبارون فى ذلك لدرجة كانت تخرج بهم إلى النزاع والحرب أحياناً خصوصاً إذا ما لعبت الخمر بألبابهم .

ومن معادن الترنسفال الهـامة : البلاتين والماس ، فالبلاتين ينتظر أن يزاحم أكبر البلاد انتاجاً له ، وهى روسيا فى اقليم أرال ، ومحصولها السنوى ربع مليون أوقية ، ثم كولومبيا فى أمريكا الجنوبية ، وتنتج ٥٥ ألفاً وثمن الأوقية منـه ١٥ جنيهاً ، والعالم يستهلك فى السنة ٢٠٠ ألف أوقية من المعدن الجديد و ٩٠ ألفاً من القديم المعاد صهره .

أما الماس ففى منجم (برمير Premier) حيث أقيمت مدينـة بريتوريا من أجله ، وجدت أول ماسة هناك زنتها ٣٠٢٣ قيراطا وحجمها (٤½ × ٢½ × ٢ بوصة) والمنجم كأس بركانية يكسر صخرها بالديناميت ثم يحمل الهيشم ويركز كل ١٢٠٠٠ طن منه إلى قدم مكعبة . وهذه تفحص باليد ، وقد استخرج من هذا المنجم ٦½ طن من الماس قيمتها ٢٨½ مليون جنيه مع أن ثمن الأرض كلها لم يبلغ ٥٢ ألف جنيه ، على أن مصادر المـاس الهامة فى جنوب إفريقية حول نهر



(شكل ٢٨) فى الراند أغنى مناجم الذهب فى العالم تستخدم أحدث الآلات فى الحفر

أورانج ، وأقدم ماسة وجدت فى جنوب إفريقية عثر عليها صبى اسمه يعقوب سنة ١٨٦٦ فى قرية (هوبول) على الأرنج ، وكان يلعب بها وزنتها ٢١½ قيراطاً وثمنها خمسمائة جنيه ، وهـذا الصبى هو الذى نبه الناس إلى وجود الماس كما فعل ووكر الذى عثر على عرق الذهب فى الترنسفال ، وبعد سنين عثر آخر من الهوتنتوت على قطعة زنتها ٨٣½ قيراطاً بيعت بمبلغ ١١٢٠٠ جنيهاً ، وهى التى يطلق عليهـا اليوم (نجم جنوب إفريقية) وثمنها اليوم ٢٥ ألف جنيه وسرعان ما ذاعت الإشاعات المبنية على الوهم والمبالغة فى أوروبا عن الوديان التى تنتثر بقطع الماس وعن أكواخ الزنوج من الطين ترصعها قطع الماس الثمينة فدفع هذا بالكثير إلى المهاجرة إلى (وادى المـاس) وفى سنة ١٩١٣ عثروا على قطعة ثمنها ثلاثون الف جنيه وفى ١٩٢٤ وجد طفل قطعة زنتها ٤١٦ قيراطاً ولقد ازدحم المهاجرون حول كمبرلى التى تحفها المناجم فيما لا يزيد على ميل ، وقد أنتجت تلك المنطقة وحدها بنحو ٢٥٥ مليون جنيه من المـاس فى أقل من نصف قرن وقد كان الممولون يشترون المزارع الصغيرة بآلاف الجنيهات ثم يبحثون عن المـاس وكان بعض تلك المزارع يغل

ملايين منه ، ويكثر الماس فى تربة من الطفل الأزرق ، والعادة أن العمال يملأون عربات صغيرة من ذلك الطفل ثم ينشرونه شهوراً فى العراء والشمس حتى يقل تماسكه ويمكن تكسيره بسهولة وتسمى تلك المساطح (floors) يحرسها رجال مسلحون وتحوطها أسلاك شائكة وإذا ما صلحت للعمل حملت ثانية فى عربات وحلت بالماء وبآلات ذوات أسنان حادة ، ومن كل مائة عربة تستخلص واحدة تحوى الماس ، وهذه تدخل آلة تفصل الماس إلى ست درجات حسب الحجم والوزن ومن كل سبعين ألف طن من الطفل الأزرق يستخرج عشرة أرطال من الماس ، وعادة القوم عند البحث عن الماس أن يجتمع الحفارون تحت قيادة رئيس ثم يقفون فى صف ويصدر الرئيس الأمر بالجرى فيهجمون سراعاً ويختار كل مكاناً يدق فيه وتداً ثم يحفر حوله ، وفى سنة ١٩٢٧ كان أكبر سباق من نوعه هناك حين بلغ عدد أفراده عشرين ألفاً حروا كلهم فى وقت واحد .

والحكومة هناك تشاطر فى نحو ٦٠ ٪ من الأرباح هذا خلافا لما تتقاضاه من ضرائب الصادر وضرائب من أصحاب المناجم ، وقد سنت الحكومة قانوناً بالاتفاق مع اتحاد المعدنين تحدد به مقدار المعروض من الماس كل عام حتى لا يهبط ثمنه هبوطا فاحشاً يصحبه إيقاف العمل وطرد آلاف العمال من المناجم .

ويظهر أن الماس يعم الأراضى التى يجرى فيها نهر أورانج كلها لأنهم يعثرون عليها فى كل أرجائه إلى مصبه حيث ينتثر الشاطىء بالماس إلى شمال مصب الأورنج بنحو ٣٠٠ ميل ، وقيل ٦٠٠ ولذلك أطلق على هذا الجزء اسم (شاطىء الماس) ويرجح العلامة الدكتور فاجنار أنها حملت مع رواسب النهر ودفعها تيار بنجويلا الذى يسير إزاء الشاطىء شمالا بدليل صغر بلوراته كلما سرنا شمالا مما يؤيد أن فى الارانج بطوناً للماس لم تستكشف بعد ، على أن الماس هنا يعيبه صغر حجمه رغم جودة نوعه .



(شكل ٢٩) فى مناجم الراند وترى ٣١ سبيكة من دهب ثمن الواحدة ٥٠٠ جنيه

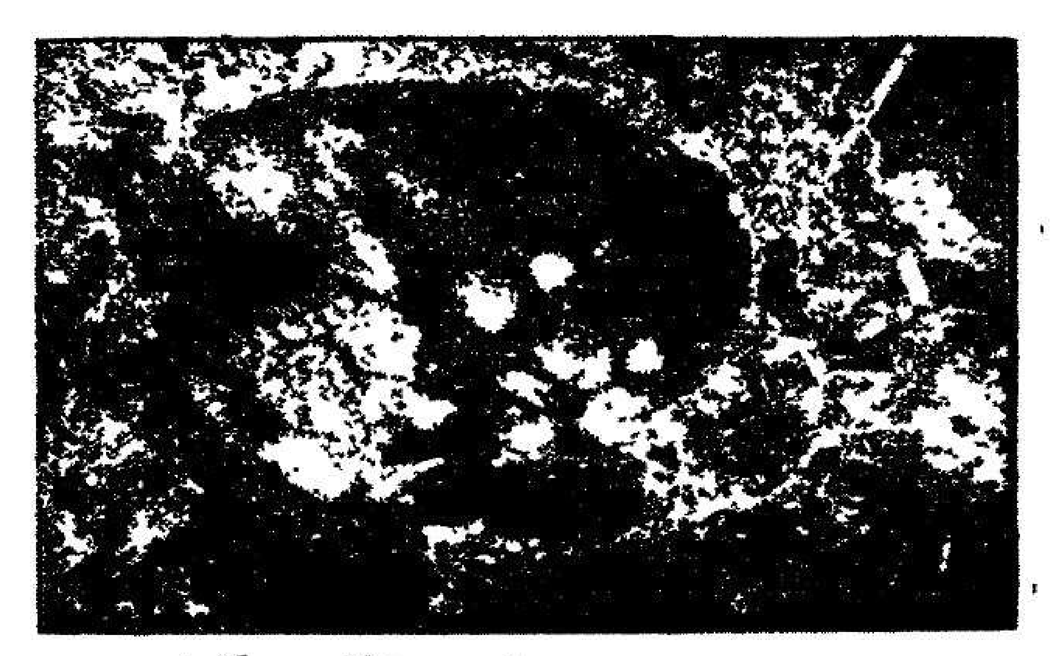
الى الناتال : أقلعت الباخرة فى باكورة الصباح (الإثنين ٢٥ يوليه) والبحر هادىء والجو مشمس بارد كأنه شتاء مصر إذ كنا نقارب بلاد جنوب إفريقية فى شتائها الذى يحكى جو يناير عندنا وفى صباح اليوم التالى دخلنا خليج دربان أكبر بلاد الناتال ، وهو فى دائرة تحوطها الربى من جميع نواحيها تكسوها الأعشاب النضرة والأشجار الوفيرة .

وأرصفة الميناء ومعداتها هائلة صاخبة ، وظلت باخرتنا تحمل وسقها من غرائر السكر الناعم الذى تستخرجه الناتال من القصب المنزرع فى مساحات شاسعة ، وقد علمنا أن الفدان هناك ينتج بين ٣٠ و ١٠٠ طن من القصب حسب جودة الأرض ، ومن السكر بين ١½ و ٤¾ طن ، ويظهر أن دراية الزولو سكان البلاد من السود بزراعة القصب كبيرة لأن الفدان فى جاوه مثلا ينتج ٤٠ طناً من القصب فقط ، وفى كوبا ٢٠ طناً ، وفى هواى ٤٩ طناً وهى من أحسن البلاد انتاجاً ، على أن هبوط ثمنه هذا العام إلى أربعة ملليات للرطل عاكس انتاجه بعض الشىء ، ويعزى هذا الهبوط إلى كثرة انتاج العالم من السكر الذى بلغ ٣٠ مليون طن مقابل

١٨½ سنة ١٩١٤ من القصب والبنجر معاً ، ولقد أنتجت الناتال ٧٨٨ مليون رطل صدرت نصفها بنحو ١½ مليون جنيه سنة ١٩٣٠ .

واقد أخـذ يحل القصب الأراضى التى تزرع هناك شايا ذلك لأن الشاى يتطلب خبرة الاسيويين ، وهؤلاء قد منعت القوانين الجائرة هجرتهم إلى جنوب إفريقية ، على أنى كنت أرى كثيراً من النجاد يكسوها الشاى ، وعلمت أن المساحة المزروعة ثلاثة آلاف فدان ، ولا تسد سوى ربع حاجة جنوب إفريقية من الشاى وشجرته هناك تنضج بعد سبع سنين لكنها تعطى محصولا يسد نفقاتها فى الرابعة ، ولذلك وجب على زراعه أن يبدأوا برأس مال كبير ينفقون منه حتى ينتج و يربى ، و إذا عنى بالأرض ونظافتها يؤتى الشاى ثمرة لمدة خمسين عاماً بدون حاجـة إلى تجديد زرعه ، ومتوسط محصول الفدان فى الناتال ٣٥٠ رطلا جافا — كل أربعة أرطال من الورق الرطب نصبح رطلا جافا — وهذا دون المحصول الذى شاهدته عامى الفائت فى جزيرة سيلان الهند ، ولعل لخبرة الهنود وتوافر عددهم دخلا فى ذلك فإن أجرة العامل فى الناتال تزيد على أجرته فى الهند ثلاثة أضعاف ونصف .

وقد رست باخرتنا إلى جوار رصيف الحيتان وهو المكان الخاص بأعداد ما يصيده القوم من الحيتان الكبيرة ، والناتال من البلاد الشهيرة بصيدها ، وقد ألقى أمامنا منها ما لا يقل عن خمسة فى جثث هائلة ، وقيل لنا إن ما يصاد منها فى جنوب إفريقيـة لا يقل عن ثلاثة آلاف حوت فى السنة ثمنها نحو نصف مليون جنيه ، وقد صدرت البلاد خمسة ملايين جالون من الزيت ثلث مليون جنيه ، ومن الحوت يأخذون الزيت وثمن الطن منـه ٢٥ جنيها ثم اللحم وهو غنى جداً بمادته الغذائية ثم السماد ثم العظام وهى ثلث وزن الحيوان وبها ٢١ ٪ من فسفات الجير ، ٨½ ٪ من النشادر ، ويمكن تحويل الجثة كلها إلى سماد غنى ، ولقد أسرف الإنسان فى صـيد الحوت حتى هدد بالانقراض إذ بلغ ما صيد من نصف الكرة الجنوبى ١٧٫٥٠٠ حوتا وفى العالم كله ٤٥ ألفاً فى السنة ، ولسوء الحظ أن حمايته



(شكل ٣٠) إحدى حفائر الماس الكبرى فى كمرلى

متعذرة لأنه خارج عن حدود كل دولة فلا يحميه إلا القانون الدولى .

ولعل أول ما استرعى أنظارنا تعدد السحن واختلاف الأجناس البشرية ، إذ كنا نرى الهنود والملايو بجسومهم الناحلة والسود بقاماتهم الطويلة وعضلاتهم المفتولة خصوصاً المتابيل والزولو أشد سكان الأرض فراسة وقسوة فهم أخطر من الهنود الحمر فى أمريكا وزنوج أستراليا وما أورى زيلانده وأظهر ما كنا نراهم وهم يسوقرن الركشا يلبسون فى رءوسهم القرون الكبيرة علامة على القوة وحولها الريش علامة على السرعة وخفة الحركة إلى هؤلاء المولدون الأفريقيون بسحنهم الأوروبية فى لون أسمر ثم الهولنديون والأنجليز ، فالناس هناك خليط لا أول له ولا آخر .

ولعل أعجب الشعوب جميعاً الهوتنتوت والبشمن :

البشمن : (شعوب واق الواق) أقدم سكان إفريقية فهم هناك منذ العصر الحجرى حين كانوا ينتقلون فى كل أرجاء القارة ، على أنه يشك فى أنهم سكان إفريقية الأوائل (ذلك لأنا عثرنا على أقزام فى وسط القارة يخالفونهم)

ولم يكونوا يعرفون النار ، ولقد استحضر منهم فرعون عدداً كان يرقص أمامه ويسليه ، وقال المسعودى بأن أهل السواحل عرفوا سكان (واق والواق) وكأنهم القردة أولئك الذين عاشوا مع سائر الحيوان قبل أن يخلق الله الإنسان من الطين ، ولهؤلاء الحق إن اعتقداو بأنهم غير آدميين فهم أبعد الناس عن الآدميين لقصرهم (فهم دون خمس أقدام) ولشعرهم المنفوش ولآذانهم التى لا شحمة لها ولوجوههم المثلثة عديمة اللحى وكأنها وجوه الثعالب ، وكانت عيونهم غائرة تحت حواجب مشرفة بارزة ، وكانت سوقهم الدقيقة ، وأقدامهم الصغيرة تبدو وكأنها لا تكاد تحمل بطون الرجال المتنفخة ، ولا الثدى الهادل والعجز الضخم للنساء ، وكانوا رعاة يتنقلون فى عشائر عدد الواحدة ٣٠٠ على الأكثر يقودهم زعيم كأنه القائد الحربى ، والروابط العائلية كانت واهنة بينهم يتزوجون أكثر من واحدة ، وشبانهم يقتتلون من أجل الحصول على الزوجات ، ونساؤهم وقورات ، وروابط الزوجية واهنة أيضاً فلا يكاد الطفل يستقيم على سوقه حتى يهيم على هواه ، والمسنون والمرضى يهجرهم ذووهم لأنهم عبء لا يستطيع الانتقال ، وعبادتهم الجن والتمسك ببعض التقاليد الخرافية ، وبعضهم كان يقدس (كاآنج aang) رئيس السماوات والبعض عبدوا النجوم والقمر ، ولغتهم فقيرة اللفظ لا تعدو كلماتها ٦٣ وهى عاصة بأصوات التهتهة واللكنة ومخارج الأنف ، فدراستها توضح لغة الإنسان الأول وكيف تطورت ، ومنها فهم البعض أسرار أصوات بعض الطيور والحيوان وكيف تطورت إلى الكلام وأنت تسمع أصواتهم فى مخارج منقطعة ، وكأنها عواء القردة .

ويختلف المعنى بحسب طريقة التعبير والتهتهة ، واللغة خالية من صيغ الجمع ، ومعرفتهم بالحساب لم تتعد الثلاثة ، لكنهم عوضوا بعض هذا النقص فى اللغة والحساب بالحفر والرسم ، وفى هذين فاقوا إنسان العصور القديمة ، ومن مواهبهم غرامهم بالأقاصيص وحركات الوجه والرقص الذى يمتاز به كل سكان إفريقية وفيها



(شكل ٣١) كيف تفرز قطع الماس بحسب الحجم والجودة

عدا ذلك فليس لهم من متاع الدنيا شيء قط ، حصلوا على النار من أثر الاحتكاك وسكنوا العشش ، ورداؤهم عباءة من جلد خفيف يتخذونها غطاء لهم فى الليل وتزينوا بالودع و بيض النعام يحملون فيه الماء ودخنوا نباتاً كالطباق اسمه (dagga) وثملوا بخمر أعدوه من العسل البرى و بعض الجذور النباتية ولم يستأنسوا من الحيوان سوى الكلب ولم يعرفوا المعادن ولا الزراعة ولا النسيج ؛ وكان عمادهم فى الغذاء على الجذور والنمل وأصداف البحر وما يصيده الرجال من الحيوان بسهامهم المسمومة يتخذون السم القوى من حشرة هى أصغر من البعوضة حجماً وهم فى القتال بواسل ولهم قدرة مدهشة على الحصول على الماء من النبات فهم يتصونه حتى من الغاب الأجوف ومن جذوع الشجر ومن بعض فصائل القرع التى تنمو فى الصحراء. ولقد كانوا يقاومون حياة الرعاية التى عاشها الهوتنتوت و يرمونها بأنها حياة خمول ، كذلك لم يتفقوا مع النزلاء أبداً ولذلك فنى منهم فى القتال كثير إلا أقلية تقطن الصحارى فيا جاور كالاهارى ، ولا يزال العالم حائراً مدهوشاً لما خلفه أولئك المنحطون من الفن الجميل فى الحفر والتصوير على الصخور فى كل أرجاء جنوب

إفريقية ، وقد أرجعها بعض العلماء إلى ما وراء ٨٠٠٠ سنة ق . م .

الهو تنتوت : وهم أحدث عهداً من البشمن ، ويخال البعض أنهم قبل مجيء الهولنديين بألف عام ، كانوا يقطنون حول البحيرات ثم زحفوا جنوباً ، ويرى البعض أنهم انحدروا إلى الساحل الغربي ولازموه إلى الكاب ثم شرقا إلى الناتال ، وآخرون يرون أنهم ساروا إزاء الساحل الشرقي ، وكان زحفهم لاجتناب الاحتكاك بالبانتو من جهة ، وللتخلص من ذباب تسي تسي حول الزمبيزى من جهة أخرى ، وأجسادهم أكبر من أجساد البشمن وقاماتهم أطول ، وكانوا يسمون أنفسهم (خويْ خويْ Khoi Khoi) أي رجال من رجال ، وكان لهم لحى وجسومهم أنحف من الأوربيين وظهورهم مجوفة وأقدامهم صغيرة وعيونهم متباعدة وخدودهم غائرة وأذقانهم مدببة ولونهم زيتوني مصفر ، ورغم شعرهم الجعد الصوفي وشفاههم الغليظة وأنوفهم الفطساء فان لونهم يقرب من ألوان الأوربيين ، وهم يزينون شعرهم بالودع والنحاس ، وكلا الجنسين يلبس جلود الأغنام يلامس صوفها الجلد شتاء ويكون من الخارج صيفاً ، بيوتهم نصف دائرية ، ومن الحصر والعصى وهم وسط بين العصرين النحاسي والحديدي وعلى ذلك فهم يتقدمون البشمن بمراحل ، استخدموا النحاس بكثرة والحديد على قلة ، وهم رعاة قبل كل شيء ، ويقع عمل الرعاية على الرجال وإعداد اللبن والغذاء على النساء وليس هناك من رابطة بين القبائل يسيطر على كل قبيلة رئيس وراثي ، على أن الثروة لديهم أهم من الزعامة ، وأغنياؤهم يتزوجون بأكثر من واحدة ولا يعنون بالمسنين والمرضى ، ولغتهم أغنى قليلا من لغة البشمن وقد ورثوا عنهم كثيرا من التهتهة ، وقد امتزجت بها اللغات الحامية ، وهم يحبون القصص والرقص كالبشمن . لكنهم أقل منهم شجاعة وفناً إذ لايعرفون الحفر ولا التصوير ، أسلحتهم الحراب والسهام ذات الأطراف المعدنية والدروع والتروس من الجلد ، وبعضهم يمرن الثيران تتقدمهم في القتال ليحتموا خلفها وبعضهم يعبد الجن ، والبعض ارتقى واعتقد في إله الخير ومحله السماء الحمراء



(شكل ٣٢) صيد الحيتان مهنة هامة فى دربان

و إله الشر ومقره السماء المظلمة السوداء ، ولا يكاد يوجد الجنس صافياً اليوم رغم أنهم كانوا كثيرين يوم دخل الهولنديون البلاد ، وقد وصفهم ڤان ريبيك بأنهم مرحون قذرون كرام لحد التبذير ، كسالى نهمون فى الطعام يتناولونه أنى وجدوه شديدو الصبر إبان المحل ، يحبون التطيب بالأعطار ، وهم مخلصون صادقون شكورون .

ومشكلة السكان فى جنوب إفريقية من أعقد مشاكل الدنيا فالبيض منقسمون على أنفسهم لا بحسب الجنسية فحسب بل وأيضاً بسبب ما شجر بينهم من النزاع فى الماضى ، كذلك أهل البلاد متعددو الأجناس والقبائل مختلفو النزعات و إلى هؤلاء عدد متزايد من الهنود وهم مبغوضون من الفريقين السابقين ، فكيف يمكن لكل أولئك أن يمتزجوا ليكونوا جنسية لها قومية واحدة ! تلك مشكلة معقدة ، فالبيض هناك هم القادة والسادة ، والسود الخدم والأتباع رغم كثرتهم الهائلة — فعددهم ½٥ مليوناً والبيض مليون ونصف — وزاد الأمر تعقيداً أن السود مختلفون فى مقدار الذكاء فالبانتو ومنهم الزولو أذكى من الهوتنتوت



(شكل ٣٣) الهوتنتوت

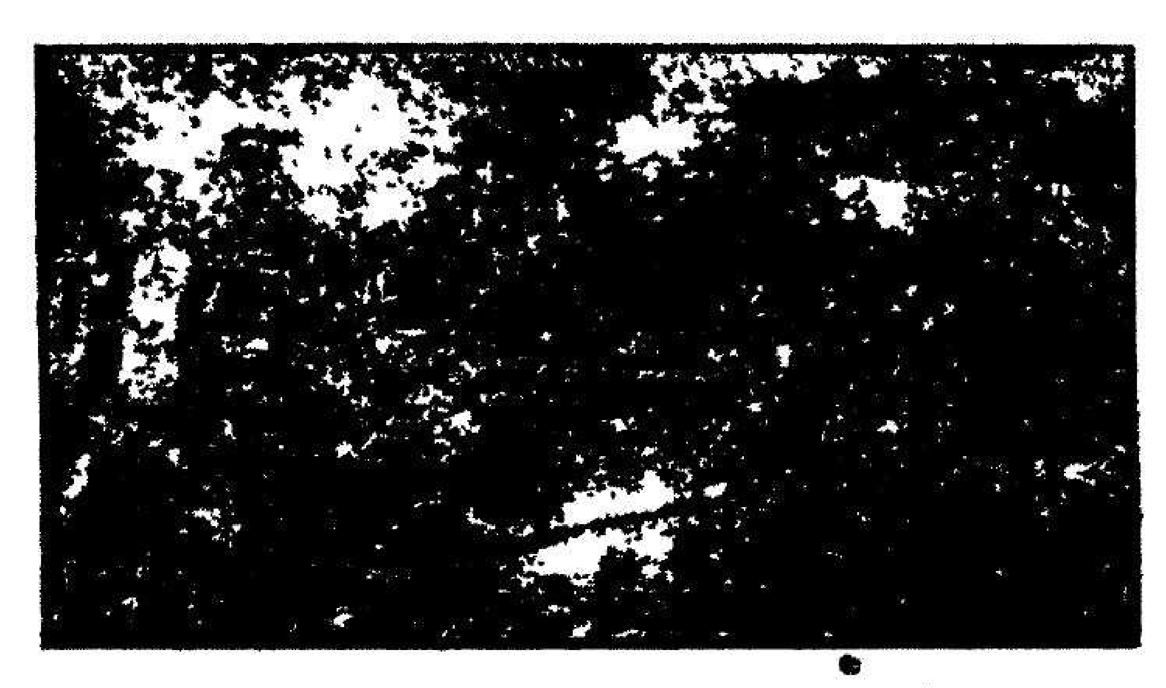


(شكل ٣٤) البشمن

وهؤلاء أذكى من البشمن ، إلى ذلك كثير من المولدين الذين يحاولون أن يلحقوا أنفسهم بالبيض ويرفعوا مستواهم إليهم .

وأكثر ما يرى الهنود فى الناتال حيث جلبوا من بلادهم للقيام بشئون الزراعة التى تنحى عنها فى البدء أهل البلاد — وهم اليوم نادمون على ذلك — أما فى الكاب فالهنود أتى بهم الهولنديون من الملايو وجزائر الهند يوم أن كان جنوب إفريقية تحت حكمهم ، وكثير من الباعة هناك من الملايو ولهم أحياء خاصة وكثير من النساء محجبات يلبسن القناع وكثيراً ما تسمع المؤذن يدعوهم إلى الصلاة لأن سوادهم مسلمون .

والهولندى والانجليزى القح آخذ كلاهما فى الزوال والانقراض ، والذى يحل محلهما اليوم الأفريقى (Afrikander) الذى يظهر فيه الأثر الهولندى أكثر من الأثر الانجليزى ، يؤيد ذلك إحصاء الجنس الأبيض هناك الذى دل على أن ٧٠٪ من البيض فى الكاب هولنديون و ٨٥٪ فى الأورنج و ٦٠٪ فى الترنسفال ، ولا يسود الدم الانجليزى إلا فى الناتال حيث تبلغ نسبة الهولندى ٢٥٪ فقط ، ويرى البعض فى سكان جنوب إفريقية الذين



(شكل ٣٥) بقايا نقوش البشمن على الصخور فى ناتال

اندمج خليطهم اندماجاً تاماً هكذا سيادة المرأة الهولندية وحماسة شبان فرنسا ، وحنكة السن الألمانى ، ولكثرة توغلهم فى البرارى الداخلية أضحوا نصف متوحشين ، وأهملوا نظافة البيوت الهولندية وافتقروا إلى النظام الاجتماعى وعاشوا عيشة شبيهة بعيشة الرعاة المملة ، إلى ذلك فان اشتغالهم بالصيد ودوام أكل اللحوم وتعدد الحروب مع الكفرة والبشمن جعلهم أكثر جفاء من الأوروبيين ، على أن نظام المعيشة العام يبدو انجليزيا ، ولغة القوم السائدة مزدوجة انجليزية وتالية (Taal) وهى لهجة هولندية يحرفها ذووها بين بلد وآخر لكن اللغة الكتابية أقرب إلى الهولندية ، أما العامية فقد بسطت كثيراً ودخلها كثير من الكلمات الغريبة ، وكثيراً ما يسمع المرء ثلاث لهجات هولندية مختلفة : الهولندية التى يتكلمها أهل هولندا ولهجة محلية تستخدم فى التعليم والتالية ، ولقد كان لهذا الخلاف فضل فى ظهور اللغة الانجليزية إلى جانب الهولندية ، وأغنياء الهولنديين هناك يعيشون عيشة انجليزية ، ويوفدون أبناءهم ليتموا تعليمهم فى جامعات انجلترا ، وكان يطلق على أولئك الهولنديين شعوب البوير : والكلمة

معناها المزارعون لأنهم كانوا يزرعون الأرض لاطعام ماشيتهم وقد كانوا يحتقرون الأهلين ، لذلك تجدهم مبغضين من السود وهذا مما ساعد على تقدم الانجليز إلى جانبهم فى جنوب إفريقية ، والبويرى حريص فى المال شحيح فى معاملاته ميال للمرح والنكات عنيد إلى الحد الأقصى ، ويحاول البوير منذ قامت حكومة الاتحاد أن يسلبوا غالب الأعمال من أيدى منافسيهم الانجليز لأنهم يشعرون بأنهم الأغلبية التى يجب أن تمسك سلطة البلاد بيدها وتتصرف فى أموالها ، ولقد كنت ألمس ذلك فى عين السخط التى كان ينظر بها هؤلاء إلى الانجليز جميعاً وهم دائبون على مضايقة الانجليز فى أعمالهم ووظائفهم لدرجة أن كثيراً منهم أخذ يترك تلك البلاد إلى غيرها ، وكان معى فى سفينة العودة نحو ثمانية من الانجليز الذين فصلهم رؤساؤهم من البوير وكانوا يقصدون شرق إفريقية بحثاً عن عمل جديد ، وأظهر ما يكون ذلك الشعور فى الترنسفال والأورانج أولا ثم فى الكاب والناتال هذا إلى انصراف البلاد تدريجاً عن الاتجار مع الانجليز وتذودها عن انجلترا فى الاحتفاظ بالنقد الذهبى رغم خروج انجلترا عن معيار الذهب مع أن ذلك قد أحدث أثراً سيئاً

(شكل ٣٦)
سائقو الركشا من الزولو والقرون شعار البسالة والريش شعار خفة الحركة



(شكل ٣٧)
كيف يجدل جيلات الزولو شعورهن

فى صادرات جنوب إفريقية .
ولغة البلاد الرسمية مزدوجة الأفريقية (الهولندية) والانجليزية وتطبع جميع الأوراق بهما معاً ، ولا يقبل فى الوظائف إلا من يجيدها ، وكنت أرى الاعلانات وأسماء المتاجر تكتب بهما معاً وتدرسان فى المدارس جميعاً .

الحاجز اللونى :

(Colour Bar) ضرب من الرق المستور : ما كان أشد دهشتى واستنكارى للمعاملة السيئة التى يعامل بها البيض فى جنوب إفريقية الشعوب السوداء رغم أنهم أصحاب البلاد وليسوا دخلاء متطفلين كالبيض فقانون (الحاجز اللونى) هناك يحرم على السود القيام بالعمل الممتاز الذى قصر على البيض حتى ولو وجد من السود أكفاء لهذه الأعمال وخص بالسود العمل اليدوى المهين إلى ذلك فليس للسود حق دخول الوظائف العامة ولهم مدارسهم الخاصة يدرسون فيها مبادئ القراءة وليس لهم دخول مدارس البيض ، ولا يد لهم فى تصريف شؤون البلاد لأنهم ممنوعون من التصويت فى الانتخاب ، ولا يباح لهم دخول النزل والمقاهى وما شاكلها فلهم محالهم الخاصة بل وفى بعض الأحيان بلاد وأحياء خاصة ، وفى بعض البلاد يحرم عليهم دخول الأحياء الأفرنجية بتاتاً ولا يقبل



(شكل ٣٨)
لا تزال تلك العربات تجرها قطر من الثيران أداة النقل فى ريف جنوب إفريقية

الخدم منهم ، ويعامل الأسيويون و بخاصة الهنود والصينيين كذلك ، فهم فى الناتال ممنوعون من فتح المتاجر بجانب البيض ، وكم ناقشت القوم فى هذا التشريع غير المعقول ذلك الذى ينافى النواميس الطبيعية فكانت تعلاتهم أن أجور هؤلاء زهيدة جداً لدرجة تزاحم البيض مزاحمة قاتلة ، وهم لا ينفقون فى معيشتهم شيئاً يذكر بجانب ما ينفقه البيض ، لذلك وجب إبعادهم بتشجيع بقائهم فى حياتهم الريفية الهمجية و بسن قوانين تحدد لهم دائرة أعمالهم ، وخشية أن يجتاح السود الجنس الأبيض (لأن السود هم الأغلبية الساحقة) يحظر القانون على البيض الزواج من السود أو اتخاذ نسائهن خلائل لهم ، ولا يلحق بالسود الأسيويون فحسب ، بل والمولدون وهم من النزلاء الأوائل الذين اختلطوا بالدم الأسود ، ويميزون على السود قليلا ، إذ يسمح لمن يزيد دخله على مائة جنيه فى العام بالاشتراك فى التصويت العام . ولهم أن يقيموا مقاهى وحانات خاصة بهم ، أما السود فممنوعون من الخمر بتاتاً هذا فى الكاب فحسب ، أما فى باقى جنوب إفريقية فالمولدون يعاملون معاملة السود ، وأدهى من ذلك أنهم يعاملون بعض الدول



(شكل ٣٩) ملك من البانتو برأس حمله رقص حربية أمام قصره

الأخرى معاملة شبيهة بذلك تلك الدول التى يضعونها تحت نظام اسمه Quota)
System) ، وما كان أشد ألمى عنـد ما علمت أن المصريين كذلك ! لذلك لم
أعجب عند ما علمت أن (المهاتما غاندى) قد اضطرته معاملة جنوب إفريقية لبنيه
من الهنود بهذا الاضطهاد المزرى أن يصبح على ما نعلم فيه من التطرف فى الدفاع
عن صوالح بنيـه لأنه أمضى شطراً من حياته مشتغلا بالقانون فى بلاد جنوب
إفريقية وعاين بنفسه ظلم الانسان لأخيه الانسان .

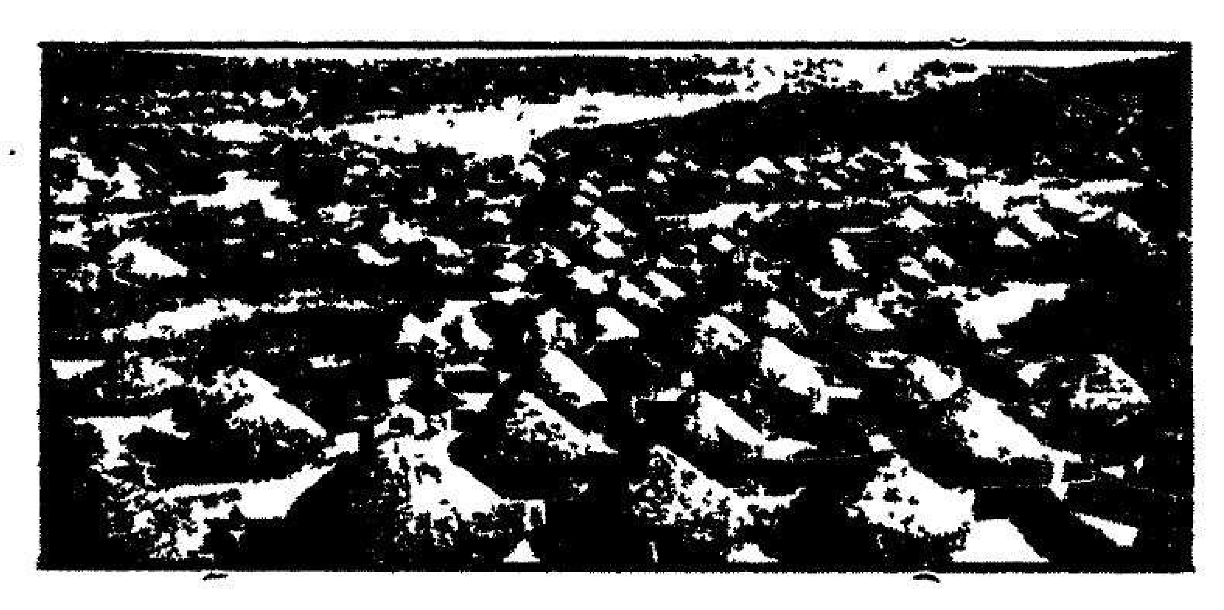
وتعجب إذ تعلم أن كثيراً من العمال من البيض كسالى يعوزهم النشاط فهم
لا يفترقون عن السود كثيراً ومع ذلك تجدهم ممتازين ، وقد قيل إن نزلاء الجنس
الأبيض الذين حلوا جنوب إفريقية وجدوا العبيد فاتخذوهم رقيقاً لمدة قرنين فقد
البيض خلالهما نشاطهم وفضائلهم الخلقية — وتلك من سيئات نظام الرقيق حيثما
وجد — وقد بدأ ذلك فى المـائة عام التالية لالغاء الرقيق تلك التى أظهرت فى
البيض الخمول وكراهية العمل اليدوى فلو أنهم بعثوا إلى هناك أفواجا ولم يزودوا
بالعبيد لكان اليوم منهم شعب نشيط .

وحيث طال أمد الرق فى جهات من الكاب تضاءل عدد البيض أكثر



(شكل ٤٠) سبعة أخوة من زوجات عدة — قبائل البانتو

من ذى قبل ، ولقد كثر عدد العاطلين من العمال البيض قليلى الخبرة فأصبحت مشكلتهم معقدة لأن مزاحمة السود لهم خفضت مستوى أجورهم جداً ، ولذلك صعب على البيض اللاجئين من القرى إلى المدن أن يجدوا عملا ، إلى ذلك فكثير من البيض و بخاصة فى الترنسفال كانوا يعيشون على صيد الحيوان والاتجار فى لحمه وجلوده لكن عدد الحيوان البرى ندر اليوم فقلت موارده ، كذلك كان فريق منهم يعيش على أجور النقل فى عرباتهم التى تجرها الثيران فى قطارات طويلة ، واليوم أضاعت سكة الحديد عليهم موردهم هذا ، فلجأت الحكومة إلى تشجيع استغلال المزارع واحلال البيض محل السود فيها وفى السكك الحديدية وكذلك فى الأعمال ذات الأجور الممتازة فى المناجم ، فهناك يبلغ متوسط أجر العامل الأبيض ٣٦٠ جنيهاً فى العام وهذه من أغلى الأجور العالمية ، ولقد كان أمام السود مجال فى الأعمال الكتابية وفى الوظائف فى المحال التجارية لكن قانون (الحاجز اللونى) الغريب قد حدد ذلك لا بل وكاد يحرمهم منه بتاتاً ، ولقد أدركت



(شكل ٤١) جمهرة من اكواخ الباسو — كرال

الحكومة هناك مدى الاجحاف فى هذا التشريع ، فبدأت تقصر تنفيذه على المدن دون الريف .

وعجيب أن الحكومة تجبى ضرائب على الراشدين من السود فكل واحد يدفع جنيهاً فى العام ونصف جنيه آخر عن كل زوجة من زوجاته ، وقد شجعت تلك الضريبة على العمل اليدوى و إن عاكست تعدد الزوجات كثيراً ، وفيما يختص بالأسيويين سنت قوانين بعدم دخولهم فى الاتحاد بتاتاً ، وهم يغرون من يميل إلى العودة إلى بلادهم بالسفر حتى على حساب الحكومة على ألا يعودوا ، وهم يحرمون على الموجودين هناك دخول المدن ، وقد قصرت إقامتهم على الأرياف والبيض قلقون جداً بسبب الزيادة المطردة فى عدد السود ، بنسبة تتلاشى أمامها زيادة البيض ، و يخشون أن يجتاحهم السود اجتماعياً واقتصادياً ، ومن الاحتياطات التى يتخذونها لمنع ذلك ، تشجيع الحكومات الوطنية فى الريف تحت حاكم أبيض وتشجيع الملكية و إهمال فكرة الشيوع فى الأرض والتمسك بذاك القانون الظالم الذى يخصص العمل الممتاز للبيض دون السود ، ذاك التصرف الذى ينقده الكثير لمنافاته للانسانية ، ولأنه يجعل البلاد عاجزة عن منافسة العالم اقتصادياً

بسبب علو أجور البيض ، لكنهم يعترفون بأنهم مضحون فى ذلك مقابل ضرورة تحويل البلاد جميعها إلى مواطن للجنس الأبيض دون الأسود الذى يرمقه البيض بنظرات الحنق والاحتقار ، فلا ينادونه إلا بنغمة الآمر ، ولا يتحدثون عنه إلا باسم (كافر) مما كنت أتألم له كثيراً ، على أن القلق وعدم الرضى من جانب السود آخذ فى الزيادة لأن احتكاكهم بالبيض علمهم أن يتمسكوا بحقوقهم ومصالحهم التى شعروا بأنها مهضومة ضائعة ، وقد أخذ يبدو ذلك فى حركات الإضراب حيثما يكثر العمال من السود هناك .

جنوب إفريقية

كيف منعت من دخوله

تقدم المسافرون على الباخرة إلى ضابط المهاجرة ، ولما أن جاء دورى فاجأنى الضابط قائلا : آسف أن أبلغك بأن حكومة الاتحاد لا تسمح لك بالنزول فى بلادنا ، كما يقضى قانون المهاجرة ، قلت ولكنى سائح ولست مهاجراً وجواز سفرى يؤيد ذلك ، وهاهى أوراق الرسميـة التى تثبت بأنى موظف فى الحكومة المصرية وانى جئت فى رحلة علمية ، قال هـذا أمر المنع ولا طائل فى المناقشة ، قلت ولكن الباخرة سائرة بعـد الكاب إلى انجلترا رأساً ، وليس ذاك طريقى فهل يسمح لى بالنزول حتى آخذ أول باخرة عائدة إلى شرق إفريقية ؟ قال لا يكون ذلك إلا بأن تزج فى معسكر المهاجرة حتى تجىء الباخرة ، قلت ألا أستطيع أن آوى إلى نزل تحت رقابتكم بعد أن أدفع التأمين الذى تطلبون ؟ قال هذا لا يكون وتركنى .

موقف قلق لم أخبره طوال حياتى ! أقوم برحلة كبدتنى كثيراً من الجهـد والمال قصد البحث العلمى الخالص فأودع السجن ! أية عـدالة فى الدنيا تسيغ ذلك ؟ لبثت ليلتى أتردد فوق ظهر الباخرة من مقعد لآخر ورجل البوليس يراقبنى ويسير خلفى أنى سرت ، وركبان الباخرة يرمقوننى بنظراتهم التى كنت أقرأ فى بعضها العطف وفى البعض سوء الظن بأنى مجرم أثيم ، ثم آويت إلى مضجعى ، ولكن كيف ينام الحائر القلق الأعزل . وفى صباح اليوم التالى علمت أن باخرة العودة ستجىء بعد ثلاثة أيام فآثرت السجن لكى أنقذ رحلتى بعد أن أكدوا لى أن المكان مريح وأنى سأكون ممتعاً داخله بكل ما أريد وسأدفع نفقات الحجز والرقابة والحرس وحمل المتاع ، ولقد استكتبونى صكا بقبول السجن ودفع

ما أطالب به من نفقات ، ولم يكن يدور بخلدى أن فى الأمر شيئاً خفياً .

جىء بى إلى معسكر كبير وما أن دخلته حتى بدأت اغاظة الألمية ، والمعاملة التى تنكرها النفوس الأبية و بخاصة من رئيسهم المسمى (هلاول) الذى بدرنى فى نغمة الأمر بقوله : أمعك نقود ؟ اسرع واظهرها ، ثم نظر إلى شذراً وصاح : مالك تضرب فى مشارق الأرض ومغاربها هكذا ! ادفع ثمن هذا غالياً الآن ! قلت وما شأنك فى هذا ؟ إنى مستعد أن أدفع ما تطلبون ، ثم هم يفتشنى بشكل قبيح وهو يقول : نحن لا نحب أن نرى وجوه المصريين هنا !

قلت ألا يصح أن أعامل معاملة هى خير من تلك كما وعدتمونى ؟ قال لا تعارض فتلك أوامر يجب ألا تناقش بعد أن وكزنى ووجهه مقطب كئيب ، ثم التفت إلى الحقائب وقال : افتح هذه لنرى ما فيها ، ثم أمرنى أن أخرج منها ما أريده داخل السجن ، وكلما أخرجت شيئاً قذفنى بنكاته القارصة ، من ذلك أنه رأى زجاجة (صبغة اليود) فقال حذار أن تشربها الليلة ! ورأى المشط فقال : وكذلك الشعر لابد أن تمشطه ! ورأى بعض الكتب فقال وما تلك ؟ قلت بعض مؤلفاتى فى الجغرافيا والرحلات فقال : إذن فأنت الرجل الذى أبغضه منذ الصغر ! وما إلى ذلك من هراء القول ، فثارت ثائرتى وقلت أنا لا أطيق هذه الاهانات وخير لى أن أعود إلى الباخرة ، قال لا فقد انتهى الأمر .

حملت متاعى والسجان أمامى يصيح فى خشونة (أدخل هنا !) وإذا بى أجوز باباً حديديا مصمتاً فى أعلاه أعواد الحديد إلى ردهة صغيرة سماوية إلى يسارها صف من القاعات المختنقة المظلمة فاسدة الهواء إذ ليس بها سوى فتحات عالية مختنقة بها شباك الحديد والسلك ، أما الباب فحديد مصمت حاولت أن أحركه حول مفاصله لتتسع فتحة مدخله فلم أستطع لثقله ، وليس به سوى ثقب مقبى يغشاه الزجاج وهذا ليطل خلاله السجان فيرى ما أنا فاعل داخل ذاك الجب ، أما الأرض فالأسفلت القاتم الأغبر والسقف ألواح الحديد ، ويلاصق الجدران

لوحتان من خشب للجلوس أمامهما ثلاثة أسرة هى أعواد ثقيلة من خشب متباعد عليها قطعة من لباد أغبر و بطانيتان رقيقتان باليتان أقذر من أن تسيغ لك نفسك لمسهما ، تلك هى مقرى داخل السجن ، وفى الجانب الآخر من الردهة مقصورة للمياه تعاف النفس دخولها ، وصادف أن كنت فى كل هذا السجن وحيدا وقد ترك معى عبد أسود ضخم الجثة عاثر العينين يراقبنى آنا و يتهادى مشيا على مرآى منى آنا آخر ، وكلما مضت فترة سمعت صليل أبواب وحدائد مزعجة ، و إذا به حارس آخر يدخل ليرمقنى ثم ينصرف ، وكان كلما دخل واحد بدرنى قائلا : (أمعك نقود ؟) صور نفسك فى هذا الموقف ، وقد أرخى الليل سدوله وساد السكون إلا فى وطء أقدام ثقيلة لذاك الزنجى خلال فترات متقطعة . وكلما أقبل ميعاد الطعام وفد الغلام (بصينية) من حديد أسود صدىء ، بها أطباق من الزنك و إلى جانبها (براد) من زنك قديم قذر به شاى مازجه اللبن ومنطال (كوز) لأتناول فيه الشاى ، وأقسم لو وجدته فى مرحاض لما مسسته ، وهذا هو الطعام الممتاز الأوربى الذى سأدفع عنه أكثر من سبعين قرشاً كل يوم .

جن الليل واشتد البرد ، ونوافذ الطاقات مفتحة ليس بها أبواب ، والفصل هناك شتاء قارس يعادل برد يناير فى مصر تماماً ، ومفروض أنى سأنام ملء جفونى لأنى لم أنم الليلة الفائتة إلا غراراً ! مفرش قذر يابس وغطاء منتن خفيف لا وسائد ولا تكآت ، والقاعة واطئة مرطوبة نز الماء يلمس فى جدرانها ، على أنى لا أغمط القوم فضلهم فقد كان من وسائل الترف فى تلك الغرفة مصباح كهربائى ضئيل وقطيلة (فوطة) خيل إلى من شدة قذراتها أن الزنجى مسح لونه فيها . هكذا افترض أن أقضى ثلاث ليال كنت أسرح فى مداها اللانهائى و إذا بالغلام يتحدث إلى فيقول : متى تسافر ؟ قلت يوم السبت فى أول باخرة قال : ومن يدرى ! فطالما كان المسجونون أمثالك يقولون أننا سنسافر بعد يومين فيقيمون عشرات لا بل وشهوراً ، قلت ولماذا ؟ قال : لأن القوم هنا

يستفيدون بطول المكث نفقات من المسجونين فيفوتون عليهم باخرة وثانية وثالثة بحجة أنها ممتلئة وليس بها أماكن خالية . وأنا أعلم أن لو أفلتتنى الباخرة المقبلة انتظرت بعدها ثمانى ليال أخرى حتى تجىء الثانية !

قلت يالله ! أهكذا يعامل الأبرياء فى بلاد تدعى المدنية وتنتحل لها جنسية أوروبية نفوراً مما تسميه بالهمجية الافريقية ؟ وهل بعد ذلك وحشية وتجرد عن الانسانية ! أهكذا يكافأ البحث العلمى الخالص فينقلب الثواب عقاباً قاسياً ممضاً !

فى السابعة والنصف مساء أقبل الحارس وأخذ يحادثنى عن سبب سجنى ولما عرفنى قال : ولكن كيف يتصرفون مع رجل مثلك هذا التصرف المشين ، وأخذ يطعن على العقول المدبرة لتلك البلاد بشكل دلنى على أن الفساد شائع ، وهذا عين ما قاله لى الحارس فى الباخرة بالأمس ، وفى نهاية الحديث أبدى أسفه ولما أخذ ينصرف قال هذا (الجردل) لقضاء الحاجة ، ثم أغلق على الباب بمفاتيحه الثقيلة . أظنك تقدر مدى جولات الفكر فى عزلة القلق الأعزل ، أخذت الساعات تتلو بعضها البعض والسكون يزداد وحشة إلى منتصف الليل حين اضطجعت وإذا بطفيليات البق وغيره تتسابق إلى وتترامى على من كل جانب فقمت فزعا عيوفاً ، فكم من مجرم أثيم ملوث الدم موبوء الجسد لا مست تلكم الحشرات ! لم يسعنى إلا المكث على مرارة الخشب بعيداً عن هذا الفراش الموبوء حتى الصباح ، وأخذت تمر الساعات وأنا كلما أسمع جلبة أخال الحارس أقبل ليفتح الباب فتزول بعض الوحشة حتى الساعة الثامنة والنصف صباحاً حين فتح الباب وقدم طعام الإفطار فى صمت وتقطيب ، ولبثت أتوقع أن يحمل الزنجى الفراش (والجردل) وإذا بى أنا المكلف بذلك فلم تسغ لى النفس عمله وتركت الأشياء مكانها .

كتبت للرئيس أقابله شاكياً شارحاً ما لقيت فرفض طلبى وكم كنت أخشى أن يطول بى المكث ويفوتنى هؤلاء الأنذال الباخرة فأظل فى هذا الجب

ما شاء الله ، وكم كنت أرى من نقوش على الجدران خطها من أصابهم سوء الحظ أمثالى فزجوا فى ذاك الجب وكلها تدل على الإيلام الممض ، منها من يصف تلك البلاد التى تدعى المدنية بأنها أظلم ما على سطح الأرض ، والبعض يشبه المكان بجهنم والبعض يكتب : سأبرح هذا الجحيم غداً بعد أن قضيت فيه شهراً ونصفا !

وفى الصباح كتبت أرجو مقابلة الرئيس للمرة الثانية فجاءنى الضابط البغيض (هالاول) وأخذ يتهكم فى قحة زائدة ولم يسمح لى بمقابلة الرئيس ، وقال إن كان لديك شكاية فها أنا ، فقلت له أيليق هـذا المكان برجل مسئول مثلى سيدفع عنه جنيهاً فى اليوم ، قال : وأى مسئول أنت ! قلت موظف فى حكومة لا تقل احتراماً عن حكومتكم ومدرس ومشتغل بالعلم والتأليف ، فأخذ يتهكم ويقول : نعم المكان لا عيب فيه فهل تظن أننا سنقيمه لك من جديد !

أقبلت الليلة الثالثة وأمضيتها على مضض انتظاراً لما عساه يجىء به الغد ، وعنـد الفجر شعرت بألم مبرح فى أحد جنبى من أثر برد المكان ورطوبته ، وحاولت أن أقاومه ولـكن ليس فى الوسع شىء ولو ناديت حتى اختنقت فلن يسمعنى أحد ، أخيراً أقبل الغلام بالافطار وهو يقول : أنت ستذهب إلى الباخرة اليوم لأنى رأيتها على الميناء أمس ولأنى أخبرت المطعم ألا يجهز لك طعام الظهر فاستبشرت ، وفى العاشرة جاء الضابط الذى ابتلانى الله به ونادانى فى سوء أدب وخشونة قائلاً : محمد ! محمد ! أمستعد للخروج ؟ فرمقته شذراً ولم أجبه ، فقال ستخرج بعد نصف ساعة ، وحاول أن يكون متظرفاً ، ولما خرجت وصعدت إلى الطابق العلوى لأتسلم نقودى طلبت أن أقابل الرئيس ، فقال لماذا ؟ قلت أريد التحـدث إليه ، قال ولـكنه خرج ولن يعود إلا يوم الاثنين بعـد باكر فهل تنتظره ! فأسرعت وقلبى يسابقنى إلى الباخرة ، وأخذ بعض أتباعه يتألم لما حل بى ، وقال بأن هؤلاء الضباط جميعاً أنذال تلك طبيعتهم ، هم يشوهون سمعة البلاد دائماً ونحن الموظفون تحتهم لا نستطيع الكلام ، نتألم لما يجرى أمامنا ونحن

صامتون ، وهنا أقبل ذلك النذل وجلس إلى جانبى وقال :

أظنك غاضباً ! قلت وأية نقمة وغضب وبخاصة لما لاقيته على يديك أنت شخصياً ! قال ولم ؟! قلت لأنك عاملتنى معاملة الكلاب ، قال لم يحصل شىء من ذلك ، قلت فى صوت جهورى ألست أنت الذى قلت كيت وكيت وذكرت بعض إهاناته لى ، ولما رأى جموع المسافرين منصتين لقولى ، قال : بل كنت أمزح لأنى رأيتك فى موقف حرج فأردت أن أسرى عنك ، قلت هل تبادلنا الإخلاص والتعارف من قبل ؟ وهل تقاطيع وجهك كانت تدل على المزاح ، وهل قولك بأنكم لا تحبون المصريين قول المازح ؟ قال إذن ستشكونى خاصة قلت نعم إلى كافة النواحى المسئولة فى مصر وانجلترا ، بل وفى كل بلد أتصل به ، فبدت عليه علائم الارتباك وقال لكن حذار أن تقول غير الصدق ، فأنا خادم الحكومة أنفذ قوانينها فحسب ، قلت نعم لكم أن تمنعونى من الدخول فى بلادكم ولكن ليس لكم أن تلحقوا بالناس مثل تلك الاهانات فليس ذلك من القانون فى شىء ، فتركنى وأقلعت الباخرة والناس من حولى أقص عليهم أمرى فيذهلون ويستنكرون ويرمون القوم بكل خسة وتوحش .

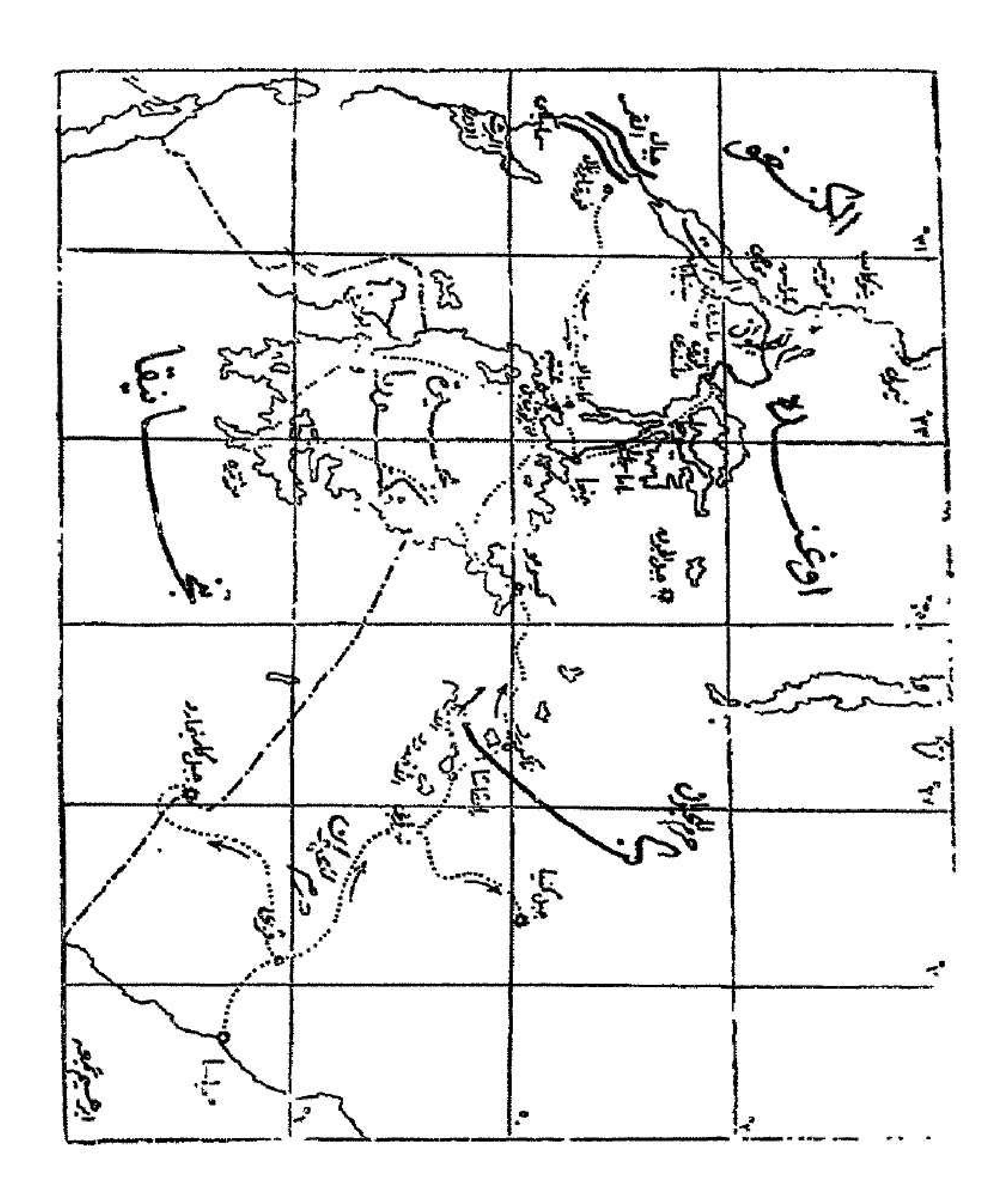
هنا باعتنى شاب نمساوى قائلاً : لقد أخطأت التصرف ، فلقد حل بى مثل ذلك لما حللت البلاد منذ ثلاثة شهور لكنى كنت أحسن حظاً منك إذ لجأت إلى تصرف مالى مهد لى سبيل الدخول ، ولقد أيد ذلك كثير من المسافرين ومن بينهم بعض العائدين من الإنجليز !

وقد شرعت أكتب احتجاجى لرجالاتهم وكبريات جرائدهم من ظهر الباخرة ، فجاءنى رد جريدة (ناتال مركورى) بأنها عاينت مكان السجن فإذا به حوشى مشين ، ورد وزير داخليتهم فى شبه اعتذار بأن القانون قضى بذلك ويؤكد فى آخر خطابه بأننى (على الأقل لاقيت أحسن معاملة على أيدى

رجاله !) فعجبت لتلك المغالطة إذ كيف تعد تلك الشتائم وذاك السجن المزرى من حسن المعاملة .

غابت عن نظرى تلك البلاد التى سأظل أحمل لها أسوأ الذكريات ، بلاد لم ترع للعلم حرمة ولا للمجاملات الودية عهدا ، ولكن كيف تفعل ذلك وهى تعد مصر والمصريين — بنص قوانينها — من الأمم المنحطة التى هى دون بنيها مقاما . ولقد علمت لما أن عرضت شكواى على القنصلية البريطانية فى القاهرة أنهم يضعون مصر فى زمرة الشعوب الملونة Coloured المنحطة فى زعمهم ! ولو أنى علمت ذلك وأنا هناك لكان لى معهم إزاء تلك الإهانة الكبرى شأن آخر . والعجب أنا نظل سكوتاً فلا نطالب بمحو تلك الوصمة أو على الأقل بمقابلة المثل بالمثل ، فلم لا يمنع أبناؤهم من الدخول إلى بلادنا على نحو ما يفعلون معنا ؟ هل غفلوا عن أصولهم فعدوا أنفسهم من السادة وهم من نعرف من أصولهم ما نعرف ؟

ولكن حسبنا أن نتغنى بأننا كرماء لضيوفنا وهم بنا مزدرون ، ولحقوقنا غامطون !



بلاد كنيا



(شكل ٤٢) تبدو هضبة كنيا موسم الجفاف شبه صحراوية

عود الى ممباسا :

ركبت البحر عائداً من حيث جئت ، ومررت ثانية ببلاد إفريقية الشرقية البرتغالية ثم بلاد تانجانيقا ثم بلاد كنيا ، ولما أن حللت ممباسا قمت بقطار (البضاعة) أخترق قلب بلاد كنيا ، ولم يوافق يومى يوم قطار للمسافرين (mail) وذلك يقوم مرتين فى كل أسبوع ، وفى كل يوم عدا هذين قطار للبضاعة تلحق به عربة أو اثنتان للمسافرين .

أخذ القطار يسير بنا وسط جنة من النبت الوفير والشجر الكثيف ، وكان أظهره النرجيل والمانجو و بعد مسيرة خمسة عشر ميلا وهى عرض السهل الشرقى الساحلى الوطىء أخذنا فى الصعود السريع فى ليات عجيبة ، و بين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد مغضنة وفيرة النبت عديدة النقائع مشعبة المسايل فى مشاهد خلابة حتى أقبل الليل ، وكان كلما تقدم القطار قل النبت فصار عشباً ، وفى الصباح كنا نسير فوق هضبة شبه مجدبة شتان بينها و بين المنحدر الساحلى الذى كان بالأمس غنياً بالشجر ، وكاد الشجر ينعدم فى تلك البرية شبه الصحراوية إلا فى شجيرات نصف شائكة والأرض يكسوها كلأ جاف ، لذلك يسميها

الأهلون (Nyika) ومعناها البرارى . وأجف جهاتها قطعة وسطها تسمى تارو (Taru) ، وزاد الاقليم جفافاً أنا كنا نجوزه إبان موسم الجفاف الذى يكاد ينعدم مطره ، والمحاط صغيرة ونائية عن بعضها والجهة تكاد تخلو من الأهاين اللهم إلا جمهرة من السود كانوا يفدون إلينا كلما وقف القطار من أكواخهم المنثورة وكانوا فرحين كأنهم وجدوا بعض الأنس فى ضوضاء القطار ، ويختلط بهم كثير من الهنود الذين يكونون السواد الأعظم من موظفى المحاط والقطر ، والكل يتكلم السواحلية التى يفهمها الجميع وإن كان لكل قبيلة لهجة خاصة لا تفهمها جارتها فالسواحلية أصبحت لغة التفاهم (Lingua Franca) وهنا فاجأتنا سحابة كثيفة من الجراد الذى يغير على الاقليم منذ ست سنين ويهدد المزارع وطالما فتك بأنتاجها ، وكثير من الأهاين عرايا إلا فى إزار فضفاض من الجلد وبيدهم القسى والسهام وإلى جانبهم الخناجر الكبيرة على فطرتهم الأولى ، أما الجو فكان أميل إلى البرودة وبخاصة فى الليل وبا كورة الصباح إذ حاكى شتاء مصر تماما ، رغم أنا كنا نقارب خط الاستواء قاب المنطقة الحارة ، وذلك من أثر الارتفاع الذى كان يناهز خمسة آلاف قدم وكانت السماء صافية مكنتنا أن نمتع البصر بمشهد :

جبل كلمانجارو : أعلى ذرى إفريقية جميعاً يشمخ فى السماء إلى ١٩٧١٠ قدم تتوجه عمامة من الثلج الوضاء علوها ٧٠٠٠ قدم وحدها ولذلك لم أعجب لما علمت أن معنى كلمانجارو الجبل الأبيض وأصله بركان خامد تكسو جوانبه الغابات من علو ٦٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ قدم تحتها شجيرات وأعشاب ومزارع تم مدرجانه المادئة . وفوقها عشب قصير إلى ارتفاع ١٣٫٠٠٠ قدم حيث تبدأ الثلوج ، تلك التى تبعث بأسن من الثلاجات عديدة تنزل إلى علو ١٢٫٥٠٠ قدم فى جنوبه الغربى وإلى ١٨٫٧٠٠ فقط فى الشمال ، ويسمى شعوب المساى ذروته الغربية المسماة (كيمو) ببيت الله نجاجى نجاى (Ngaji Ngâi) ويعلل البعض



(شكل ٤٣) قمة جبل كلمنجارو أعلى ذرى إفريقية وأصلها كأس لبركان خامد تبدو كالطبق المقلوب

ندرة ثلوجه على سفوحه الشمالية والشرقية التى كنا نراها إلى تيار هوائى دفىء يمر فى سماء تلك الجهـة ، وقد حدثنا بعض القوم بأنه يرى فى أعلاه وكأنه الأناء المقلوب وهو أسهل جبال إفريقيـة جميعاً لمن أراد تسلقه ، وان تلك الغابات التى نراها ملتفة كثيفة إلى حد مخيف يليها علواً أقليم شبيه بجبال الالب فى عشبه وزهوره ، ثم يعرى أديم الجبل فى صخر بركانى قاتم مسافة طويلة تؤدى بنا إلى الثلوج الوضاءة ، وهناك يخف ضغط الهواء لدرجة تجعل نبرات القلب تدق سراعاً حتى لتكاد تسمعها فيمن يجاورك من الصاعدين ولا تقوى على احتمالها إلا القلوب الراسخة القوية ، وسكة الحديد يخرج منها فرع عنـد محطة (موى) إلى حجر ذلك الجبل العتيد ، وكانت أخص المزارع أسفله من البن والموز تتصاعد أعمدة الدخان من آلاف الأخصاص المختبئة فيها .

واصل القطار بنا سيره فى قلب كنيا ، وما لبث أن وقع البصر على جماهير من الحيوان البرى فى أنواع مختلفة وقطعان لا تدخل تحت حصر ذات اليمين

وذات الشمال تعرفت من بينها الزبرا والزراف والتياتل والنعام . هنا علمت أننا نجانب أكبر حرم للحيوان فى الدنيا (Game Reserve) لا بل أكبر حديقة طبيعية للحيوان يحرم القانون صيد الحيوان أو قتله داخل حدوده ، ولقد كان شريط سكة الحديد هو الحد بين الحرم إلى اليسار ، والصيد المباح إلى اليمين ، ولبث كذلك زهاء ثلث الطريق بين ممباسا ونيروبى عاصمة كينيا وجموع الحيوان تبدو قريبة منا فى كثرة هائلة وبعضها كان يسير وراء رئيس كأنه القائد وكأن الحيوان قد عرف حرمه فاذا ما أحس قرب القطار ، وكان إلى جانبنا الأيمن خارج الحرم عدا سراعا إلى عبور الخط إلى يسارنا وهناك أبطأ السير ، ثم وقف يرمقنا بنظراته وكأنه أمن شرنا واحتمى فى القانون متحدياً إيانا ونحن نشير إليه بأيدينا فلا يعيرها أهمية ، وليلة الأمس دهم قطارنا زرافة وهى تتخطى القضبان فقتلها ، ووقف لذلك برهة فكنا نرى الجمع الباقى من الزراف يقف آمناً مستأنساً وقد حاولت أخذ صورة شمسية لتلك القطعان لكن كانت تعوزنى (العدسة المقربة) التى يستخدمها هواة الحيوان ، وقد خبرنى القوم أنهم كثيراً ما رأوا جمعاً من الحيوان يجفل ويولى الأدبار فى ذعر شديد لأنه أبصر بأسد كاسر على بعد منه ، ومن أنواع الحيوان التى لم أرها من قبل : الجاموس والبقر البرى ويسمون نوعا منه جنو ، وآخر أوربى والهارتبيست والويلدبيست وكثير غيرها .

حرم الحيوان ومسرحه : لبث الانسان زماناً يبرر قتل الحيوان البرى لأسباب منها الاستفادة باستغلال الأراضى الزراعية والأشجار فيما يصيد من الحيوان إلى ذلك ما يستفيدونه صحياً من وراء مطاردته ومن اتقاء الأوبئة التى يحملها هذا الحيوان ، لكن الفكرة السائدة اليوم حماية الحيوان فى مساحات من الأرض تعتبر إما ملكا عاما أبد الدهر ، ويطلقون عليها مسارح الحيوان National Park وإما حرما يمنع القانون صيد الحيوان فيه حتى ينسخ ذلك القانون بقرار برلمانى ويسمونه G. Reserve ويراعى فى تلك البقاع أن تلائم الحيوان الذى



(شكل ٤٤) قطع من وايلدبيست فى حرم الحيوان

يراد حمايته ، وأن تكون شاسعة غنية بالأعشاب والمياه وأن تنأى عن البقاع التى يراد ترقيتها ، وأن يسهل على الزوار دخولها ، وأن يندر سكانها ومعادنها ، لذلك تنتقى غنية بالمناظر الجذابة والجو المغرى الجميل .

ولقد بدأت تتغير وجهة نظر هواة الصيد ، فبعد أن كان يلذ للانسان صيد الحيوان والاسراف فى قتله ذالك الاسراف الذى خشى معه انقراض كثير من فصائل الحيوان — آثر اليوم استخدام آلة التصوير ذات العدسات المقربة بحيث يمكن تصوير الحيوان وجموعه وهى فى حالتها الطبيعية ، إلى ذلك فان تلك المسارح أصبحت خير الوسائل لدراسة الحيوان خصوصاً وأن الحكومات أقامت بها جواسق يستأجرها الرواد بثمن زهيد ، ومن أشهرها مسرح (كروجر) فى شرق ترنسفال فى جنوب إفريقية ، ومسرح البرت شمال شرق الكنغو البلجيكية بين بحيرتى ادورد وكيفو ، ويؤمها من العلماء ما يقرب من ١٥ ألفاً كل عام . أما حرم الحيوان فتعدد خصوصاً فى كنيا وأوغنده والسودان .

والحيوان لاشك متأثر بالعشب حوله ، ففى مرتفعات شرق إفريقية حيث

يكثر الغذاء طوال العام لايرغم الحيوان على التجول بعيداً كما هى الحال فى رودسيا ونياسالاند ، والعادة أن حيوان المناطق التى تكثر بها الشجيرات أكثر تجوالا وسفراً من ساكن السهول ، إلى ذلك الألوان الواقية للحيوان التى تجعله يحكى الوسط من حوله فان لم تكن واضحة استعيضت بقوة الحواس الشم والبصر والسمع ، وقد قيل إن القرون من أكبر العوامل فى ارهاف السمع إلى ذلك خفة الحركة والرائحة الكريهة التى تنبعث من بعض الحيوان واللحم كريه المذاق ، وعجبت من بعض الغزلان فى إفريقية لأن أنثاه تفقد رائحتها تماما إذا ما قاربت الوضع لكيلا يهتدى عدوها إلى مكانها ، وفى يومين أو ثلاثة من ميلاد صغارها تعدو فى سرعة الأم تماما ، وبعض الحيوان يشتم رائحة عدوه على بعد ثلاثة أميال ، والبعض كالنسر مثلا يرى بقع الدم على الأرض من علو عشرة آلاف قدم ، ولعل للحيوان أحساساً لاسلكيا لم يتوصل إليه ماركونى إلا هذه الأيام يهديه إلى ما يحوطه من خطر حتى فى حلكة الليل . أليست الغريزة التى أوتيها الحيوان أبعد أثراً من العقل الذى وهبه الانسان ؟

ولقد كانت إفريقية عاصة بالحيوان فى بدء كشفها حتى أن الكاشفين كانوا يطلقون اسم الحيوان الشائع على الأنهار والجبال والبحيرات وما إليها ، لكن دخول الجنس الأبيض طاردها إلى المجاهل ، فالسباع مثلا كانت تجوب القارة كلها إلى الكاب وكان كثير منها يوجد فى حدائق المنازل هناك ، أما قطعان الغزال — ذاك الذى فاق ٣٢ فصيلة — والزبرا فكانت تسد الآفاق ، لكن اسراف الناس فى قتلها أباد كثيراً من أعدادها لا بل وفصائلها ، ولا تزال شرق إفريقية تغص بالحيوان على اختلافه ، ولقد قص على القوم هناك من أنباء الحيوان وعاداته شيئاً كثيراً نروى هنا بعضها :

السبع : يعرفون منه فى إفريقية ثلاثة أنواع : ذا الرقبة البيضاء والحمراء



(شكل ٤٥) سباع مماهل كينيا طالما تفتك بالكثير من الأهلين

والسمراء وهذا أشرسها ، والنوع الذى يوجد شمال السودان ليس له معرفة وهو أقل وحشية ، ومتوسط طول السبع من الذنب إلى الأنف ثلاث ياردات ، ووزنه بين ثلاثة قناطير وخمسة ، وينقص وزن الأنثى عن الذكر بمقدار الربع ، والأسد يعمر بين عشرين سنة وثلاثين ، وهو حيوان يسير فى جماعات ويهاجم كذلك فى جماعات ، وهو يمتاز عن الشيتا — نمر إفريقية الأرقط — بذنبه الذى يجره فى الأرض وراءه إذا سار على عكس ما يفعل الشيتا ، وهو لا يهاجم الإنسان قط إلا إذا كان جائعاً ، والجروح التى يحدثها سامة ، وقوته لا يصدقها العقل حتى قيل إن الأسد يستطيع قفز حائط مرتفع وفى فمه عجل ، وخير الطرق لقتله أن تصوب الرصاصة بحيث تخترق الحلق إلى الرئتين أو بين العينين ، وإذا أصابت الكتف أعجزته عن السير لكنه يظل حيا ساعات وهنا الخطر الأكبر ، ومعرفة السبع تخف عادة إذا كان من سكان الشجيرات وزئيره نتيجة لذبذبة فى الحلق لا تصحبها حركة ظاهرة فى الفم ، ولذلك ينخدع السامع فى تحديد مصدر صوت السبع على بعد ، وهو يزأر ليلقى الرعب فى قلوب فرائسه ، وإذا شبع لا يهتم أبد

بما يرى من صيد وحيوان ، ويعرف سائر الحيوان فيه ذلك فلا يعبأ به وهو شبعان ، وكثيراً ما يخترق السبع قطيعاً من الزبرا أو الهارتبيست فى شرق إفريقيـة وهى لا تتحرك ، وكم فتك السبع فى كنيا بالجماهير من الناس إبان مد سكة الحديد بين ممباسا وفكتوريا حتى أن الأهلين كانوا يعتقدون أن أرواح زعمائهم تحل أجساد تلك السباع لتفتك بمن يشتغل فى مد الخط لأن ذلك كان فى زعمهم اهانة كبرى لهم ، ويظهر أن السبع يلعق جلد الإنسان ليشرب دمه طازجاً قبل أكل لحمه ، وقد ثبت ذلك من الجثث التى أنقذت من براثن السباع قبل تمام أكلها إذ كانت ترى قطع من الجسد ، وقد أزيل عنهـا الجلد وبدا اللحم من تحتها جافاً خالياً من الدم :

والسبع يتعقب فريسته فى سكون ثم يهاجم على أن الفرقعة تزعجه ، حدث مرة أن هاجم سبع تاجراً على حمار فى محطة (فوى) وقبـل أن يمسك به ذعر الحمار فدوى رنين بعض الآنية التى كان يحملها فخاف السبع وفر هارباً ، وإذا فاجأ قوماً وصاحوا فى وجهه ولى عنهم ، وعجيب أن يبدأ السبع أكل فريسته من الذنب متجهاً نحو الرأس ، فكلما أزعج وترك فريسته كان أسفلها منهوشاً ، وقبائل (واكامبا) هناك تلتهم لحوم السباع والفهود نيئة بعـد سلخ جلودها ، ويعتقد الهنود أن شحم الأسد خير علاج لمرض (الروماتزم) وأمراض أخرى ، وإذا أكل السبع قصـد مجرى للشرب وعندئذ يستلقى فى أول مكان ظليل يلاقيه دون أن يهتم بأحد ، فهو لا يخشى حيواناً قط سوى الإنسان ، وإلى الآن لا يزال الإنسان فى إفريقيـة بعيداً عنه ، ومن أحب اللحوم لديه لحم الزبرا ، والعجب أن يتبعه ابن آوى أو ضبع ويقترب منه وهو يأكل فريسته وكلما لمس اللحم نفر السبع فيه فتنحى قليلاً ، ثم عاود الكرة وأخيراً يأكل ما تخلف من الأسد ، ويقول الأهلون إن السبع يأكل لحوم جميع فصائل الحيوان إذا دعته ضرورة الجوع حتى لحوم السباع نفسها ، لكنه يأنف من لحم الضبع وابن آوى



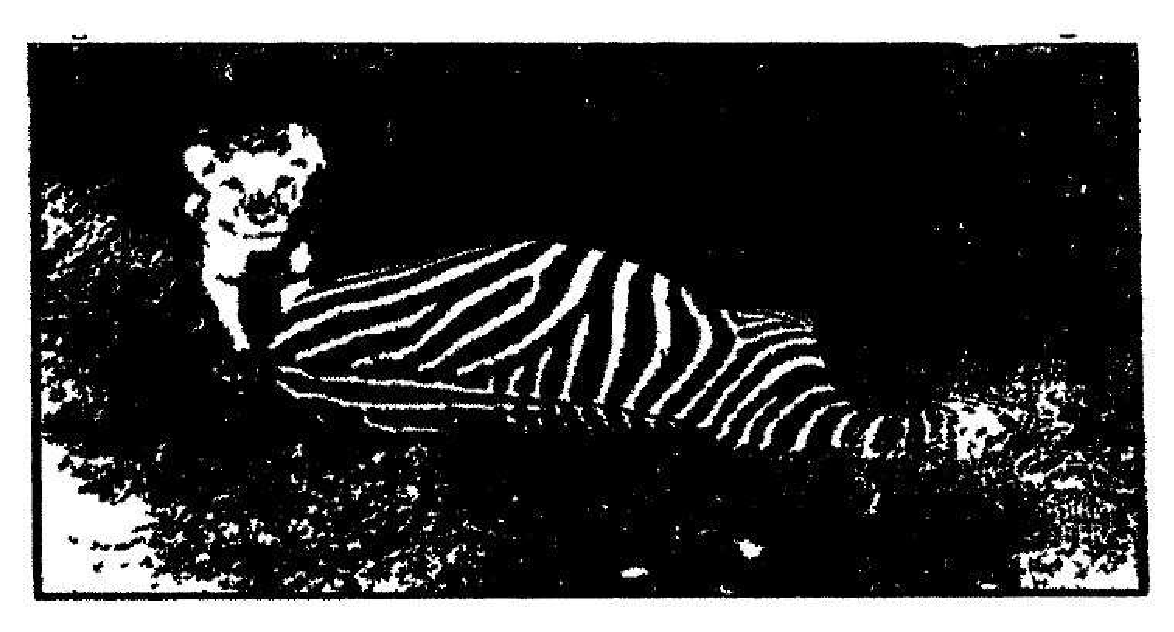
(شكل ٤٦) ملك الغاب

فهو لا يأكلها ولو أشرف على الهلاك جوعاً وذلك احتقاراً لشأنهما .

ولا يزال السبع يكثر جداً فى أوغندا وشرق السودان إلى حدود الحبشة ، وأجمل أنواعه فى بلاد كنيا ، وقد خبرنى ناظر إحدى المحاط وهو هندى أنه كثيراً ما كان يستيقظ ليفتح الطريق للقطار ، وإذا بسبع أو اثنين قد كمنا تحت مقاصير المحطة وزئيرهما يصم الآذان فلا يجسر أن يفتح الباب ، ويظل القطار واقفاً وهو يصفر حتى تذعر الأسد وتفر ، وكثيراً ما تهاجم أرصفة المحاط فيختبئ العمال داخل المكاتب وفى مخازن الماء (الفناطيس) .

ومن الحيوان المفترس كثير الوجود هناك إلى جانب الأسد الفهد والشيتا : فالفهد أصغر من النمر قليلاً ، وزنه قنطار ونصف ولعله أخطر حيوان فى الوجود إذا جرح وهو من أصعب الوحوش مراساً وأشدها حذراً بحيث يتعذر قنصه أو ضربه وموطنه الشجر والغاب ، وطعامه من القردة والغزلان والدجاج والفيران وإذا أعوزته تلك سطا على الخراف ، ولخطره يطارده الناس ويقتلونه أينما وجد ولذلك ندر جداً .

والشيتا : يصعب تمييزه من الفهد ولا خطر منه إلا إذا جرح وحتى وهو جريح لا ينكص راجعاً على صياده ولونه جميل أصفر أو أحمر تزينه بقع سوداء وبطنه أبيض وذنبه طويل ، لكن يظل مرفوعاً وهو يترنح فى مشيه وهو



(شكل ٤٧) أحب اللحم للسباع حمار الوحش والسبع سدأ أكل فريسته من دبرها

أسرع الحيوانات طرا وقيل أنه يجرى بسرعة خمسين ميلاً فى الساعة ولسهولة صيده كاد ينقرض ، والتيتا هو نمر إفريقية الأرقط إذ لا يوجد النمر المخطط فى تلك القارة أبداً .

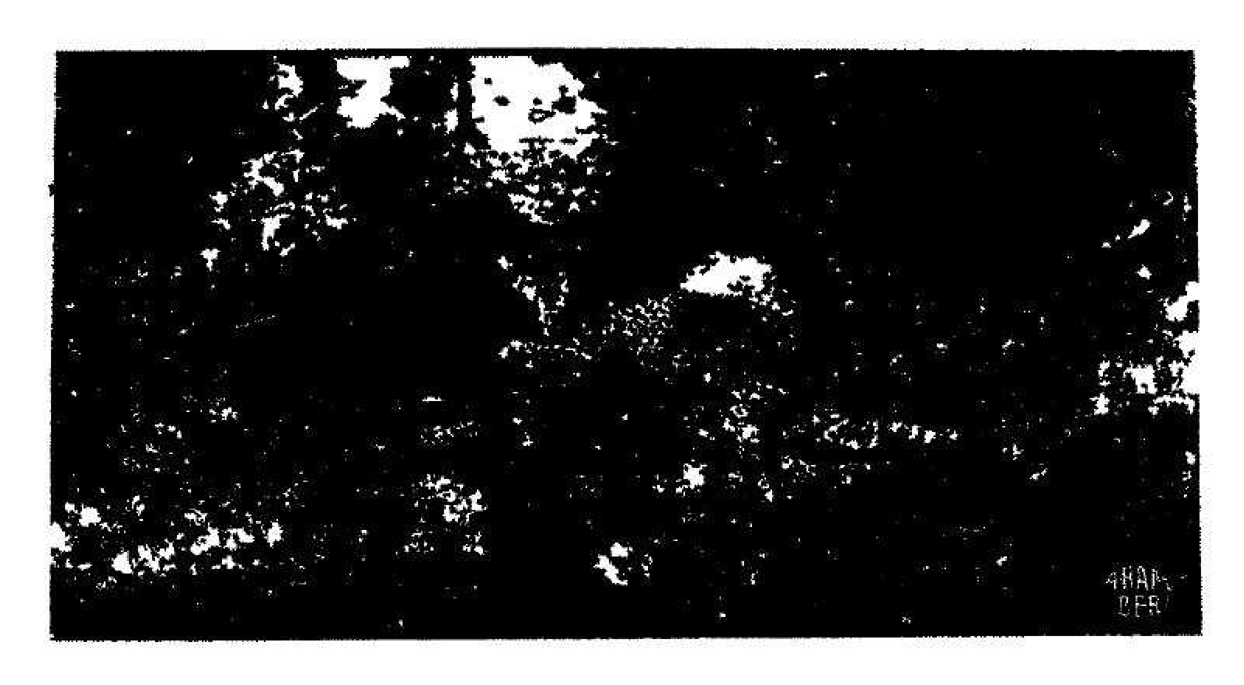
الزراف : كم كان يروقنا منظر أسراب الزراف وهى تتهادى فى مشيتها ورقابها الطويلة تترنح ، وأعجب ما ترى الزرافة وهى راكضة أو رابضة على الأرض بجوار شجيرة ورأسها يتسمح وكأنه جذع له شعاب ، وإذا فارتها ألفيتها وديعة أليفة ، علوها وهى واقفة فى مسقط رأسى من طرف قرنها إلى الأرض قد يقارب ستة أمتار ، ولها قرنان قصيران يغطيهما الجلد ونتوء من عظم يطول كلما تقدم الحيوان فى السن حتى يرى أحياناً وكأنه قرن ثالث ، وخلف الدماغ قرنان صغيران جداً ، وقوة البصر لديه حادة ولحمه لذيذ وجلده قيم فى صنع السياط الطويلة فقد تتخذ منه سيور فى طول يفوق ستة أمتار إذا شق الجلد بطول الرقبة ، والزراف يكثر فى السهول الجافة كثيرة الشجيرات والأعشاب الشوكية ، على أنه آخذ فى الانقراض ولذلك حرم قتله بتاتاً ، وكثيراً ما تشتبك رقاب الزراف بأسلاك البرق



(شكل ٤٨) قطيع من « الزبرا » يرد الماء فى حرم الحيوان

فتقطها وهى تجرى فى الظلام وشعر ذنبها سميك تتخذ منه بعض الأساور أحياناً .

النعام : ومن أكثر الحيوان ذيوعاً هناك النعام بين أغبر رمادى وأسود — وغالب الذكور كذلك — وقد استأنس القوم منه الكبير — خصوصاً فى جنوب إفريقية — وأول افراخ استؤنست منه فى سنة ١٨٥٧ ثم أخذ ذلك فى الانتشار حتى داهم السعار انحطاط ثمن الريش اليوم إلى حد أخذ يهدد تربية النعام بالانقراض ، وقد أرسلت حكومة جنوب إفريقية بعثة سنة ١٩١١ لجلب نعام شمال إفريقيـة وغيرها ، وهو أجود لأن ريشه أقصر وأكثف ومتوسط ما ينتجه الطائر بين ٢٠ — ٢٦ أوقيـة من الريش و ٦٠ — ٦٢ ريشة طويلة بيضاء و ٦٠ — ٧٠ ريشة سوداء هـذا خلاف الريش القصير ، والظليم (ذكر النعام) يزيد انتاجه الثلث على انتاج الأنثى ، ويربى النعام بالتفريخ عادة فتوضع الطيور الكبيرة فى زرائب مساحتها عشرة أفدنة حيث يعنى باطعامها يومياً ويجب ألا تزعج بأية حال ، ثم تؤخـذ صغار الأفراخ إلى زرائب مساحتها حوالى مائة



(شكل ٤٩) الشيتا أسرع الوحوش قاطبة

فدان حيث يعنى بها وباطعامها بمقصوص العشب وهشيم العظام والحصى وما شاكلها وأكبر عدو لها ابن آوى ، ويتقى القوم شره بوضع الأفراخ داخل حظائر تغلق ليلا ، ولما كانت الذكور كلفة بالنزال وضرب أندادها فصل بينها بسياج من شوك ويفرخ زوج النعام ثلاث مرات فى السنة وتفقس كل مرة بين ١٦ و ١٧ بيضة ويؤتى الفرخ نتاجه من الريش فى الشهر السادس من سنه ، وذلك بأن تقص أطراف الريش وتترك خوافيها ثلاثة أشهر حتى تذبل ثم تنتزع دون أن تسبب للحيوان ألما ، وبعد ذلك بستة شهور أخرى يبدأ المحصول الثانى بالنظام نفسه ، وخير أنواع الريش ما نمت فى الربيع والخريف ، ولقد هم القوم سنة ١٨٨٠ بتربيته وبنوا عليه آمالا تبشر بالأرباح الطائلة فبلغ الثمن لزوج النعام ٢٠٠ جنيهاً ، وإذا كان من نوع ممتاز بيع الزوج بألف جنيه ، ولما نزل سعر الريش عقب سنة ١٨٨٦ أفلس الكثير من التجار ، ثم عاد الثمن إلى الصعود حتى بدء الحرب الكبرى حين هوى الثمن من ثلاثة جنيهات للرطل إلى جنيه ونصف فكان ذلك



(شكل ٥٠) قطيع من الزراف

ضربة قاضية يضاف إليه الجفاف الذى توالى هذه السنوات . وكذلك التغير الذى حدث فى أزياء الناس وأذواقهم مما نزل بعدد النعام إلى العشر فى جنوب إفريقية فعدد المستأنس منه اليوم ١٠٤ ألفاً تغل سنويا ٨٦½ ألف رطل ثمن الرطل نصف جنيه ، وتفرض الحكومة غرامة مائة جنيه على من يصدر النعام ، وخمسة جنيهات على من يصدر بيضه ، وفى سنة ١٩٣٠ بدأ يدخل الريش فى النسيج بنسبة ٧½٪ ويمكن أن يزاد إلى ٢٥ ٪ ، كذلك بدأ القوم يدبغون جلد النعام الذى يساوى الواحد منه ربع جنيه ، ويباع لحمه بخمسة قروش للرطل مما جعل قتل الحيوان أربح من تربيته فأخذ هذا يهدد بانقراضه ، وجلده هذا متين جدا مخطط تخطيطاً غريباً يلائم القفازات والحقائب (المحافظ) والفرش ، وغالبه يصدر إلى أمريكا ، ويلاحظ نقص شديد هذه الأيام فى الصادر من منتجات النعام فى شمال إفريقية وغربها ، والريش الافريقى يفضل ريش استراليا وارجنتينا بأمريكا كثيراً فى جودته ، والنعام أكبر الطيور حجما ومن أشدها حذراً وأقواها بصراً لكن مخ النعامة لا يزيد على مخ الغراب ولحمها لذيذ الطعم جداً والسباع تحب لحمها . ويغتبط

الأهالى إذا رأوا أسداً يفترس نعامة لأنهم يسرعون إلى المكان لأخذ الريش الثمين ، والنعامة تأكل أوراق الشجر والحشرات كالعقارب والجعلان ، وكذلك الحصى إن دعتها الضرورة .

نيروبى : فى ثمانى عشرة ساعة بعد قيامنا من ممباسا وصلنا نيروبى عاصمة مستعمرة كنيا البريطانية ، وهى تقوم فى وهدة تتغضن من حولها التلال ، وهى على علو ٥٤٩٠ قدم لذلك كان الجو بها باردا ، وبخاصة لما جن الليل حين كنت أشعر برعشة شتاء مصر القارس وأنا فى غرفتى مساء ، وهنا أدركت حقاً أثر الارتفاع فى زيادة الفرق بين حرارتى الليل والنهار ، وأن الليل هو شتاء تلك الأقاليم الاستوائيـة المرتفعة ، والمدينـة لم تكن شيئاً منذ ربع قرن حين كانت مجموعة من أكواخ بائسة ، أما اليوم فهى مدينة ذات مبان فاخرة وطرق معبدة فسيحة تتوسطها المزارع وبجانبها الشجر فى تشذيب جميل ، على أن اختيار موقعها لم يكن موفقاً لأنها عرضة لسيل المطر الذى يهوى إليها من النجاد حولها إبان المطر ، وموسمه هنا مرتان من مايو إلى يوليه ومن أكتوبر إلى ديسمبر حين تصبح البلدة رطبة نزة ، وقيل إن سبب اختيارها أن عاملا زنجياً ممن كانوا يشتغلون فى بناء سكة الحديد كان يحمل قضيباً من حديد ولما وصل تلك البقعة أجهده الحر والتراب ، فألقى به هنا ولما جاءه المهندس قال لا بأس باتخاذ هذا المكان قاعدة لأعمال الشركة ، ومن ثم نشأت المدينة ، مع أن هناك من المرتفعات حولها ما كان أجدر بها وأولى .

قمت بجولة فى أطراف المدينة فأخذت السيارة تعلو فى طرق متلوية تحتها المزارع والأشجار ، وبخاصة شجر (وتل Wattle) الذى ينزع القوم قشوره وعند ما تجف تقطع سظايا ثم تصدر فى غرائر لاستخراج الأصباغ الحمراء منها ، ثم شجيرات البن التى تغطى مساحات هائلة فى ارتفاع قصير ، وتنمو فى صفوف مسطرة فى دقة وتنسق فائق . وحبوب البن تنمو متجاورة واحدة فواحدة على



(شكل ٥١) الشارع الرئيسى فى نيرونى عاصمة كنيا

طول الفروع فى حجم النبق . وفى لون أخضر فإذا ما احمرت جمعت باليد ، وكل ثمرة فى داخلها حبتان متلاصقتان بناحيتيهما المشقوقتين ، وتتوسط أغلب المزارع مصانع تعده للتصدير وكلها فى أيدى الأوروبيين و بخاصة الإنجليز ، و يمتاز بن شرق إفريقية برائحته الزكية القوية ، وهو يزكو فى كنيا على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم ، وقد صدر منه سنة ١٩٣٠ فوق ٣١٠ ألف قنطار ومتوسط الصادر بمليون جنيه ، وشجرته تثمر فى سنتين ومرتين كل عام ، و يجنى من كل شجرة بين رطل وثلاثة فى المرة الواحدة ، والشجرة تعمر طويلا ففى نيكاراجوه بأمريكا الوسطى تثمر إلى سن الستين ، وعلى سفوح كلمنجارو يزكو البن العربى الشهير .

وكنا نمر بمساحات شاسعة من الأرض الخصبة ذات التربة الحمراء السميكة وهى وقف على الأهلين لا يباح لغيرهم امتلاكها (Native reserve) شأن كثير من أراضى كنيا وكنا نرى أكواخهم المستديرة تتناثر خلالها وهم يزرعون فيها كل ما يحتاجون و بخاصة الذرة . وهم لا يهتمون بالزراعة للبيع والاستغلال لأنهم لا يكادون يعرفون للنقود قيمة إذ كانت حاجياتهم فطيرة محدودة ، والعادة أن

تقطعهم الحكومة تلك الأراضى مجاناً مقابل دفع ضريبـة بسيطة لا على الفدان، بل على الكوخ الواحـد بمعدل جنيه ونصف فى العام ، ولما كان الرجل منهم يتزوج أكثر من واحدة — إذ الغالب لا يقل عن خمس نسوة — اضطر أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت وهذا ما يدفع أولادهم إلى العمل لكى يحصلوا على ما يسدون به تلك الضرائب وعلى أمهار زوجاتهم ، وفيما عدا ذلك لا حاجة لهم بالمال ، وقبائل تلك المنطقة يسمون : الكيكويو : يسيرون عرايا نساء ورجالاً إلا فى إزار من جلد يتدلى من أمام ومن خلاف إلى الركبتين وهو مفتوح الجوانب غير منتظم الأطراف ، ولا يرون عيباً فى ظهور كل أجزاء الجسد عارية فكأنه أمر طبيعى ، وترى النسوة يلبسن فى السوق الحجال من النحاس أو الفضة فى أساور أو ثعابين قد تبلغ العشرين تحت بعضها أسفل الركبة وعنـد العرقوبين لغير المتزوجات ، وفى الأذرع دون الأرجل المتزوجات ، ويعلقن حلقات ملونة كبيرة من الخرز تحت الأذن ولثقلها ترفع الأذن بشريط من خرز يلف على الجبهة ويربط فى قوف الأذن ليساعدها على حمل تلك الأوزان وشحمة الأذن تخرق وتشحذ فتتسع لحلقة فى حجم الريال الكبير تعلوها أخرى وثالثة أصغر منها ، ثم تخترقها قطع من خشب اسطوانية الشكل إلى ذلك عقود الخرز العـدة ، وكثير من الرجال يفعل ذلك أيضاً ، أما الرءوس فتحلق ناعمة وترى النسوة يسرن طوال الطريق وهن يعلقن وراء ظهورهن أحمالاً من الحطب أو المتاع أو الأطفال فى قطعة من جلد يرفعها سـير يمر بأعلى الجبهة وإلى جانبهـا يتدلى إناء من جلد به مزيج الذرة وجذور التاسوكا كأنها البطاطا فى طعم لزج كالعجين ، والرجال يحملون الحراب والدروع ، وسـلاحهم الرئيسى القسى والسهام المسمومة ، وهم يبردون الأسنان الأمامية لتبدو مدببة حادة ، ويتخذون أخصاصهم فى أعماق الغابات حتى أنه ليصعب الوصول إليها ، وإن وصلتها تعذر عليك دخولها إلا حبواً ، هى محدولة جدلاً جميلا يدل على شىء كثير من حسن



(شكل ٥٢) وسط مزارع البن فى كنيا

الذوق والاستعداد للرقى ، على أنها قذرة جداً يعيش داخلها الناس والقطعان ، وهم زراع لحد كبير ، ويعرفون بين جيرانهم بالغدر والجبن والمكر ، على أنهم مسالمون نشيطون ، وهم يخافون آلة التصوير خصوصاً نساءهم خشية أن يؤثر فيهن سحرها أثراً سيئاً ، وكنت كما رأيت جمعاً منهن أعرض (الفتوغرافية) لهن مداعبة فكن يصحن ويولولن ويضطربن فى مرأى مضحك ، وهم كلما شعروا بضعف فى إنتاج أرضهم للدرة والبطاطا لجأوا إلى غابة جديدة فأحرقوها واستنبتوا مكانها حتى أتلفوا مساحات شاسعة من الغابات هناك ، لذلك بدأت تمنع الحكومة ذلك وتعمل على إعادة استنبات الأشجار ؛ والكيكويو وثنيون فى عقائدهم كثيرة الخرافات . ومن عاداتهم ختان الفتيات دون الذكور وقد سرت منهم تلك العادة إلى الكثير من السود من حدود السودان ، وهم فى الختان لا يكتفون بقطع الزائدتين (الشفرتين) فحسب بل وما حولها ثم يربط الفخذان أياماً فيلتحم طرفا الجرح ويسد المكان كله عدا موضع غابة رفيعة توضع وسط الجرح وتحرك قليلا فى كل يوم فإذا اندمل الجرح لم يترك إلا ثقباً ضئيلا هو

موضع تلك الغابة ، وعند الزواج يحاول الزوج فضها فتحمل إليه الزوجة فى بيته وأهلها من حولها ، ويحاول الزوج ذلك فإن صاحت أخذوها منه إلى بيتهم على أن تعاد فى الليلة التالية ، ويعاد ذلك حتى يستطيع فضها ؛ ولا يزال القوم خاضعين لنظام القبيلة وزعماؤهم يقومون بالفصل فى الخصومات بينهم فان عجزوا — وهذا نادر — تدخلت الحكومة فى الأمر .

لبثنا نسير فى تلك الجنة صعدا ومن حولنا المروج والغابات فى أراض مغضنة رائعة المناظر ، ومن بين تلك المنحدرات ما كان يزرع شايا ، على أنه لا يصادف هنالك من النجاح كثيراً ، وأخيراً أدى بنا السير إلى نزل منعزل فوق ربوة تعلو سبعة آلاف قدم ، هى جنة ساحرة لولا ما كان يحوطها من برد زمهرير يقصدها الكثير للراحة أياماً محدودة ، فإن طال المكث أضر بالقلب بسبب خفة ضغط الهواء الذى يعجل بالإجهاد ، لذلك كنا نشعر بالتعب عاجلا كلما سرنا على الأقدام قليلا ، ومن تلك الربوة بدا على بعد جبل :

كنيا : الذى يشمخ فى السماء ١٧٫٠٤٠ قدماً وهو ثانى ذرى إفريقية وأول من بلغ قمته السير ماكندر سنة ١٨٩٩ ، والقمة تتدلى منها خمس عشرة ثلاجة وهى بقايا لبركان خامد قديم هشمت التعرية من ارتفاعه مالا يقل على ٣٠٠٠ قدم ، لذلك لا نرى الفوهة اليوم واضحة ، وتكسوه بين ارتفاع ٥٥٠٠و١٢٠٠٠ قدم غابات من الأرز (cedar) والكافور والخيزران (البامبو) وعلى جوانبه تتدرج النباتات من الاستوائية الكثيفة إلى أعشاب جبال الألب وزهورها فى جلاء تام ، والاقليم الذى حوله أخصب بقاع كنيا جميعاً وأكثرها ملاءمة لسكنى الجنس الأبيض ومن أغناها بالقنص بما فى ذلك الفيلة وأخص قبائل الأهلين حوله :

المساى : أولئك الذين كانوا نذير الفزع وسادة الحرب لجميع أهل إفريقية من فكتوريا نيانزا إلى ممباسا ، حياتهم حياة قتال وحروب ، على أن عديدهم

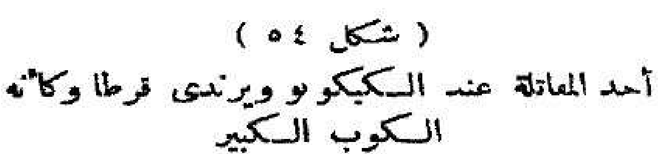


(شكل ٥٣) سيدات الكيكويو يلبسن إزارا من جلد

تضاءل بسبب توالى الحروب وفتك الجدرى بهم ، وأول ما يسترعى نظر السائح نظامهم العسكرى المحكم ، فالصبية رعاة مسلحون إلى سن ١٦ حين يصبحون من المقاتلة (Elmorani) الذين يخضبون حرابهم بدم الغير و يخلصون لوطنهم ، و يمتنعون عن الزواج والتدخين والمسكرات ، و يعيشون عيشة زهد وتقشف حتى تنقضى مدة خدمتهم ، و إلى جانب الحراب ذات الحدين والدروع يحملون سيفاً تراه معلقاً من حزام من جلد غفل ومنظرهم وهم فى أردية الحرب يلقى الرعب فى القلوب و بخاصة غطاء الرأس الذى يطوق الوجه كله فى شعور نافشة وكلما هاجموا محلة (kraal) قتلوا الرجال المدافعين جميعاً بالحراب ، أما النساء فيقتلون فى المساء بالهراوات وهم يفاخرون أنهم لا يتخذون من بعضهم أسرى ولا مسجونين بل يقولون حيثما تمر جنودنا لا تعقب من الاحياء نفرا ، وقد لا يقتلون النساء أريحية منهم ، ولكى يتخذوا منهن خدما ، وغرضهم الأول من تلك الغارات الاستيلاء على قطعان الغير لأن المساى رعاة لا زراع تقدر ثروتهم بحسب قطعانهم ، وعجيب أنهم لا يصيدون الحيوان الذى تغص به بلادهم احتقارا اللهم إلا السباع ، غذاؤهم

الرئيسى لحم البقر واللبن والدم الطازج الذى يتخذ من الحيوان وهو حى والنساء يقمن بالتبادل التجارى البسيط ، وقد تسكون القبيلتان فى قتال مستمر ، والنساء على الحدود يتبادلن تلك المتاجر ، وهم يعبدون إلهاً اسمه (نجاى N'gai) و يطلقون هـذا الاسم على كل ما لا تفقهه أفهامهم ، ومن عاداتهم الغريبة اقتلاع السنين الأمامين من الفك الأسفل وتلك أخص ما تميزهم عن جيرانهم ، و يخال البعض إنها عادة شاعت اتقاء مرض تصلب الفك الذى كان منتشراً لديهم ؛ حـدث مرة أن تابعى فى ضواحى نيرو بى وكان من المساى صادف جمجمة فى الأرض فأسرع إليها ورفعها باحترام وقد عرف أنها لمساى مثله لنقص السنين الأماميين ثم عكف على بعض العشب — وهم يقدسون العشب لأنه سر نمو قطعانهم — و بصق عليه وحشا به تجاويف الجمجمة والتفت إلى وقال : ذلك لـكى نزيل الشر عنا ، ودهشت لما صادفنا صديق له فى الطريق فبصق هو فى وجهه وتلك عادتهم فى التحية ، و يسترعى النظر آذانهم وما فيها من الحلى فهم يشحذون شحمتها طويلا ثم يثقبونها وتتدلى منها أكواب وصفائح وقطع من خشب فى أحجام مخيفة ، والرجال يلبسون جلود السباع وأذناب القردة على رجولهم ، ور يش النعام فوق رءوسهم ، وعنـد العرقو بين يضع الرجال أجراساً لتـدل الناس على اقترابهم ، والنساء يغطين أجسادهن بأطواق النحاس فى البطن والخصر والسوق والسواعد والرقاب فى أوزان مبهظة ، ولا تعد السيدة من النبيلات إلا بكثرة تلك الأطواق ، وهم لا يدفنون موتاهم خشية تدنيس الأرض ، بل يحملون الجثث فى العراء وتترك لتنهمها جارحات الطير والوحوش ، ولا يدفن سوى الزعماء فوق تلال مشرفة عليهم ، والمساى أنبل المتوحشين وأكثرهم استقامة ، وهم يتخذون من القبائل الأخرى خدماً ورقاً ، خصوصاً قبائل (اندرو بو) وإذا جاءك مسالماً مد ذراعه الأيمن بمحاذاة كتفه وشد أصابعه إلى أعلى بحيث تواجه راحة اليد من أراد مسالمته .

ولقد كان نظامهم العسكرى المحكم من أكبر العقبات والمشاكل أمام الحكومة التى أخذت تقاومه وتصرفهم عنه بمنع المران العسكرى وتحريم حمل الحراب والدروع لكن سرعان ما حدا بهم هذا إلى التدهور والفناء ، وتحاول الحكومة صرف مجهودهم إلى استثمار منتجات الألبان وهى تقيم لهم المصانع والمدارس لذلك ويساعد الحكومة فى ذلك زعماؤهم رغم احتقارهم للعمل اليدوى ، كذلك فهى تشجع تصاهرهم مع الكيكويو ، والمساى صحيحو الأجسام نحيلو السوق قريبون



(شكل ٥٤)
أحد المعاتلة عند الكيكويو ويرتدى قرطا وكأنه الكوب الكبير

فى الشبه من المصريين الأصفياء ، لونهم نحاسى ولغتهم قريبة من لغات أعالى النيل وهم يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية فى إفريقية يؤيد ذلك مظهرهم الوقور وبسالتهم وكبرياؤهم واستقلالهم وذكاؤهم وهم ضعيفو الايمان بالسحر وزعماء الدين لديهم (laibons) يقصر عملهم على الدواء والعلاج واستنزال المطر ، والحالة الصحية حولهم رديئة ، فمنازلهم تطلى بروث البقر وتقام فى دوائر كى تؤى البقر داخلها ، فينتج من هذا انتشار التراب والذباب بكثرة مخيفة ، ونساؤهم يعشن عيشة هى أسهل من نساء القبائل الزراعية ، وتهددهم الوحوش التى تجرى

وراء قطعانهم ، وقديما كان جل مرانهم على صيد السباع بالحراب والدروع كخطوة للمران الحربي ، فلما قاومت الحكومة هذا الروح تشجع الحيوان الوحشى وأضحى لا يخشى الناس ، فأباحت الحكومة لعدد محدود منهم حمل الحراب لوقاية قطعانهم ، ومن أسوأ عاداتهم تخضيب حراب المقاتل الحديث بدماء الغير ، ولا يزال بعضهم يهاجم الغرباء و يقتلهم رغم تحريم القانون لذلك ، والنساء هن اللاتى يشجعنهم على ذلك لأنهن يسخرن جماعات من كل مقاتل لم تخضب حربته ، ومن حفلاتهم قبل التخضيب أن يصارع الفتى ثوراً أسود يظل يوما كاملا يطعمه القوم اللبن و يسقونه الخمر ، و يتبارى الكل فى حفل ، و يحاول كل فتى أن يمسك بالثور الثمل السكران من قرنه الأيمن ، وسرعان ما يلقى بالثور على الأرض و يسلخه . حيا و يقطع الجلد إلى سيور يتزين بها الفتيان جميعاً حول العرقوبين والرسغ ، ولتقديسهم للبقر لا يذبحونه لأخذ اللحم ، لذلك كان جل غذائهم مزيجاً من اللبن والدم ، و يستخرج الدم بطريقة مدهشة إذ يربط الثور و يضرب الرجل بسهمه فى وريد الرقبة فيسيل دم الحيوان و يجمع فى إناء لحد لا يميت الحيوان ، ثم يضمد جرحه و يترك الحيوان ليستعيد قواه ودمه ، ثم تعاد العملية مراراً ، و يقال إن وباء فتك بماشيتهم سنة ١٨٩٠ ، فأباد قطعانهم ولونت عفوناتها أرجاء الهواء ومياه الأنهار ، فمات من المساى جماهير عدة ولم يستعيدوا عديدهم وسلطانهم بعد تلك الصدمة ، فكان هذا من حظ النزلاء البيض من الانجليز فى تلك الجهات حيث لم تكن مقاومة المساى لهم كما كان القوم يتوقعون .

عدت إلى ناحيـة أخرى من نيرو بى هى مسكن الطبقة الارستقراطية من الهنود ، والهنود هنا كثيرون و بينهم المفرطون فى الغنى و بيـدهم غالب المتاجر والوظائف المتوسطة فى مصالح الحكومة وفى الانزال وهم المشرفون على الخدم من السود فى كل مكان ، وأن الانسان ليعجب لنشاط الهنود وسعيهم بعيـدا وراء كسب المال ، وكأنهم اليهود فى الحرص على المال أو جماعة الاغريق فى ريف

مصر ، وكلهم مكتنزون للمال لا يكادون ينفقون منه شيئاً لبساطة معيشتهم ، وغالبهم هناك من المسلمين ولذلك أقاموا لهم مسجداً على نظام تاج محل هو آية فى الهندسة والجمال والشيعة منهم أقاموا بناء ضخما صفت به المقاعد ، وكأنه المدرسة يفد إليه الصبية كل يوم بين السادسة ومنتصف الثامنة مساء وهم يرتلون بعض أدعية ويصلون ثم ينصرفون ، أما مساكن الأوروبيين



(شكل ٥٥) جبل كنيا الرائع

ففى ضاحيـة تسمى التل ، تطل على المطار الفسيح ، وإلى جانبها مباشرة حرم الحيوان وقد كنت أرى به آلاف الغزلان والتياتل (هارتبيست وويلدبيست) وغيرها .

المتحف : زرت متحف المدينـة وهو على صغره قيم فى محتوياته راقنى به مجموعة من الحيوان المحنط وأعجبه دب النمل Ant Bear وكأنه القنغر شكلا وحجما ، والسمك ذو الرئة فى طول مترين وكأنه كلب البحر (shark) ثم مخلفات الإنسان من جماجم أسنانها بالغـة الضخامة وجباهها متحدرة ، ومقاعد وآلات وآنيـة من خوص وخشب ، وزينة من أقراط وأساور من نحاس وخرز وأسلحة من حراب ، وتروس وآلات موسيقية منها طبول منقورة فى جذوع



الشجر وقيثارة ذات أوتار بعضها طولى وبعضها عرضى ، و (قانون) من عاب غليظ أجوف يرص متجاوراً وتعلوه سيور الجلد بدل الأوتار ، ورباب ومزمار ، كذلك أفخاخ للأرجل من جديلة من خوص تتوسطها عصى مدببة تكاد تتلاقى فى وسط الدائرة فتحز جلد

(شكل ٥٦) المساى فى كامل ردائهم الحربى

المحرم المعاقب وخزات مستمرة أليمة ، وسفن شراعها من جدائل الخوص ، ثم قسم جيولوجى وآخر نباتى به نماذج من ألواح الخشب على اختلاف صنوفه ، وقرن هو ثمرة شجرة (Entada) طوله متر ونصف وبه أربع عشرة فولة الواحدة فى حجم قطعة الصابون الكبيرة ينمو قرب السواحل الحارة ، وأعجب الكل ثمرة سوداء كأنها خشب الأبنوس فى فلقتين متجاورتين كأنهما قربتان بيضيتان متلاصقتان لوناً وحجماً ، وشجرتها تنمو فى الشواطئ وبخاصة فى جزائر سيشل وتسمى جوز البحر Coco de mer والنخلة تصل مائة قدم وأوراقها عشرين ، والثمرة تكاد تكون أكبر ثمار الدنيا حجماً تنضج فى عشر سنين ، عثر عليها الكاشفون أولا طافية فى البحر ، والثمرة تؤكل وتصلح لعمل بعض الأدوية .



(شكل ٥٧)
يلبس الماساى جلد السبع الذى يصيده عرسه ليدل على رجولته

وثم قسم للحشرات من بينها حشرة العصى stick فى طول شبرين وكأنها العصى تماماً ، والحشرة المصلية praying تحكى (فرس النبى) تأكل لحوم غيرها وسميت كذلك لأنها ترفع رجليها الأماميتين وكأنها تصلى دائماً ومجموعة من فراش بديع ، والمتحف رغم صغره قيم جدير بالزيارة .

الى الأخدود الأعظم

غادرت نيروبى فأخذ القطار يعلو فى صفحة غنية بالمزارع أظهرها البن ، وكلما توغلنا زادت وعورة المنحدر وتعقدت ليات السكة ، ويمكنك تقدير ذلك إذا علمت أننا علونا فى الأميال الخمسة والثلاثين الأولى ألفى قدم ، والقاطرة هنا من ذات المحركين كى تستطيع مغالبة ذاك الصعود ، وكان الخط يجانب سلسلة ملتوية تهوى من جوانبها الوديان المختنقة إلى قرار الوهاد المغضنة من دوننا والمناظر من حولنا رائعة ، لبثنا نعلو والوهاد تنكشف حتى مررنا بمحطة (كمكويو) نسبة إلى حافة الهضبة التى تعلوها ومن يقطنها من قبائل الكيكويو ، هنا بدا الإنسان على فطرته عارى الجسد فى غير إزار ، كلا ولا ستار للعورة نساء ورجالا اللهم إلا الأغنياء منهم وهؤلاء يلبسون إزاراً من جلد ليس تحته شىء ، وفى تلك

المرتفعات متسع للرعاية و بخاصة للبقر والماعز التى كنا نرى منها القطعان الكثيفة والبقر يلفت النظر بلونه القاتم ذى البقع البيضاء و بما يعلو كتفه من سنام ناتىء غليظ ، ولما قاربنا الذروة زادت غابات شجر واتل (Wattle) فى ورقه القاتم المتقب المهفهف ، وزهره الذهبى العطر ذاك الذى تستغل قشوره للأصباغ وخشبه للوقود وكثير من قاطرات سكة الحديد تحرقه بدل الفحم ، و يقولون إن الاقليم كانت تسده الغابات والأحراش منذ ربع قرن ، فقطعت وزرع هذا الشجر مكانها ، وحيث تبدو التربة الحمراء السميكة تقوم منابت الدرة ، أخيراً وصلنا إلى الذروة فى محطة (Upland) على علو ثمانية آلاف قدم ، وما كاد القطار يبرحها حتى شعرنا بأنه ينزل ذاك المرتفع عاجلا ، وهنا باغتنا منظر أذهل الفؤاد بروعته إذ تكشف من دوننا :

الأخدود الأعظم : (Great Rift Valley) فى مشهد سيظل يشغل من الفكر حيزاً لا تمحوه السنون فلعله أروع مشاهد إفريقية على الإطلاق ، هنا بدا الوادى المغضن الفسيح فى هوة لا تكاد تدرك العين قرارها ذاك القرار الذى كان ينأى من دوننا بألفى قدم ، فكانت تبدو وديانه المختلفة اللانهائية تتلوى وسط الربى المخروطية إلى قصارى مسارح النظر ، منظر دونه المناظر التى رأيتها فى سويسرا واسكندناوه وجبال الهملايا ، وقد زاد المكان جمالاً أبناؤه الأبرار الذين لم تمسسهم مساوىء المدنية من الإنسان الهمجى عارى البدن وطوائف الحيوان الوحشى التى كنا نمر جوارها و بخاصة أسراب النعام والتيتل والزبرا (حمار الوحش) بديع النقش ذاك الذى كانت جموعه تسير فى مئات ترعى وجميع رءوسها فى اتجاه واحد وفق عادتها . ظل القطار يهوى فتستبين تلك الربى الناتئة وما جاورها من أكواخ مكورة ساذجة ، وكل تلك الربى مخاريط لبراكين خامدة كانت ثائرة غاضبة يوم أن التوى سطح الأرض وانفطر فخلف ذلك الأخدود الهائل الذى يمتد من موزمبيق و بحيرة نياسا جنوباً إلى البحر الأحمر فالبحر الميت فى



(شكل ٥٨) سيدات الماى

فلسطين شمالاً أعنى مسافة ذرعها خمسة آلاف ميل وهو يبدو واضحاً بين الحافتين المشرفتين : كيكويو إلى الشرق وماو إلى الغرب ، وسعة ما بينهما ١٢٨ ميلاً ، ويقولون إن سبيلنا هـذا خلاله بواسطة سكة حديد كينيا هى خير بقاع الأخدود روعة وجمالاً ، أخيراً أدى بنا الهبوط إلى مشهد سلسلة من البحيرات تطوقها حافات الخاريط البركانية القديمة ، ومن أسماها مكاناً (لونجونوت) الذى يعلو ٩٠٠٠ قدم ، وتتسع فتحته إلى ميلين ونصف وهى غائرة العمق تكاد تسدها الغابات وتتخللها شقوق تصعد غازات سامة ، ومن ورائه تبدو سلسلة من بحيرات أهمها ماجادا ونايفاشا وناترون والمنتايتا وناكورو وبارنجو .

و بعد أن جزنا محطة (لنجونوت) و بحيراتها و بركانها بدت نايفاشا (١٢½ × ١٥ ميلا) فى شكل هلال تتوسطه جزيرة هلالية هى ناحية من شفة ذاك المخروط البركانى الهابط ، وهنا كثر الطير والزبرا وأفراس الماء بشكل استرعى أنظارنا ، وكانت منحدراتها تكسى بمزارع السيسال ، وفى سبع ساعات دخلنا بلدة ناكورو فى قرار الأخدود الأعظم ، هنا استرحت يوماً كاملاً فى بطن ذاك

الوادى الفذ الأوحد ، والمدينة بجوها المنعش البارد الصحى مزار لطلاب الراحة والاستشفاء ، إذ يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم أو يزيد قليلاً وهى قرية صغيرة بها طريقان رئيسيان متقاطعان تصف عليهما الحوانيت والمساكن الوطنية ذات الطابق الواحد والسقوف المنحدرة ، وكلها من صفائح الزنك وحول نصف أهلها وتجارها من الهنود ، وأحد هذين الطريقين يؤدى بنا هبوطاً إلى بحيرة آسنة صغيرة تحوطها عدة ربى بركانية ويحف بمدرجاتها الرملية كثيف الدغل وبعض الشجر المنور ، وفيها كثير من الطير ودابة الماء ، وقد تسلقت بعض تلك الربى فبدا منظر البحيرة منها رائعاً على أن البعوض مختلف الحجم كان يحوطنى أينما سرت فى سحائب مخيفة ، والمدينة تطوقها حافة بركان (Menengai) قطر فوهته ٨½ ميلاً ، ومن ورائها يمتد بطن الأخدود الأعظم شمالاً وجنوباً فى سهول مترامية تعوزها الفلاحة ووسائل الرى كى تغل نتاجاً وفيراً .

الى فكتوريا نيانزا : برح القطار ناكورو وأخذ يصعد الجانب الغربى للأخدود ، وكان الصعود سريعاً ، إذ بلغنا القمة بعد ٤٣ ميلاً ، علونا خلالها ٢٢٥١ قدم فوق ناكورو ، وكانت ليات السكة متعددة ، والربى المنورة يعلو بعضها البعض ، تكسوها الغابات القاتمة ، وهنا وهنالك كنا نرى بقاعاً شاسعة زرعها ذووها ؛ على أن هذا الجانب رغم ثروته بالنبت وكثرة المسايل المائية التى تسيل بالماء إبان المطر ، أندر سكاناً ، والمناظر أقل روعة ، ومعابر سكة الحديد هنا بلغت ٢٧ فى قناطر ملتوية شاهقة ، تشهد لأولئك الجبابرة الذين أقاموا الخط مغالبين الطبيعة ووعورتها ، وهنا شعبة لسكة الحديد تعبر خط الاستواء ثلاث مرات فى طيات متعاقبة . عبرنا (حافة ماو) ، ثم أخذنا نهوى سراعاً إلى السهول المؤدية إلى فكتوريانيانزا ، وفى خمسين ميلا هبطنا ٣٧٠٠ قدم ، ولن أنسى زمهرير البرد خصوصاً لما أقبل المساء ، فقد كادت قدماى تجمدان ، وكان البرد يفوق أقسى ليالى شتاء مصر ، والعجب أننا كنا فوق خط الاستواء تماماً ، لكن هو الارتفاع

الذى هبط بالحرارة إلى ذاك المدى البعيد ، على أنا شعرنا بزيادة الدفء عاجلاً لما أن أخذنا فى ذاك الهبوط ، ولقد انتقلنا إلى جو حار تماماً لما بلغنا كيسومو على البحيرة ، وأخذت السهول تنفسح وتنأى الربى كلما هبطنا ، وغالبها يرى يكسوه العشب والشجر إلا فى بقع نادرة من نبات الذرة تجانبها جمهرة من مساكن القوم ، وفى ظنى أن مستقبل تلك المتسعات وقف على الفلاحة والزراعة ، إذا ما زودت بوسائل الرى والأيدى العاملة ، وإقليم كنيا



(شكل ٥٩) بعض أردية الحرب عند الماساى

رغم غناه المفرط فى خصب التربة ، ووفرة المطر ، وكثافة النبت ، نادر السكان ، ولعل أغنى بقاعه بالنبت والخصب الأخدود الأعظم ، لذلك كنا نرى كثيراً من المساكن تجاور المحاط على خلاف الهضبة بين ممباسا ونيروبى التى كانت موحشة خالية من الأهلين ، وكان نصيبنا من الحيوان الوحشى هنا قليلا .

دخلنا كيسومو : فتجلت مياه ڤكتوريا على بعد فى لونها الفضى ، وامتدادها الرهيب ، ووقف القطار إلى جانب السفينة (Clement Hill) ، والمدينة قرية صغيرة ، بها طريقان واسعان ، عليهما الدور والحوانيت ، وغالب أزقتها تطل على البحيرة فى انحدار لأنها تقع على إحدى ربى خليج (كاڤروندو)



(سكل ٦٠) بعض زينة الشعر عند أهل كنيا

وهو شعبة من البحيرة كأنه رأس الحيوان تحف به من جميع نواحيه نجاد مغضنة ، والمدينة قد فقدت اليوم شيئاً من شهرتها التجارية ، لما أن فتح الطريق الحديدى إلى جنجا وكامبالا رأساً ، على أنها لا تزال المرسى الرئيسى لبواخر البحيرة التى نقلت قطعها بسكة الحديد وركبت فى حظائرها التى تعد أعلى مراسى للسفن فى الدنيا ، وأول باخرة وصلت فكتوريا أرسلت قطعاً لا يزيد وزن الواحدة على قنطار ، نقلت كلها على كواهل الناس من ممباسا مسافة ٦٠٠ ميل ، وكانت حمولتها ٦٨ طناً ، فصور مبلغ المشقة والنفقات إلى هذا الأخطار التى تعرضت لها القافلة من الوحوش والقحط ونضوب الغذاء .

وقد كانت السفينة تحمل وسقها من الأغنام والخنازير ومنتجات الألبان ، والمدينة تموج فى المساء بأسراب حيوان اسمه (Impala) كالغزال الصغير تسير قطعانه بجانب المارة كأنها مستأنسة . ويواسى بعضها البعض ، وحدث مرة أن ضرب واحد منها فجرح وفر . وعدا معه اثنان الى جانبه ليعاوناه على المسير . هنا بدا الأهلون من قبائل كافرندو أبعد عن الهمجية التى لمسناها فى سكان الأخدود ، يلبسون الأردية فى جلابيب فضفاضة من قطن ولا يكثرون من التزين بالمعادن

والخرز وهم أقوياء بواسل ومستمد رئيسى للعمل وهم من أكثر الهمج عفة يحكمهم زعماء أشداء وعديدهم يناهز المليون ، والضباط والبوليس يلبسون الطربوش الأحمر تتدلى منه خصلاته الثقيلة .

فكتوريا : قمنا إلى أوغندا نشق عباب مياه خليج كافرندو الذى ظلت شواطئه تبدو فى سلاسل جبلية وطيئة تكسوها خضرة خفيفة ، وكان لون الماء عكراً زيتياً تشوبه حمرة خفيفة كأنه ماء النيل إبان الفيض .

(شكل ٦١)
زينة الآذان والأنوف عند قبائل بوركانا

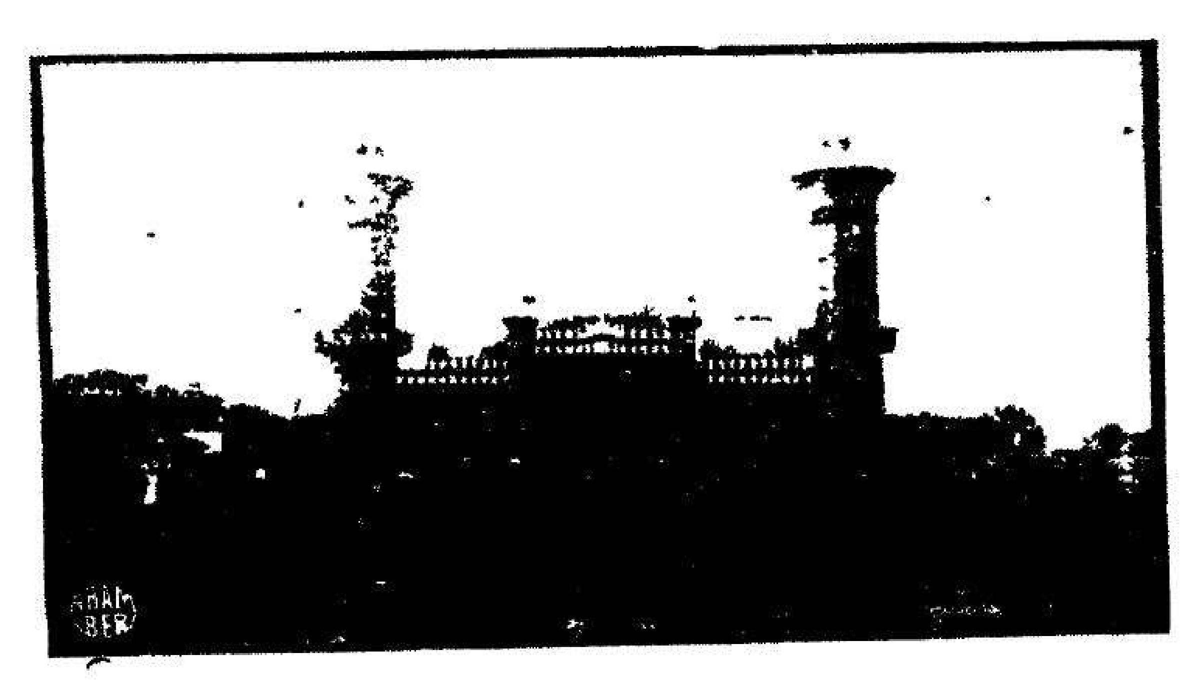
ولقد كان الجو صحواً والشمس محرقة والحر قانظاً ، ولما أن تحركت الباخرة أنعشنا نسيم البحيرة البليل ولبثنا نشق خليج كافرندو زهاء خمس ساعات (٥٠ ميلا) وقبيل المنفذ أخذت المخاريط الخامدة الصغيرة تتقارب حتى خيل إلينا أن البحر مغلق لا منفذ له لكن ما ابثت تلك المخاريط تنشق إلى جزائر جرانيتية صغيرة يتلوى الماء خلالها وهى جميعها تكسوها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود ، وقد بدا للخليج منفذان رئيسيان مختنقان سلكنا سبيانا إلى الأيمن بين منثور الجزيرات الساحرة ، وما كدنا نجوز آخرتها حتى دخلنا بحر (النيانزا) المائج الخضم الذى غابت عنا شواطئه وصفا ماؤه فى خضرة زيتية مستملحة ، وهنا فقط كان الفرق



(شكل ٦٢) ما أقسى ما يعانيه القوم في تجميل شفاههم هكذا

بينه و بين المحيط بمسافة صافى الزرقة . وقفت أجيل النظر في تلك العظمة وشعرت بالغبطة الكاملة حيث تحقق حلم كنت أحسبه خيالا بعيد المنال هو أن أرى فكتوريا نيانزا التى ندين لها بروحنا وحياتنا لأنها المنبع الثابت لنيلنا الخالد العتيد ، وما كان أحلى مغرب الشمس وقد صوبت إليها رياشها الذهبية من خلال كومات السحب وقبل أن تنفذ إلى الصميم منا دفعتها صفحة الماء عاكسة إياها في توهج يسحر اللب ، وما كادت تغرب الشمس حتى انطفأت تلك الألوان الجذابة وخيم الظلام الرهيب شأن سائر البلاد الاستوائية التى ينطفئ فيها ضوء الشفق عاجلا ، ولقد أنصف القوم في تسميتها (نيانزا) ومعناها البحر فهى ٢٥٠ × ١٥٠ ميلا أو ٦٨٠٠٠ ك م٢ تطوفها الباخرة في خمسة أيام كاملة وهى تغاير سائر البحيرات في أن شواطئها مدرجة وليست مشرفة تكسوها الخضرة التى تعرفنا من نباتها البردى والبشنين ، وإذا ما هاجت وغضب ماؤها اقتلع منها كتلا كنا نراها طافية .

استقبلنا مشرق الشمس بألوانه القاتمة الجميلة (و پورت بل) قبالتنا وهى ثغر

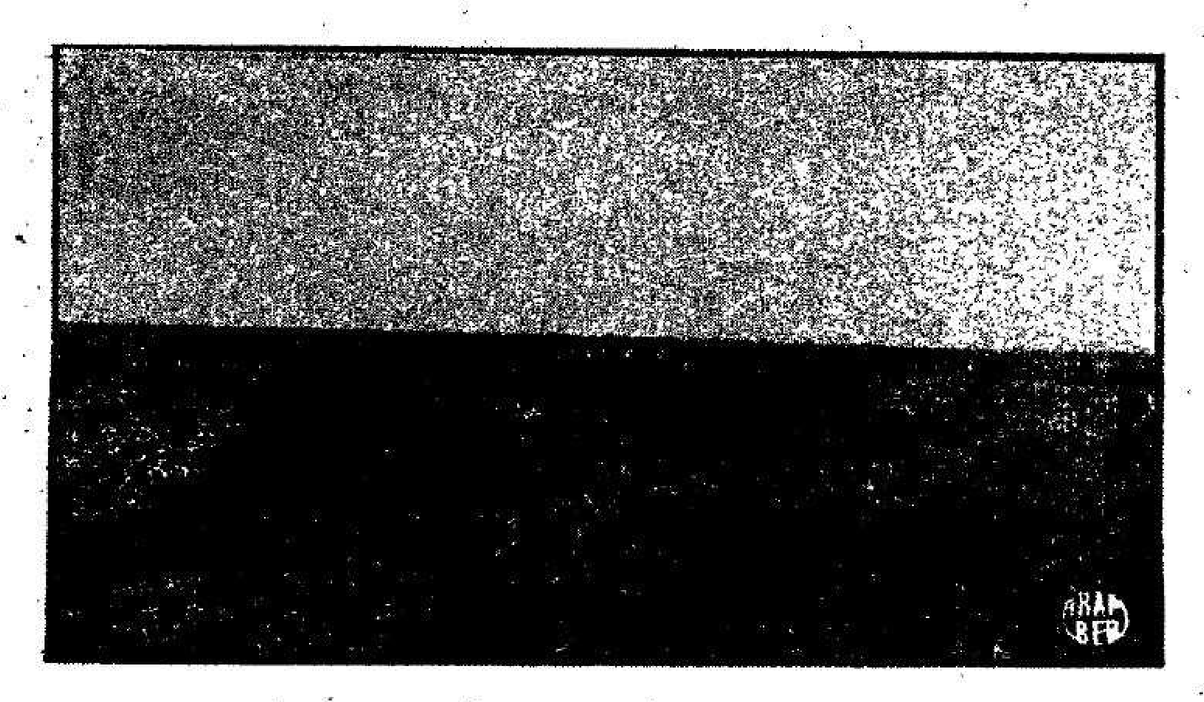


(شكل ٦٣) مسجد هندى على نمط تاج محل فى نيروبى

صغير أقيم على البحيرة ليصلها بمدينة (كامپالا) العاصمة التجارية لأوغندا وهى ليست مدينة بل مجموعة مراسى وأرصفة عليها أشرطة سكة الحديد التى تمتد سبعة أميال إلى كامپالا .

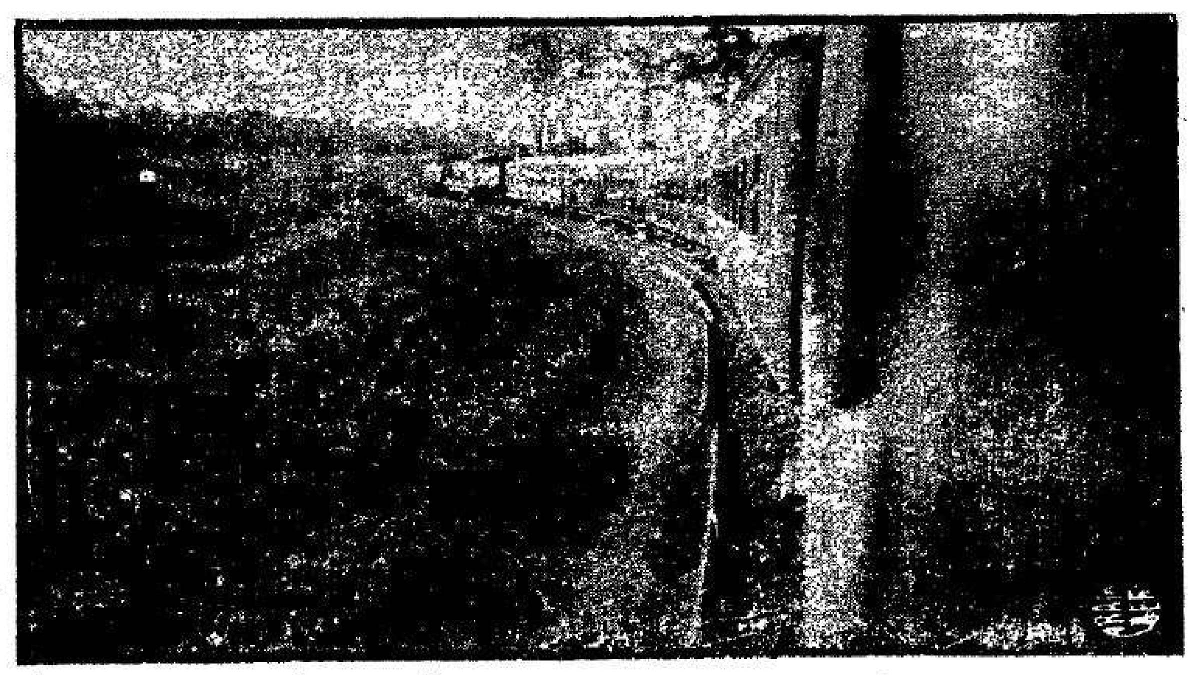
هنا انتقلنا إلى القطار فسار بنا وسط مدرجات فكتوريا التى كان يكسوها البردى والغاب والقصب الكثيف ويغطى أجوان البحيرة العديدة أطبق البشنين ونوره الكبير ، وكنا بين آونة وأخرى نبصر بجمهرة من الأكواخ زرع القوم حولها بعض الخضر وأشجار الموز حتى وصلنا محطة كامپالا .

كامپالا : أخذت أصعد فى طريق متلوية أدت بى إلى النزل فنظرت من حوله وإذا الوهاد والنجاد لا حصر لها تكسوها جميعاً الغابات والأحراش ، وتتناثر عليها المبانى الحديثة فى سقوفها المنحدرة من صفائح الزنك وا كل فى طابق واحد ، وفوق ذروة كل ربوة بناء شامخ ، والمنظر حول كامپالا ينم عن مناظر أوغندا كلها تلك التى أطلق عليها ستانلى (لؤلؤة إفريقية) فهى مجموعة من تلال محدبة ذراها مسطحة بينها وديان تسدها الخضرة وتفاجئك المياه بكثرة وعلى خير



(شكل ٦٤)   قطعان الحيوان عند الأفق فى حرم الحيوان

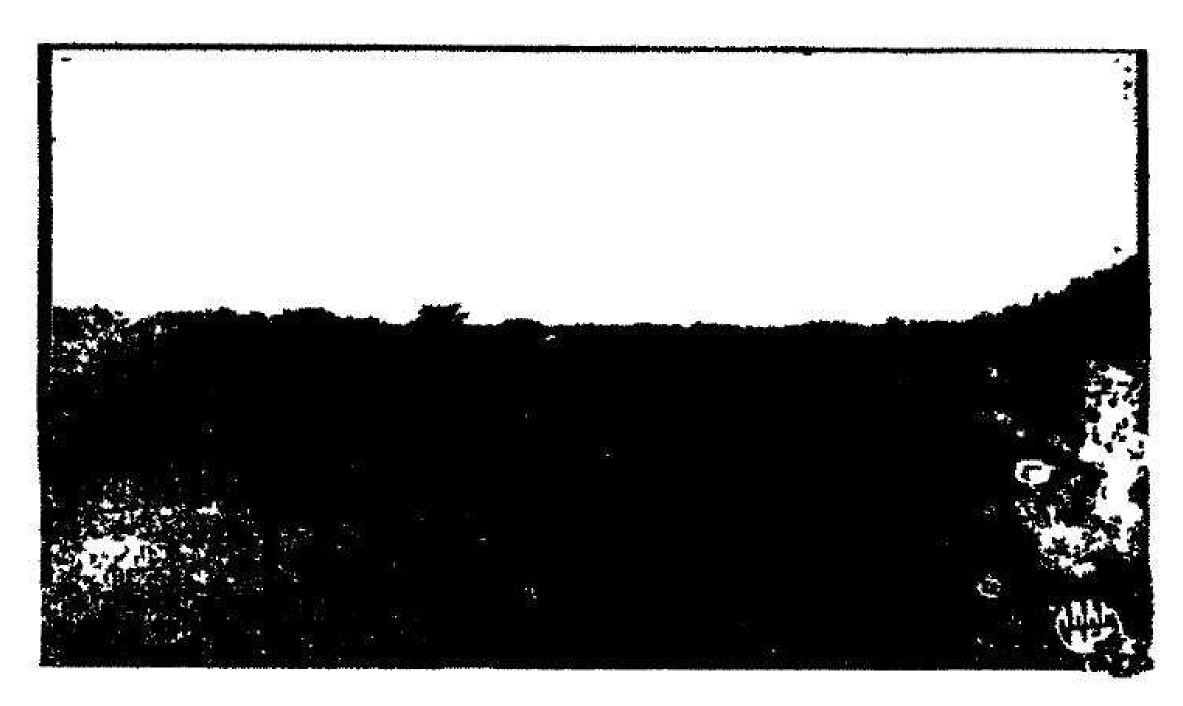
انتظار ، والمدينة مقامة على سبعة تلال كما بنيت روما لكنها أبعد جمالا وأغنى روعة تتصل كلها بطرق متلوية تهوى تارة وتصعد أخرى إلى مئات الأميال فى رصف بديع وهى تشق جزءاً من إفريقيـة كان إلى أمد قريب مجهولا مغلقاً ، ارتقيت أعلى تلك التلال واسمه تل ناميرمبى (Namirembi) ومعناه تل السلام تتوجه الكاتدرائية الانجليزية وفيها أقيمت أول صلاة مسيحية هناك سنة ١٨٧٧ ودمرت تماماً بعاصفة سنة ١٨٩٤ ، ثم جددت بعـد عام لكن السماء الغاضبة نسفتها بعاصفة سنة ١٩٠٠ والكنيسة الفاخرة الحالية أتمت سـنة ١٩١٩ ، وإلى مقربة من المكان (تل كاسوبى) تتوجه المدافن الملكية وأروع مارأيت منهـا مقبرة الملك (موتيزا Mutesa) وابنه المـاجن (موانجا Mwanga) والد الملك الحالى وبجوار المدفن الطبل الأعظم (موچا جازو) الذى كان يدقه رئيس الجلادين (موتا مانياج) كلـا أرادت آلهة القبيلة (لوبارى) الفظيعة بعض الذبائح البشرية (كيوندا Kiwenda) طوع عادتها الدموية القاسـية ، والمدخل قبو يحوطه سور من جدل الغاب الأنيق تتوسطه ردهة مستديرة تقوم حولها



(شكل ٦٥) القطار ينزل بنا إلى الأخدود الأعظم

مساكن الحراس ، وفى المقدمة المدفن وهو كوخ فاخر مستدير ، يقوم على عدة عمد مزركشة ، ومن جذوع الشجر وفى قراره المقبرة تصف عليها الحراب البراقة وإلى يمينه مدفن ابنه موانجا وإلى جوار حظائر المدفن مسكن أخت (موتيزا) وحاشيتها فى أكواخ كبيرة تحوطها أسوار الغاب ، وكم خضبت أرجاء هذا التل دماء الأبرياء من بنى الإنسان ، وكانوا يقدمون زرافات كقرابين فى عهد ذاك الطاغية .

نبذة عن تاريخ أوغندا والطاغية موتيزا : أول من رأى أوغندة من الأوربيين (سبيك) لكن تجار العرب كانوا يعرفون البلاد حق المعرفة قبل ذلك بزمان بعيد ، ولقد دهش سبيك لأنه بعد أن سار من الساحل عند زنجبار بين أقوام من العرايا الهمج رأى أهل أوغندا يلبسون الأنسجة المختلفة حتى أنهم استنكروا أن يروا حمار سبيك يبدو عاريا ، وقد لاقاه الملك موتيزا وأكرمه ، وكان طاغية قاسياً له سبعمائة زوجة ومائة وخمسون من الأبناء ، وقد رحب بالأجانب ظناً منه أنهم سيزيدون البلاد علماً وقوة واعتنق المسيحية وطالب



(شكل ٦٦) بحيرة ناكورو وسط الأخدود الأعظم

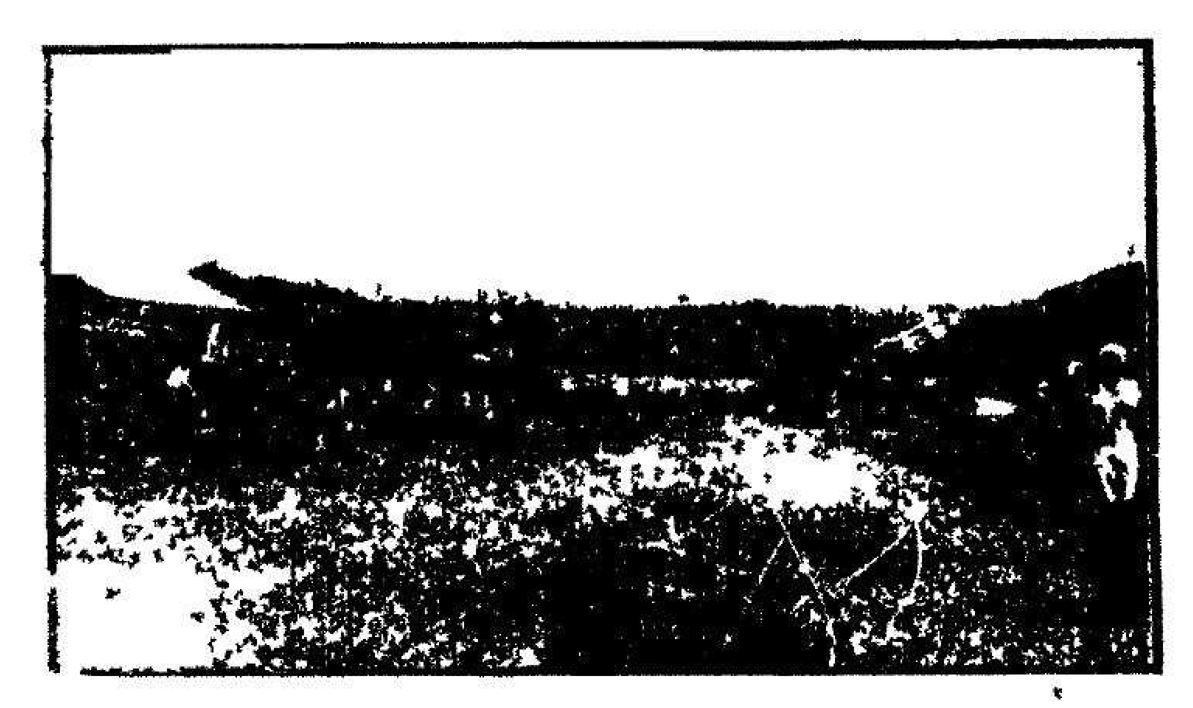
أن توفد إلى بلاده البعوث الدينية ، ولما مات موتيزا سنة ١٨٨٤ قيل إنهم قدموا على مقبرته خمسمائة من الضحايا البشرية ، وقد كره ابنه موانجا المسيحية وشجعه العرب على ذلك ، وكان شيع المسيحيين هناك فى شقاق مستمر فأخذ موانجا فى إحراق كل من يعتنق المسيحية أو يلقيه طعاماً للتماسيح ، لكن بعض قومه ثاروا عليه فهرب ، وأيد العرب أخاه ملكا لنشر الإسلام ، لكن أسرع المسيحيون واستنجدوا بموانجا الذى حارب العرب وخذلهم ، وأيده المبشرون بالمال والرجال حتى كانت سنة ١٨٩٠ فأمضيت معاهدة بين انجلترا وألمانيا ضمت بها أوغندا لانجلترا ودخلها (لوجارد) حاكما فاتحاً بجيش من السودانيين وأهل زنجبار ، وهزم العرب على مقربة من (كوار) سنة ١٨٩١ فى مقاطعة آنكرلى ، ولما أمن المسيحيون خطر العرب اقتتلوا ثانية (الكاثوليك الروم ضد البروستانت) وكان لوجارد يتعقب فلول جنود أمين باشا السودانيين فقتل بعض البروستانت بيد الكاثوليك الذين ساعدهم موانجا ، فقامت الحرب بين الفريقين طويلا ، وأخيراً



(شكل ٦٧)
سكة الحديد إلى فكتوريا وهى هنا تعبر خط الاستواء ثلاث مرات بلياتها العجيبة

رفع العلم البريطانى لأول مرة هناك ، ومنح المسيحيون من الفريقين امتيازات كثيرة ثم طالبت الشركة التجارية البريطانية فى شرق إفريقيـة بامتلاك البلاد وقرر البرلمان البريطانى إخلاءها ، لكن عاد فعدل عن ذلك .

وفى سـنة ١٨٩٤ أعلنت الحماية على أوغندا ، وأطلق أيدى الكاثوليك والبروستانت معاً ليقوموا بشئون التعليم وتحويل الوثنيين إلى المسيحية ما استطاعوا وأخذت الحماية توسع أملاكها غربا وشمالا ، وفى ١٨٩٧ ثار موانجا ثانية بمعاونة المسلمين وجنود السودان وكادت انجلترا تخسر البلاد كلها لولا انتصارها سنة ١٨٩٩ وفيه أسر موانجا ونفى إلى سيشل حيث مات سنة ١٩٠٣ وأمضيت معاهدة (منجو) سنة ١٩٠٠ ونصب ابن موانجا (دودى تشوا) ملكا تحت أوصياء من أهله لأنه كان طفلا فى سن الرابعة ودفعت له بريطانيا راتباً كبيراً وتعهده مدرس انجليزى خاص . والطاغية موتيزا كان يقدسه رعاياه وكان يحكم حكم اقطاع معقد وكانت



(شكل ٦٨) الشوارع فى كيسومو تنحدر كلها إلى بحيرة فكتوريا

تقلبات أهوائه قاسية مدهشة فطالما بتر رأس زوجة لأنها نسيت أن تغلق الباب وراءه ، وكان ماجناً فكلما سمع عن فتاة جميلة حملها إليه أتباعه قهراً عنها ، والتعذيب لأقل هفوة كان شائعاً كقطع الآذان واللسان وفقء العيون وما إليها ، وكان كلما خرج جيشه دفن أمامه طفل حى إرضاء للعفاريت ، ولا يزال الباجندا أهل البلاد إلى اليوم يستهينون بالحياة ولا يستنكرون كثيراً من أعمال القسوة التى تقع تحت حسهم ، وكثيراً ما كان يجلس مواتجا ويجىء الرجل أمامه فيقطع ذراعه ثم يشوى فى النار ثم ساقه ، وأخيراً يلقى كله فى النار على مرأى منه وهو ثمل سكران .

ومن تلال كامبالا السبعة تل (منجو Mengo) مقر الحكومة الوطنية وموطن الكاباكا (الملك) ، وكان الطريق الرئيسى المؤدى إلى القصر يتدرج علوا إلى المدخل الرئيسى تجانبه الخضرة والأشجار المشذبة ، ويطوق التل كله سور شاهق من جدائل الغاب والقصب متقن الصنع أيما اتقان ، وعلى الباب يقف الجندى (أسكرى) ، وإلى داخله تقوم المبانى يميناً وشمالا بعضها حديث النظام



(شكل ٦٩)
كمبالا تقام على سبعة تلال وهناك حدى البوليس وسط شوارعها المنحدرة

والبعض أقبية وأخصاص عادية وثلاث دور الحكومة ، وفى الوسط يقوم القصر الملكى وهو قصر حديث البناء ، وأمام بابه توقد نار لا يخمد أوارها إلا يوم يموت الملك ، وكانت تزجيها الذبائح البشرية منذ نصف قرن ، وإلى جوارها رأينا طبولا تدق على الدوام إعلاماً وإرهابا ، ويقطن القصر الملك الوطنى السير دودى تشوا (Daudi Chwa) سليل ملوك باجندا . وخلف القصر بركة تعج بالتماسيح التى كان غذاؤها لحوم المجرمين الذين كانوا يلقون فيها أحياء . وعلى ربوة من تل كمبالا نفسها . زرت متحفاً صغيراً أقيم فى مكان الحصن الذى بناه (لوجارد) ورفع عليه العلم البريطانى لأول مرة سنة ١٨٩٠ ، هنا ذهب خيالى إلى عهد أمين باشا والعلم المصرى الذى ظل يرفرف فوق المكان طويلا ، ولولا غدر الزمان للبث هناك إلى يومنا هذا .

أما المتحف فصغير يحوى بعض مخلفات أوغندا من دروع وتروس من الخوص والجلد ، وأسلحة من حراب وقسى وطبول وأدوات موسيقية ساذجة وبعض زينة المحاربين وما إليها ، وبجوار السجن تقيم عجوز شمطاء هى ساحرة شهيرة اسمها موواموزا كانت فى مقاطعة كيجيزى قرب حدود الكنغو ولكثرة ما سببت من شغب وإرهاب نفتها الحكومة إلى هنا ، وهى تخصص لها وتخدمها



(شكل ٧٠) الزى القديم والحديث فى كامبالا

وأتباعها من حولها رواتب شهرية ، بها تعيش فى رخاء ، وذلك اتقاء شرها وسيطرتها على أذهان السذج من دهماء العبيد .

وكامبالا هى العاصمة التجارية لأوغندا ، أما العاصمة السياسية فهى :

عنتبة : (ومعنى الكلمة الكرسى) فهى تشرف على البحيرة بثلاث شعاب كأنها الكرسى ، وهى مدينة فاخرة آية فى التأنق على أنها صغيرة جداً ، ويكاد يكون كل قاطنيها من كبار الموظفين الأجانب وتسترعى النظر بها متنزهاتها اللانهائية وحديقة للنبات هائلة بها جل فصائل الشجر والزهر وبخاصة الاستوائى ، وقد وصلناها بالسيارات من كامبالا فى أقل من ساعتين ، وكامبالا تعلو البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم والجو فيها جميل جدا أميل إلى البرودة والسماء صافية فى العادة قبل الظهر أما بعده فتكاد تحجبها الغيوم التى كثيراً ما ترمى وابلا ، أذكر منها عاصفة عاتية ظلت ساعة كاملة والماء يتهاطل كأنه من أفواه القرب وكان ضجيجه إلى جانب قصف الرعد مرعباً مزعجاً مما جعلنى أفهم معنى الأمطار الاستوائية مع أنى كنت

هناك فى غير موسم المطر ، والأقليم يشعرك بعظمـــة الغابات أينما طوحت ببصرك ، أما الطيور بديعة اللون فلا تحصى ولا تخبو زقزقتها وتغريدها لا ليلا ولا نهاراً . وفى المساء وسط ظلمة المدينة الحالكة ترى الحصرة تنتشر فيها نجيمات تتلألأ وتنطفئ فى كثرة هائلة وهى اليراعة الطائرة(fire fly) التى أزعجتنى أيما ازعاج لأول مرة رأيتها وكنت فى الطريق وحيداً حينما لاحظت عدداً منها فوق قمة أحد تلال النمل وما كدت أمار بها لأعرف ما هى حتى هبت منها عاصفة فى وجهى وكأنها نار قد انفجرت .



(شكل ٧١)
أمام مقصورة موتيزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية

والأهلون من السود يتجمع عالبهم حول تل منجو مقر الملك وغالبهم من شعوب (الباجندا) يلبس كثير منهم أردية بسيطة من قشر شجرة اسمها Bark cloth tree) ينزعون قشرها اللبنى بعناية ، ثم تنقع قطعه فى الماء وتنشر وتدق بالمطارق حتى تصبح ناعمة طرية خفيفة ، والشجرة منتشرة فى كل أوغندا ، وأعجب ما فيها أنك إذا قطعت جذعا ودفنته فى الأرض ينمو شجرة بمجرد نزول المطر عليه ، وإذا سلخ الجلد وجب تغطية الجذع بورق الموز وقاية له حتى يظهر الجلد من جديد وجلد المرة الثانية أدق ألياقاً وأكثر نعومة وجودة من جلد الدفعة الأولى ، وقد



(شكل ٧٢) أمام مدفن موتيزا الطاغية وابنه الأجن (موانجا)

بدأوا يلبسون اليوم جلابيب القطن ، والباجندا هؤلاء أهل جد وذكاء وكبرياء ، يفاخرون بأن منشآتهم سابقة للإنجليز الذين لم يزيدوا على نظمهم فى إدارة البلاد شيئاً ، وقد كانوا طعمة لتجار الرقيق قديماً أكثر من غيرهم ، ويمتاز الواحد منهم على أهل كنيا بأنه منتج وأنه سيد نفسه فى مزارعه ويرجى على يديه تقدم زراعى خصوصاً فى القطن وأوغندا تعد ثالثة بلاد الامبراطورية البريطانية فى انتاجه ، وهم أسرع من غيرهم فى التمدين ، بدأوا يلبسون الملابس الإفرنجية ويعبدون الطرق وينظفون المساكن ويركبون الدراجات التى كنت أراها مطية الجميع فى مزارعهم وأكواخهم من الخوص والغاب والطين ، بعضها مربع والبعض مستدير ، وغالبهم لا يدين بدين خاص ، إلا أن أثر المبشرين المسيحيين واضح جداً فهم أول من حل البلاد من البيض ، دائبون على الدعاية الدينية ، وقد ضموا لهم طائفة كبرى من السود الذين كنت أراهم يسيرون والصليب الفضى يتدلى من صدورهم ، ومئات منهم يؤمون الكنائس يوم الآحاد ، أما المسلمون فقليلون إلا من الهنود الذين يحتكرون المتاجر ويحتلون أكبر أحياء المدينة ، وللقوم لغتهم الخاصة ، على أن



(شكل ٧٣) مدخل البيت الملكى (كاباكا) فى كامپالا

السواحلية لا تزال لغة التعارف بين المتنورين من القبائل المختلفة .

هذا وجمال الطبيعة حول كامپالا يأخذ بالالب ، طفقت أتجول كل يوم سيراً على الأقدام خلال تلك النجاد والوهاد تطربنى أصوات الطيور وتقر عينى بألوانها إلى الآلاف المؤلفة من الزهور فوق الشجر ووسط الكلأ فى فصائل لا يحصيها العد ، وتطير حولها مجاميع الفراش كبير الحجم ، وعجيب أنى كنت أرى كل فراشة لا تحط إلا فوق زهرة تحكيها لوناً ، وقد كنت أقصد إزعاجها فتطير ، ثم تعود إلى زهرها دون أن تخطئ . وكان الطير يفعل ذلك إلى حد ما ، وكم كنت أحاول ترك الطريق المعبد لأشق الأحراش والغابات اختزالا فتخونني لباتها وأظل أسير فلا أهتدى إلى غاية ، كلا ولا أعرف حتى المكان الذى طرقته ، أذكر ليلة أنى خرجت عصراً صوب تل الملك فأوغلت فى الغاب ظناً منى أننى أستطيع تحكيم ملكة الاتجاه ، فما لبثت أن ضللت وسط تلك الغابات الرهيبة الموحشة إلى الثانية صباحا أعنى الليل كله تقريباً ، حتى فاجأتنى ناعورة سيارة سلكت سبيلى جرياً إليها وإذا بى فى طريق شق خلال الغابات ، ولن أنسى

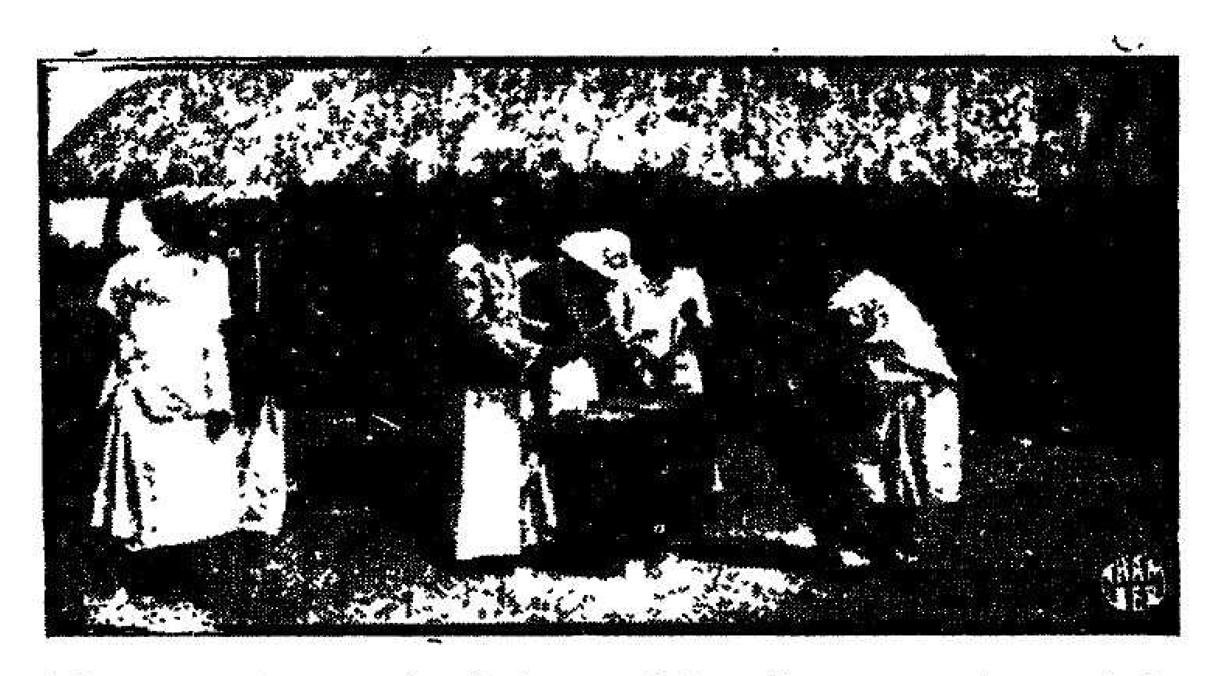


(شكل ٧٤) المقصورة الملكية فى أوغندا

مبلغ الذعر كلما سمعت حركة وأنا جالس أستريح فى وحشة الليل الرهيبة ، على أنى علمت بعد أن الوحوش والحشرات قد قلت هناك جداً لقرب الغابات من مواطن الإنسان .

أما الأهلون فشديدو الملاحظة يتعرفون طريقهم حتى وسط الشجر الكثيف ، وكان النساء نشيطات فى الزراعة يتعهدن الموز والبطاطا والتابيوكا وكلهن يلبسن الملاءات الملونة تدثر الجسم كله من أسفل الصدر أما ما فوق ذلك فعار ، ويسترعى النظر الحزام الذى يلف من فوق العجز إلى ما تحت السرة وهو مدلى من الأمام فيساعد على انبعاج الصدر والبطن إلى الامام وانتفاخ العجز إلى الوراء فتبدو السيدة مضحكة فى مشيتها خصوصاً إذا كانت من قبائل (باهيما) رعاة البقر المشهورين فى انكولى غرب البحيرة ، وآية التجمل لديهن السمن المفرط الذى تسعى إليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير ، وهم يتخذون من شعر الفيل أساور وعقودا رجالا ونساء ويدهنون رؤوسهم بروث البقر ، فاذا سألت أحدهم عن تلك العادة القذرة أجابوا بأنهم لو نظفوا أنفسهم نفر البقر منهم فهو لا يتبع إلا الجسوم الملطخة بفضلاته ، والعجيب أنهم يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية المسودة على من حولهم ، وأعجب ما فى أبقارهم قرونها التى يهولك امتدادها

وكنت أرى آلاف المخاريط التى يسمونها (تلال النمل) يسكنها النمل



(شكل ٧٥) عند مدخل القصر الملكى تدق هذه الطبول صباح مساء رهبة وإزعاجا

الأسود والأبيض فى حجم بالغ وتراها من داخلها مثقبة فى سراديب متلوية والنمل هناك آفة خطيرة تفسد كل شىء فى الغابات والمساكن ، وهم يتركون النمل يبنى مخاريطه التى تراها تصف على جوانب الطرق ووسط الغابات فان تعرضوا لها لجأ النمل إلى إقامتها تحت المساكن بعد نخرها ، فلا تلبث المساكن أن تنهار ، وهذا النمل أعمى لا يبصر ويبنى له حواجز على جذوع الشجر فى الغابات ليأمن السقوط إذا تساق وهذه يقيمها من الطين الذى يحمله فوق رأسه ويلصقه بالجذع بمادة صمغية من افرازه وينخر الشجر ويأكله .

والكساد المالى كان يبدو مجسما فى أوغندا كما بدا من قبل فى كنيا وسائر بلاد جنوب إفريقية وشرقها ، فكثير من الدور والحوانيت خاوية الوفاض تعرض للايجار ومئات منها آخذ فى التصفية ودخل الحكومة آخذ فى النقص السريع ، خصوصاً دخل السكة الحديدية والبواخر لذلك اختصرت كثيرا من القطر والبواخر وتفكر فى الاستغناء عن بعض الموظفين كما استغنت عن كثيرين من قبل وأنقصت المرتبات جميعاً ، وهاهو نزل سافوى ثانى أنزال المدينة يبيع متاعه ،



(شكل ٧٦) التمساح لوتمبي حبيب النداء

وسيغلق أبوابه آخر الشهر ، ولم يكن به من النزلاء غيري أنا ورحل آخر مما أفقدنا روح الاجتماع ، فكنا نتناول طعامنا ونأوى إلى مخادعنا حاسة كأننا خجلون مما نحن فيه من وحشة ، على أن الأهلين لا يخشون ذلك الكساد لندرة حاجياتهم ولتوافر طعامهم الفطرى من منتجات الغابات التي لا ينضب معينها .

وفى ناحية من كامالا تبعد عنها بنحو أربعة عشر ميلا وتطل على البحيرة مكان يسمونه لوتمبى (Lutambe) أى التمساح قصدناه فكان الطريق إليه يهوى وسط المزارع والغابات الكثيفة المتشابكة المظلمة ومشهد البحيرة ساحر بجزائرها الصغيرة المنثورة وتغضن الساحل الذى يحفه نبات الماء فى كثافة مشتبكة وبخاصة البردى والبشنين والحلفاء وكثيرا من الأشجار والشجيرات وكان بعض الشاطئ مدرجا والبعض صخريا مشرفا فى حمرة قاتمة من نسيج الجرانيت المحبب ، وعجيب أن كانت تنمو خلاله الأعشاب وبعض الشجر ، وهذا المكان يدين بشهرته الذائعة لتمساح ضخم عتيق من بين آلاف التماسيح التي تغص بها البحيرة .

وقف زنجى هناك على الشاطئ وأخذ يناديه وهو يصيح بأعلى صوته قائلا :



(شكل ٧٧) ينادیان التمساح لوتمبی علی بحیرة فكتوريا

(لوتمبي باد يالوتمبي يابجوكوو) مرات حتى سمع التمساح النداء على بعد شاسع وعمق سحيق ، ووفد إلى الرجل وزحف بجواره ليأكل من يده بعض السمك ، ولبث الغلام يناديه يومنا زهاء الساعة والنصف وكدنا نيأس من ظهوره ، وأخيراً عند الغروب ظهر يشق الماء وأخذ يزحف بجوارنا كأنه أليف مستأنس يلتقط السمك الذى كنا نقدمه له وعلمنا أن متوسط ما يكفيه كل يوم مائة كيلو جرام من السمك .

ويقول القوم فى أقاصيصهم انه ظل حارس البحيرة الأمين فوق مائتى عام ويقدسه الجميع ، وفى بعض الأحيان لا يسمع النداء فيصفق له الغلام بصفائح فى الماء فيجىء إليه ويؤيدون أنه عتيق بتثاقله الشديد عند ما يظهر ويمشى على الشاطئ ، ويروون أنه نهش ذراع رجل مرة ولقدسيته اتهموا الرجل بالسرقة فأخذوا الرجل إلى الشاطئ ونادوا (لوتمبي) وطالبوه بقولهم (أرنا بحكمك الراجح إن كان الرجل لصاً أم بريئاً) وقدموا له الذراع الثانى فالتهمه التمساح ، وعندئذ اعترف الرجل بسرقته ورد ما سرق لصاحبه ، ومات بعد ذلك بزمن قليل ،



(شكل ٧٨) على ضفاف بحيرة فكتوريا حيث نقطن التمساح المقدس لوتمي

وعادة تقديس التماسيح واستئناسها ومداعبتها هكذا مصرية قديمة .

سوق كامبالا : يقوم فى بناءين متجاورين يقسمان إلى مدرجات طولية مسقفة تعرض تحتها المبيعات أحدهما للخضر واللحوم وهو نظيف جداً ، كان القوم يبيعون فيه أنواعاً شتى من الفول والجذور بعضها أخضر يؤكل طازجا ، والبعض مجفف كأنه قطع الحلوى يسحق و يباع دقيقاً ، ثم الفاكهة و بخاصة الموز فى عراجين ضخمة ويليه كثرة (البوبوز) فى حجم (الشمام) إلا أنه مدبب من أحد طرفيه ولون لبه برتقالى وطعمه حلو لذيذ ، كان يقدم لنا فى النزل نأكله بالملعقة فى طعام الأفطار ، أما البناء الآخر فقسم فيه للسمك المجفف فى شكل أغبر مقدد منفر المنظر كريه الرائحة ، و يعرض فى أحجام مختلفة من تروس قطرها خمسة سنتيمترات إلى سمك طوله المتر ، وقسم آخر مكشوف تعرض به من القنانى القديمة وعلب التبغ الفارغة وقطع من صفيح ونحاس للزينة وكلها من سقط المتاع ، تدل على سذاجة القوم وسخف عقولهم ، والزحام هنا بالغ أشده ،



(شكل ٧٩) سوق كامبالا

وكم كان يسترعى نظرى نظام التحية إذا تلاقى صديقان يبسط أحدهما كفيه متجاورين ويلمس الآخر بطنهما براحته ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهاباً وجيئة مرات وخلال ذلك يفوه كل بكلمة تحيـة تتبعها زمجرة لا بل وتأوهات عميقة طويلة ، ومن الغريب أن وجه كل منهما منصرف عن وجه أخيه ، والنسوة تمر وهى تتهادى متثاقلة لما تحمل فوق رأسها من متاع وفوق ظهرها من طفل كأنه القرد الصغير ، وغالبهم يبدون فى حرائر فاضحة اللون بين أزرق وأصفر وأحمر ، و بعضهن لا يغطين الأكتاف إلى الثديين ليظهرن زينة الوشم والتجريح الذى خلف فى الجسم صفوفاً منظمة من أدران تتعرج يمنة ويسرة ، وقد جرنى الحديث عن المستوى الخلقى هناك فعلمت أن العفة لا تكاد تكون بين الأهلين الذين لا تزال نزعتهم الحيوانية سائدة هـذا إلى تذوقهم طرفاً من المدنية التى جعلت بعضهم يسعى وراء النقود من أى طريق ، وسواء أكانت المرأة آنسة أم متزوجة فإنه يمكن استمالتها واستهواؤها عاجلا ، وكثيرا ما يرضى الآباء والأمهات والأزواج بذلك ، وقد

أيد عنـدى ذلك زيارتى لمستشفى كامبالا أكبر مستشفيات تلك الأقاليم حيث كان غالب المرضى هناك يشكون الأمراض السرية وبخاصـة الزهرى ، وقدخبرنى



(شكل ٨٠)
لا تكاد تنقشع تلك السحائب عن جبال القمر أبدا

بعض الأطباء هناك أن تلك الأمراض منتشرة فى البلاد بكثرة مروعة ، وهى تودى بحياة الـكثيرين منهم ، ولحسن الحظ أن القوم لا يخفون المرض ، بل يقدمون أنفسهم للحقن بدون خجل .

والزواج هناك من سن العاشرة والبنات يبلغن الحلم مبكرات والأب يؤثر الذرية من البنات لأنه يتقاضى عليهن مهوراً عن زواجهن ثم يأخذ الزوج عروسه ويبقى المهر الذى دفعه للأب يتمتع به ، وأخص مهرجان يقام للزواج الرقص والطبول المزعجة .

وليس فى المدينـة من وسائل التسلية أو الملاهى شىء قط على كبرها حتى ولا المقاهى أو المراقص كلا ولا الأضواء ، فاذا أقبل الليل خيم الظلام وعم السكون وسادت الوحشة المدينة كلها ، ومصابيح الطرق متباعدة ضئيلة الضوء لأنها تنار بالبترول حتى أننى كنت أتلمس طريقى ليلا وكأنى الأعمى الضرير ، لذلك كان لزاماً أن يحمل كل عابر سبيل مصباحه أو (بطاريته) كى يتعرف طريقه وسط تلك الظلمة الحالـكة .

وبالمدينـة مجموعة من شبه متنزهات فى متسعات تكسوها الخضرة ، وفى

بعضها تنمو الأشجار وعالبهـا ملاعب (للجولف والتنس والهوكى) ويتوسط المدينة متنزه صغير يعرض به مدفع حديث بعيـد المرمى لا يزال براقاً انتزع



(شكل ٨١)
أقزام جبال القمر ويبدو الأوروبى وسطهم عملاقاً

من السفينة الألمانية التى كانت تحرس ثغر موانزا جنوب فكتوريا نيانزا لما سقطت فى أيدى الانجليز سنة ١٩١٦ وأقيم إلى جواره نصب تذكارى لمن فقدوا أرواحهم فى الحرب العظمى من السود سكان البلاد ، ويخيل إلى أن كامبالا كلها متنزه جميل من أية بقعة نظرت أحاطت بك الخضرة النضرة فى أرض مغضنة إلى الآفاق ، ومساكن الأهلين من الزنوج هنا نظيفة إذا قورنت بأكواخ القبائل الأخرى إذ ترى البيت وقد استؤصلت من حوله الأشجار والأعشاب البرية وأحيط بسياج يغلب أن يكون من النبت والزهر ويكنس الناس داخل البيوت ويحرقون القمامات عنـد الغروب فى أجحار وراء البيوت تلك الفكرة التى نقلتها فرق الكشافة عن أمثال أولئكم من سكان الغابات .

الى جبال القمر : (رونزورى) : طالما حننت إلى مشاهدة جبال القمر تلك التى تخيلها — بطليموس قبـل الميلاد مستمد مياه أعظم أنهار الدنيـا نيلنا المبارك — ولقـد كان الإسكندر المقدونى يرى ذلك ، وقد سمع سبيك من العرب أن هناك جبلاً رهيباً لا يكاد يستبين لكثرة ما يكسوه من المواد البيضاء ولا يستطيع أحد ارتقاءه لوعورة منحدره ، وقد رآه بيكر فى زرقة فاترة لذلك أسماه (الجبل الأزرق) ، وفى ١٨٧٥ تسلق ستانلى جانباً صغيراً من مرتفعه لكنه لم

يكن يدرى ما يعلوه من رتفاع شاهق ، كذلك أمين باشا الذى أقام على البرت عشر سنين ولم ير قبساً منه ، ولقد تحقق لى مرآه بفضل رجل فرنسى لاقيته فى كامپالا علمت منه أن هناك طريقاً معبداً طوله ٢٠٧ ميلاً تشقه السيارات غرباً إلى فورت بورتال وهى قرية صغيرة فى أسفل تلك الجبال قطعناها فى ست ساعات خلال مناظر أوغندا المألوفة الساحرة : نجاد تنكشف منها هوى تسدها الغابات وتباغتنا النقائع

(شكل ٨٢)
أقزام السود فى غابة أتورى على رونزورى جبال القمر

فى غير حصر تغص بالبردى والبشنين وأكبرها بحيرة (وامالا) ثم جزنا تل (موبندى) موطن السحرة ورسل الآلهة (ناكاهيا) وعليه تقوم بقايا الشجرة المقدسة التى تقدم تحتها الضحايا البشرية وعند ما قاربنا (فورت بورتال) كثرت منابت البن التى تحفها من جميع نواحيها ، وهناك حللت استراحة خشبية لأمضى فيها ليلتى استأجرتها بجنيه إذ ليس بالمدينة فنادق قط لا بل وليس بها شىء إلا بقايا حصن قديم ، هنا قام إلى غربنا رونزورى يسامت السماء ويتصل بسحبها فى كثافة رهيبة أيدت فى ظنى خرافات القوم هناك أولئك الذين يعتقدونه مقر الجن ومحط الأرواح التى انسلخت عنها أرواح أجدادهم من الحكام الجبابرة



(شكل ٨٣) رعاة انكولى بأبقارهم ذوات القرون الشامخة (أوغندا)

لذلك فهم يرهبونها جميعاً ، أما الغابات حوله فتسد الآفاق سداً ويسمونها غابة (أتورى Eturi) مقر الأقزام من السود الذين رأيت بعض أفرادهم فى المدينة ولا يجاوز الواحد أربع أقدام فى الطول يعيشون على الصيد بحرابهم وسهامهم المسمومة ، لم أشف من مشهد ذاك الجبل العاتى غلة فلقد طفقت أرقبه سبع ساعات متواليات فى وضح النهار لكن لم أدر أوله من آخره : ضباب وسحاب ورذاذ ماء لا ينم عما فوقه ، ولقد قيل لى أن منحدراته و بخاصة الشمالية أكثر بقاع الدنيا رطوبة لأن مطرها يفوق ٢٠٠ بوصة ولأن نز الماء من جوانبها لا ينقطع أبداً ، ولا تكاد الجبال تبدو إلا بضعة أيام من السنة إذا ما صفا أديم الجو حولها ولا يكاد حينذاك يبدو فى لون قرنفلى شاحب تكسوه عمائم الثلج فى مساحة مائة ميل مربع وتتجلى أعلى الذرى (مرجريتا) على علو ١٦٧٩٤ قدم وهى أشد ذرى إفريقية وعورة وأصعبها تسلقاً ، وأحدث من حاولوا صعود الرونزورى (دوق أبروزى) الذى يقول فى كتاب رحلته عن وعورة الغابات هناك :

كنا لا نرى فى الأرض سوى جذوع وأغصان تسد الآفاق يكسوها الطحلب الذى يتدلى منها وكأنها اللحى الكثة المترنحة تشوه كل شىء ، وما الأدواح إلا لفائف لا يتعرف المرء أين تبدأ مطاويها و إلى أين تنتهى ، ولا سبيل إلى الورق الأخضر إلا أن تلمسته فى الأغصان السماوية ، وأنت لا ترى للضوء



(شكل ٨٤)
شوارع جنجا تنحدر كلها إلى بحيرة فكتوريا

قبساً بسبب ما يحجبه من الجدائل الكثيفة والفروع المتعانقة فى كثرة تسد كل شىء ، أما الأرض فيخفيها خليع النبت ميته وتبطنه طبقات من الطحلب الزلق اللزج قذر فى مرآه نتن فى رائحته والمكان ساكن موحش رهيب .

عدت إلى كامپالا وفى نفسى حسرة لأنى كنت أخالنى أستطيع أن أرتقيه فأشرف على سمليكى فى هوته السحيقة لكن وابل المطر ووعورة المرتقى وكثيف الغاب ، كل ذلك حال دون تحقيق ما هويت ، على أن ما رأيته يعوض ما كلفتنى تلك الجولة الفرعية من عناء ومال هو عشرون جنيهاً أو يزيد .

الى جنجا منفذ النيل : أخذ القطار يعلو بنا تدريجاً وهو يتلوى لياته العجيبة وسط أقاليم مموجة تكسوها الخضرة الكثيفة ، و بين آونة وأخرى كانت تبدو فجوات زرعت من الموز تمتد متسعاته إلى الأفق كأنه الغابات ، وقد كان علو شجره يفوق أربعة أمتار ، وفى وسطها تقوم أكواخ قليلة للأهلين ، وقد يستنبتون بجوارهم بعض الذرة والبطاطا ، وفى بعض الجهات قصب السكر الذى مررنا بأحد مصانعه الكبيرة ، على أن القصب هناك من نوع قصير العقد صغير

الأعواد ، وكانت تنكشف بعض النقائع ومسايل المياه ،وكلها تكاد تختنق بالنبت والبردى فى جمته (شواشيه) الأنيقة ، وكانت المحاط متباعدة نائية لندرة السكان هناك . وكان القطار يحمل وقوده من أرمات الخشب المكدسة فى المحاط وقبيل جنجا فاجأنا منظر البحيرة فى لونها الفضى وامتدادها العظيم وسرعان ماانعطف القطار فبدا النيل وهو يتلوى فى مخرجه من البحيرة وكأنه طيات من لجين تنفجر من قمع متلألىء هو خليج نابايون ، وقبل أن يستقيم رأيته يهوى درجة هى شلال ريبون مفتاح النيل وتتوسط تلك الدرجة صخرتان متباعدتان ينساب الماء خلالها فى ثلاث فتحات أكبرها اليمنى وتلك الصخور بدت على بعد كأنها شعاب الزمرد الأخضر ، ولما دانيتها بعد حلولى المدينة كانت صخوراً سوداء من الديوريت النارى القديم تكسوها الأعشاب الطويلة والشجيرات ، وأمام ذاك المسقط الذى يهوى بالنيل كله أربعة أمتار تكثر الشعاب الصخرية المنثورة فى غير نظام يتمايل الماء حولها ، وينزل عدة مساقط صغيرة ، هنا انثنى القطار وعبر النهر بقنطرة بحيلة يبدو مشهد الشلال والجنادل والصخور من فوقها رائعاً ، وما كدت أحل غرفتى من نزل (أبيس Ibis) الأنيق الصغير حتى تمثل أمامى منظر الشلال والنيل فأسرعت إليه سيراً على الأقدام مسيرة ربع

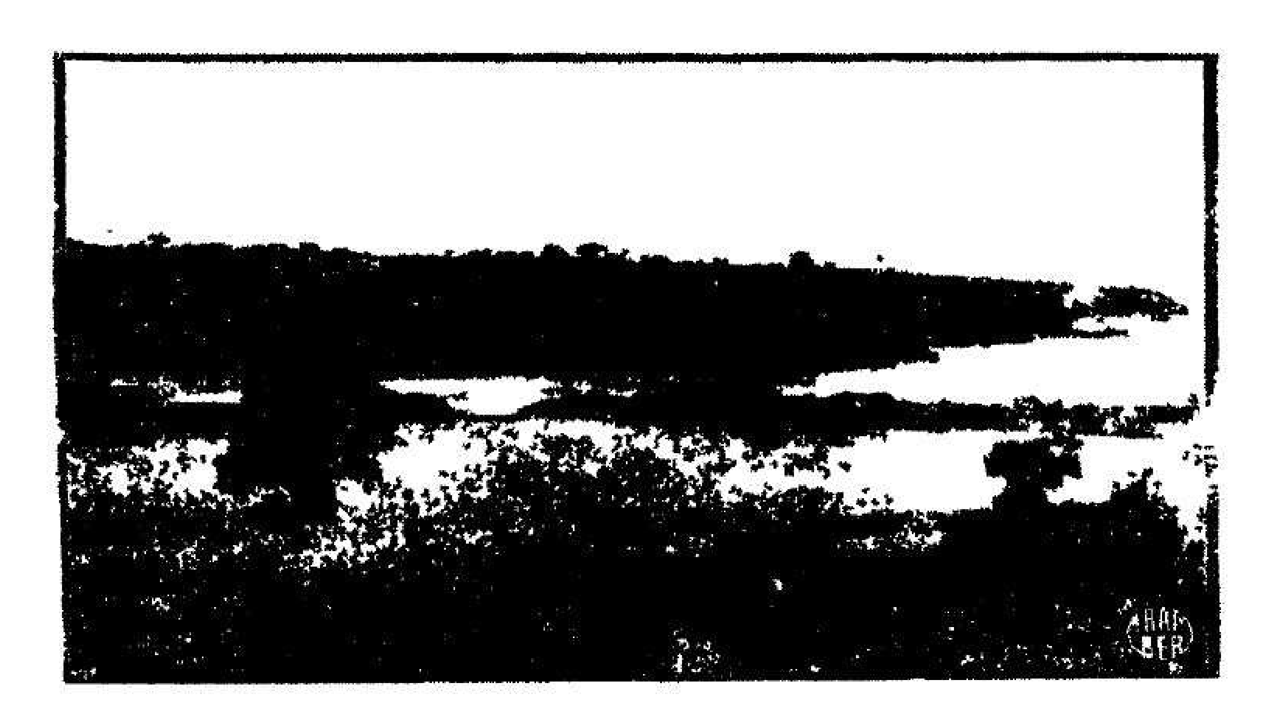


(شكل ٨٥)
تحت شجرة موتنزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية فى جنجا



(شكل ٨٦) على حافة شلال ريبون معمد النيل المبارك

ساعة ، وهناك تجلت العظمة وتوالت الذكريات ، نزلت إلى حافة الشلال فلم يسعى إلا أن أجلس معظم الوقت أنظر إلى مهوى الماء السحيق وأستمع لدويه الرهيب يظلني رذاذه ويطربني هزيمه . وكان يتجلى ماء فكتوريا عند شفا المسقط أملس ناعماً فى وسطه مضطرباً يعلوه الزبد فى جوانبه ، وبين آونة وأخرى نرى السمك يحاول مغالبة الماء بقفزاته العدة عساه يتخطى الشلال سابحاً فى الهواء إلى البحيرة لكن أنى له ذلك ودفع الماء شديد ومستواه بعيد وكأنه كان يتخذ هذا العمل ملهى له ومستراضاً ، وكان الطير يحط فوق البحيرة ثم لا يلبث يطير جماعات يتخذ كل فريق شكلا هندسياً هو إلى المخروط أو الوتد أقرب ويحوم حولنا ثم يعود فيهوى إلى الماء ، هنا سرح الخيال فى النيل ومصر ، وما كانت عليه إبان عظمتها وما تعاقب عليها من حوادث وعبر ، والنيل باق على هذا النحو طوال الأعمار ، وكنت أشعر بآيات إخلاصى تتجسم خارجة من القلب لتسابق الماء ، إلى الوطن العزيز ، منظر جدير بالتقديس ولا يزال إلى اليوم يقدسه بعض قبائل الكنغو يفدون إلى ريبون ويقدمون للنيل القرابين والضحايا ليسترضوا إله المياه



(شكل ٨٧) شلال ريبون ويرى فكتوريا إلى اليسار والنيل إلى اليمين

الجارية ويلتمسون منه الغفران ، وعلى جانب من الشلال مولد للكهرباء يسخر بعض مائه المندفع ، وتلك تستخدم فى رفع المياه للمدينة كلها ، لكنه لم يستغل فى الإضاءة لندرة السكان ، وشح الاستهلاك فى جنجا ، والمدينة نفسها متسع من الربى يشرف منحدراً إلى خليج نابليون تكسوه الخضرة النضرة والشجر الوفير ، وبيوتها فلات حديثة بديعة تنتثر مبعثرة فى مساحات شاسعة وتشقها الطرق الملتوية والمتاجر تصف على طريقين متقاطعين هما أكبر طرق المدينة ، وعلى الشاطىء أقيم مرسى للسفن كان يغص بالنقل والتجارة قبل اتصال جنجا بكامبالا بسكة الحديد ، لكنه اليوم فتر تجارياً وحمل وكان أخص ما ينقل إليه القطن أهم نبات أوغندا ، وتعنى به انجلترا هناك عناية خاصة فتعرض نماذجه فى محطة سكة الحديد ، ويزرع حول بحيرة كيوجا فى الأراضى ذات التربة السوداء ، وموسمه الشتاء ، وقد كانت تقله بواخر البحيرة إلى ناماسجالى ، ومنها بسكة الحديد إلى جنجا ومن ثم فى فكتوريا إلى كيسومو ثم بسكة الحديد إلى ممباسا ، أما اليوم



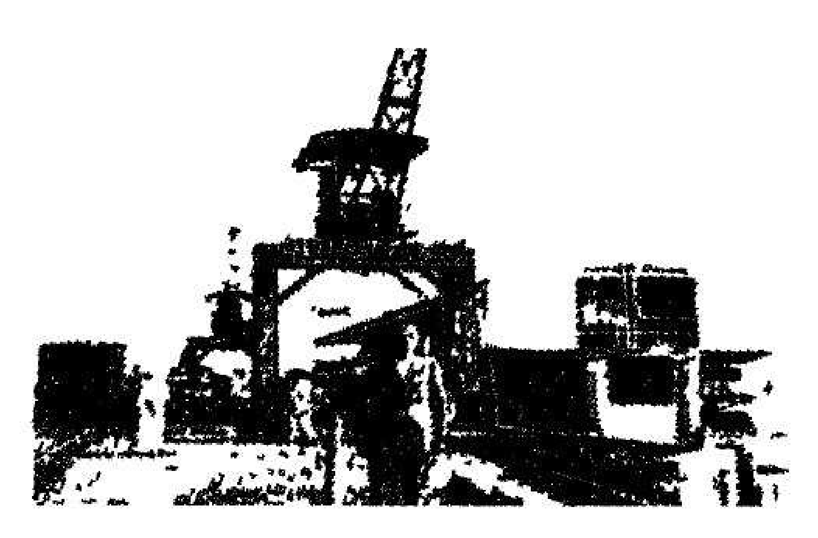
(شكل ٨٨) النيل وجنادله بعد خروجه من فكتوريا

فتقله سكة الحديد من شرق كيوجا إلى ممباسا مباشرة (وقد بلغت المساحة المزروعة فى أوغندا ٦٠٠ ألف فدان) .

وقد اتخذ الإنجليز من الأراضى الممدودة متسعات للرياضة على اختلاف صنوفها شأنهم فى جميع بلدانهم ، وعلى منحدرات المدينة المؤدية إلى البحيرة كثيراً ما تخرج مردة التماسيح وعمالقة أفراس الماء وتشاطر الناس ذاك المستراض الجميل ، على أنها كثيراً ما تلتهم عاثرى الحظ من الأهالين ، وهم يغتسلون أو يغسلون متاعهم ، حتى قيل إن التمساح يقتل من سكان إفريقية أكثر مما يقتله أى وحش آخر .

وفى ناحية من المدينة شجرة قديمة كان الطاغية (موتيزا) يجلس تحتها ويأمر بالذبائح البشرية التى طالما خضبت دماؤها تلك البقعة على مشهد منه ، وهى اليوم وسط ملعب للتنس يجتمع اللاعبون حولها مرحين كأنهم يتحدون ذاك الوحش ويتناولون الشاى تحتها .

الى بحيرة كيوجا : غادرت جنجا بسحر مناظرها نهاراً ووحشتها الفائقة



(شكل ٨٩) ستقبل الباخرة حرانت من ناماسجالى
عبر بحيرة كيوجا

ميلاً إلى ناما سجالى ، ولبث القطار زهاء أربع ساعات يشق طريقه فى صعود وهبوط ويسلك مطاوى عجيبة وأجواف غابات مهملة لم تطرقها يد إنسان فالاقليم موحش لم نكد نرى به من الأهلين أحداً ولم يقف القطار فى كل ذلك إلا أربع وقفات بجوارها جمهرة من الأكواخ حولها مساحة من الموز والبطاطا يعيش عليها قوم هم أشد سواداً ممن رأيناهم من قبل ، وتربة الأراضى حمراء ناعمة يطير هباؤها فيخضب كل شىء .

وناما سجالى : قرية لا تكاد تزيد حوانيتها على عشرة كلها فى أيدى الهنود ولها مبناء صغيرة على بحيرة كيوجا فى مكان من البحيرة اتساعه ثلاثة أضعاف اتساع النيل عندنا ، هنا حللنا باخرة صغيرة كأنها منشور رباعى طويل يتقدمها (صندلان) متلاصقان فى حجم كبير عليهما البضائع ومسافرو الدرجة الثالثة ، ودهشت لما رأيت الباخرة تدفع هذين أمامها كل رحلتها ، قمنا نشق عباب كيوجا ذاك البحر الذى يبدو ماؤه أماس مخضراً لا حراك به قط تحف جوانبه الحلفاء والبردى والغاب بمقادير كبيرة وأخذت البحيرة تنبسط فتنأى شواطئها تارة ، وتضيق وتتقارب أخرى ، وكل شواطئها مناقع ضحلة ، وكان



(شكل ٩٠) نرسو على بورت ماسندى لنستقل السيارات إلى بحيرة البرت

جو يومنا أميل إلى الحرارة رغم ما أصابنا من مطر ، على أن الليل فوق أديم البحيرة بارد جميل .

وفى اليوم التالى أصبحنا والمطر وابل ومستبحرات المياه مشعبة فى كل جانب ، وأعشاب البردى والبشنين تظهر فى جزائر سابحة فى حجم كبير وكثير من تلك الكتل من خليع النبت كان يعترض سير السفينة فينتشل بالروافع ويرمى إلى الجانب ، والسفينة مستعدة لذلك مزودة بالروافع الثقيلة فوق (صنادلها) ، وفى باكورة الصباح كانت أسراب التماسيح تمرح وسط الماء فى بقع سوداء على مقربة من الضفاف ، وكانت المنطقة الواقعة إلى يميننا تدخل فى نطاق مرض النوم ذاك الذى يعد أخطر الأمراض فى أوغندا وجنوب السودان ، والمناظر من حولنا أضحت سهولاً لا أثر للجبال فيها ، وكان النيل يختنق أحياناً إلى نصف سعته فى مصر ، و باخرتنا (Grant) كانت تترك عند مفارق الماء زورقاً بخارياً (رفاصاً) ليذهب إلى المين الصغيرة الواقعة على شعاب بحيرتى (كيوجاو كوانيا) وتلك



(شكل ٩١) يستعرض روحانه النسع راقصات — أوغندا

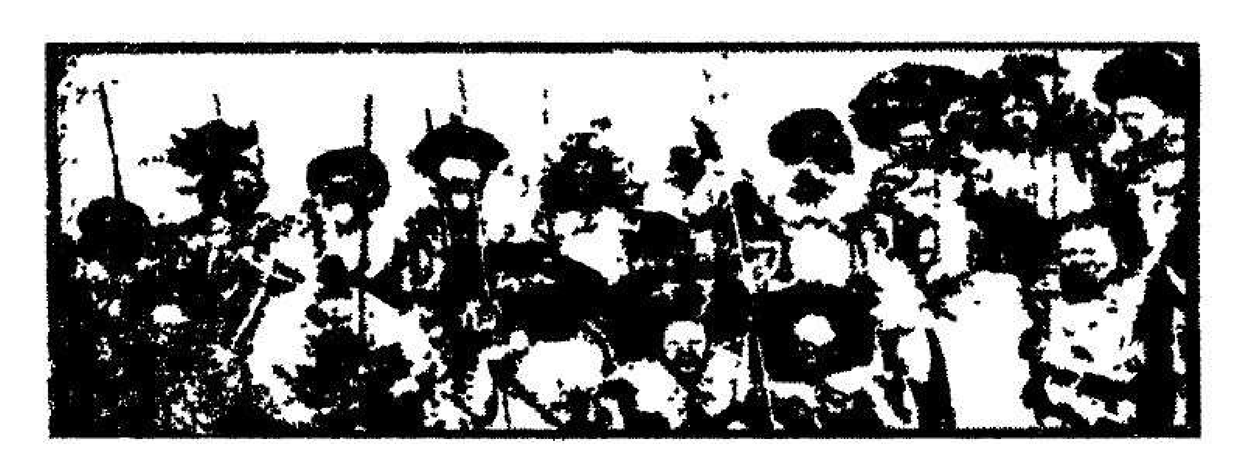
الشعاب تبدو على الخريطة لكثرتها وكأنها العنكبوت ثم تعود خفاف البواخر هذه لتلاقى باخرتنا عند عودتها ، وفى وسط ذاك المتسع اللانهائى من البردى ظهر مرسى صغير هو :

ثغر ماسندى : حوله بضعة مساكن خالية من الأهلين هنا أقلتنا سيارة المصلحة وسارت بنا ساعة ونصفاً فى طريق شق وسط البردى أولاً ، ثم وسط متسعات مبسوطة يزرعها القوم وخاصة من السيسال تليها غابات وأحراش برية لم تمسسها يد الإنسان إلا فى فجوات صغيرة بها الموز والتابيوكا حيث كنا نبصر بكوخ أو اثنين فقط ، ولما قاربنا مدينة ماسندى بدت الربى وكنا نرى الغابات يحكى نباتها المتساق الكروم تغطى الأرض كلها بأعراشها والطيور فيها لا حصر لها ، وكان الطريق نفسه يغص بدجاج غانا ودجاج الوادى البديع الذى يأكله القوم كثيراً ، أما الجو فكان ماطراً بارداً أحوجنى إلى ارتداء المعطف الثقيل . دخلنا مدينة ماسندى عاصمة (بانيورو) من أقسام أوغندا فشابهت كامبالا فى مناظرها المغضنة وفيرة النبت إلا أنها أصغر وحللنا النزل التابع لمصلحة سكة الحديد ، وهو آية فى الجمال ، والنساء هنا يلبسن ملاءات ملونة خفيفة تلف حول الجسد من فوق الثديين إلى القدمين ، ويعنون بشعرهن الذى يجدل على



(شكل ٩٢) الطريق بين ماسندى والبرت وترى شجر واتل تحته شجيرات البن

قصره الشديد فى فتائل رفيعة لكل ذؤابة لا تزيد على سنتيمترين ، ويسرن حفاة سافرات شأن جميع نساء إفريقية الشرقية ، وغالب الرجال يلبسون الجلباب من القطن على نحو ما نراه فى مصر وهم هنا خاضعون لحكومات قوية من زعمائهم الذين تمهرهم الحكومة الانجليزية رواتب مقابل قبضهم على ناصية الأمور ، وهى لا تتدخل تدخلا مباشراً فى شئونهم ، ولولا ذلك لما استطاعت الحكومة إخضاعهم أو الإحاطة بهم ، وتلك الخطة متبعة بشكل أكثر إحكاماً فى أوغندا منها فى غيرها ، وتتخذها انجلترا نموذجاً لحكم طوائف الشمال المتبربرة وتنتوى نشرها فى كنيا وهؤلاء الزعماء يعيشون عيشة بذخ افرنجيــة ويلبسون وزوجاتهم أردية أوروبية ، ولهم برلمان فى مقاطعة منجو شمال شرق كامپالا للمداولة فى شئونهم ولا تزال غالب الأعمال فى يد الهنود ، وبخاصة المسلمين منهم ، على أن جل حركة التوفير على أثر الأزمة الحالية منصبة عليهم ، وكبار الانجليز يعترفون بأن توظيف الهنود كان خطأً كبيراً فى السياسة منذ البداءة ويحاولون إحلال السود أو الأخلاط من غير الهنود مكانهم ، والتعليم تقوم به البعثات الدينية تعاونها الحكومة .



(شكل ٩٣) رقصة الفتيان فى أوغندا

أمضينا فى ماسندى يوماً وفى الغداة قمنا بالسيارة إلى :

بيوتيابا : فوصلناها فى ساعتين (٤٥ ميلاً) خلال أرض مموجة غالبها غابات عذراء تكسو أشجارها الطفيليات وتتخللها المسايل ، وفى الوهاد كانت تبدو الغابات مغلقة تماماً والطريق شق فى تربة حمراء يزيد سمكها على مترين وليس به من الأهلين أحد اللهم إلا جمهرة قليلة من السود كنا نجوز أكواخهم كل بضعة أميال ينشرون أمامها (الماهوجا) بعد تقشيرها ثم يدقونها دقيقاً فى أهوان من الخشب ، وكان بعضهم يمزج هشيمه بفتات الذرة إلى ذلك بعض الموز والسمسم والبطاطا ، وفى فترات متباعدة كانت تظهر قرية صغيرة جداً وعجبت أن كان الهنود هم أصحاب الحوانيت فيها ، وبعد منتصف الطريق كنا نمر بمزارع النزلاء البيض وبخاصة الانجليز فى مساحات أقاموا وسطها بيتهم الأنيق وقاموا يستأصلون النبات البرى ويزرعون البن فى شجيراته القصيرة وصفوفه المنسقة ووسقه الكثير ولكى يتقوا وهج الشمس عنوا بالغابات وبواسق الشجر لتحمى شجيرات البن من دونها ، وكم كان عجبى شديداً لاقدام هؤلاء على عمل شاق وحياة موحشة لا ترى حولهم من مؤنس قط لكنها الرجولة والخلق الرصين يروض النفس ويستمد النشاط والسرور من كل شىء ، وحول كل مزرعة نفر



(شكل ٩٤) رقصة الحرب فى أوغندا

من الأهلين يقومون على خدمة الأرض ، وكنا نراهم نساء ورجالاً يقطعون العشب البرى ثم يتركونه مكانه حتى يجف ، ثم يحرق حيث هو فينقى الأرض ويسمدها وكلهم يدخن فى غلايين خشبية طويلة حتى الفتيات . وما حللنا الثلث الأخير من الطريق حتى أخذنا فى الهبوط ، ثم عند الميل السادس من بيوتيابادا همنا مشهد الأخدود الألبرتى الرائع تتوسطه البحيرة فى هوة بعدها آلفا قدم بلونها الفضى تحفها سهول مبسوطة إلى مدى شاسع تؤدى إلى تلال تعلو فى نجاد وسلاسل لانهائية (وذرع البحيره ١٠٠ × ٢٥ ميل) منظر ساحر حقاً يكاد يقارب مشهد الأخدود الأعظم ، وهذا الجزء من الطريق يعد من أجمل طرق الدنيا لتنوع مناظره وكثافة غاباته وتعدد فصائل شجره نخص منه النخل وشجر الصمغ الأزرق والعشب البرى المتسلق والسرخس عريض الورق الذى منه تكون الفحم فى العصور البائدة . أما القردة والفيلة فحدث عن كثرتها . هوينا إلى تلك السهول التى اسودت تربتها بما خافته البحيرة عليها من رواسبها ، ثم جزنا مجموعة من أكواخ وحوانيت ومبان حكومية وتلك كلها مدينة بيوتيابا ولها ميناء صغيرة لا بأس بحركتها التجارية فهى حلقة اتصال بين بلاد أوغندا إلى اليمين والكنغو إلى اليسار ، وكانت جبال الكنغو تظهر فاترة وراءنا ونحن نرسو على بيوتيابانا



(شكل ٩٥) رقصة الفتيات فى أوغندا

وقيل لنا ذاك جبل (لولوجا) وهو جزء من خط تقسيم المياه بين الكنغو والبرت ، قمنا نشق عباب البرت ولبثنا نرى الشاطئين على بعد لأننا سلكنا سبيلنا إلى الجزء الشمالى من البحيرة وهو يأخذ فى الاختناق حتى يصبح بحر الجبل المتسع عقب تقابل نيل فكتوريا بالبحيرة مباشرة وعلى تلك الجبال تقع مدينة محاجى : من بلاد الكنغو ، ولها ثغرها الصغير الذى مررنا به — والبحيرة تعلو سطح البحر بنحو ٢٠١٨ قدم على أنها أحط من فكتوريا بنحو ١٧٠٨ قدم ، ماؤها أشد زرقة وطعمه أكثر تغيراً من ماء فكتوريا مما يدل على زيادة عمقها وأملاحها ، ولبثنا نسير صوب النيل وقد لزمت الباخرة الجانب الأيسر للبحيرة لأنه أبعد غوراً بسبب قربه من الجبال ، أما الجانب الايمن فوطىء تمتد وراءه السهول ، آخيراً مررنا بعدة جزائر يغطيها العشب خصوصاً البردى والبوص والبشنين الذى طالما كنا نلاقى كتلا منه طافية ، ثم دخلنا مأزقاً هو أضيق من نصف نيل مصر ، وهنا أول نيل بحر الجبل وكانت السهول الممدودة إلى يميننا جزءاً من (حرم الحيوان) لذلك رأينا بين الأشجار المتفرقة جموعاً من الفيلة أكثر الحيوان ظهوراً هنا فكان يبدو فى قطعان ولم نرها على الجانب الآخر قط لأنه خارج عن الحرم . فكأنها أنست فى حرمها أمنا ، وهذه المنطقة من أوغندا



(شكل ٩٦) فتيات علية القوم فى أوغندا

وما يليها شمالا إلى جنوب السودان وغرباً إلى الكنغو خير مناطق الفيلة فى الدنيا .

والفيل : لا يكاد يوجد جنوب الزمبيزى ، وقد أسرف الكثير فى قتله حتى قدر ما يقتل سنوياً فى الكنغو البلجيكية بستين ألفاً فى السنة ويقدر عدد الفيلة فى أوغندا بنحو سبعة عشر ألفاً ، وفى تانجانيقا ٣٦ ألفاً ، والفيل يسير فى جماعات أقلها بين ١٠ و ٤٠ وقد يبلغ القطيع مائتين ، والفيل الافريقى يغاير الأسيوى فى آذانه بالغة الحجم فهو إذا بسط أذنيه ساعة الهجوم كان طولها من أقصاها لأقصاها خمس ياردات كذلك فهو يغاير الأسيوى فى جمجمته فمخه أوطأ فى دماغه وهناك فجوة فى رأس الفيل الهندى رخوة تسبب موته سريعاً ، وهذه لا تكاد توجد فى الافريقى . والفيل من أحد الحيوان شما وأرهفه سمعاً فهو يشتم رائحة الإنسان على بعد نصف كيلو متر ولا يعادله حيوان آخر فى ذلك ، والعادة أنه يرفع خرطومه فى الهواء ليشتم رائحة عدوه ، على أن بصره ضعيف لا يرى على بعد ٥٠ ياردة حتى ولو كان الجسم على وضح الأفق ، ويعمر طويلاً إذ يزيد عمره على ١٢٠ سنة . وفى الكنغو نوع من أقزام الفيلة لا يزيد علوه على ٤½ قدم ولا يزيد وزن نابه على سبعة أرطال للذكور ورطلين للأناث ، ولقد أسرف الأوربيون الأوائل فى قتل الفيل فاختفى من مناطق كثيرة هنالك ، لكن

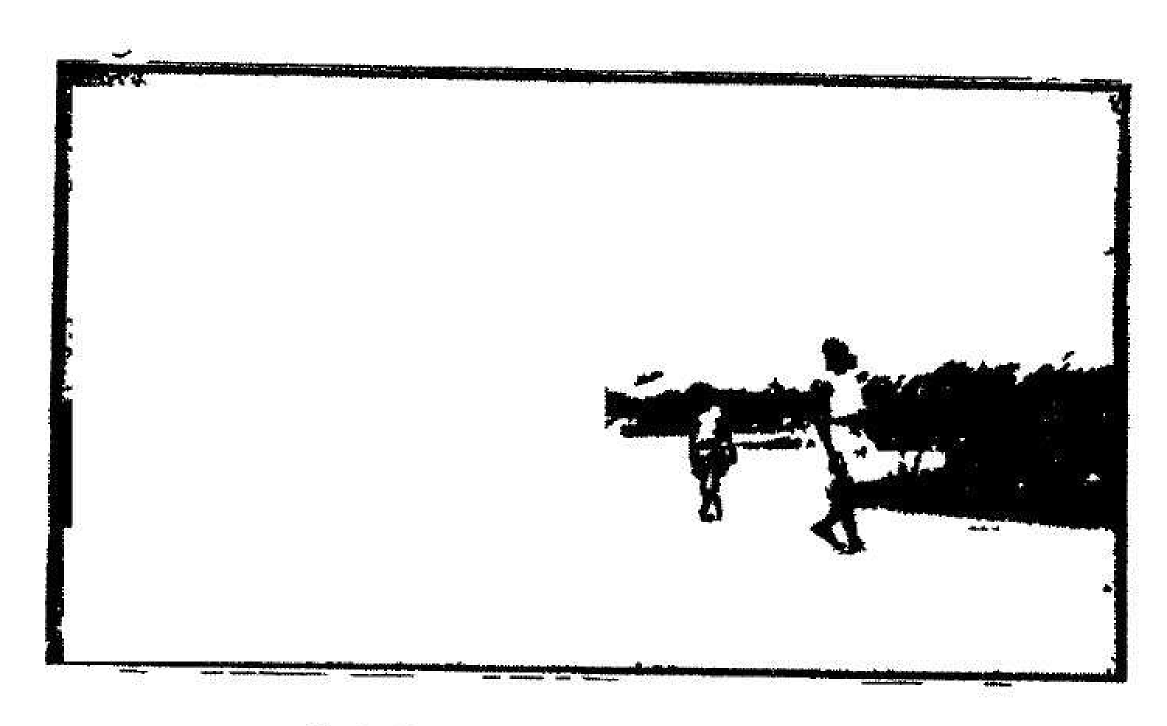
البلجيكيين اليوم فطنوا لذكاء الفيل وهم يسخرونه فى الزراعه فالزوج من الفيلة يجر أربعة أطنان بسرعة ١٥ ميلاً فى اليوم ويحرث فداناً فى نصف اليوم ، ويمتاز على سائر الحيوان فى أنه غير قابل لعدوى الأمراض وأنه يتكفل بغذائه وحده فلا يكلف صاحبه شيئاً .

وفى كثير من جهات أوغندا كثرت الفيلة لدرجة مضرة لذلك توفد الحكومة بعثات لقتلها ومطاردتها إلى المجاهل ، وحدث مرة أن طارد صياد قطيعاً وضرب رصاصة فى فيل منه فصاح وسقط إلى منحدر ولشدة الضجة اضطرب



(شكل ٩٧)
الطبيب الساحر وهو ذو نفوذ يسود أذهان الناس فى أوغندا

القطيع فأخذ الفيل الهاوى يصدم فيلاً آخر فيقع حتى وجد جمع من الفيلة أسفل الهوة وقد هشمت عظامها تهشيما ، والفيل إذا رأى عدوه أعطى إخوانه إشارة ليستمدوا وإذا قصد المهاجمة رفع خرطومه وآذانه وحدق فى العدو ثم عدا نحوه ، وهناك طير يلازمه ويحط على ظهره اسمه (Egret) وكثيراً ما يدل على الفيل إذا رؤى الطير يحوم فوق العشب فى جماعات ، ويظهر أن الطير يتبع الذباب الذى يعف على ظهر الفيلة ويضايقها جداً ، ولذلك ترى الفيل يظل يحمل العشب بخرطومه ويلقيه على ظهره ليطرد هذا الذباب ، والعادة أن الفيل إذا أصيب ومات بعيداً



(شكل ٩٨) شارع رئيسى فى بيوتيابا على البرت

فإنه يعد ملكا لمن صاده وبعد أسبوع يصبح ثلثه ملكا لمن يعثر عليه والثلثان للحكومة .

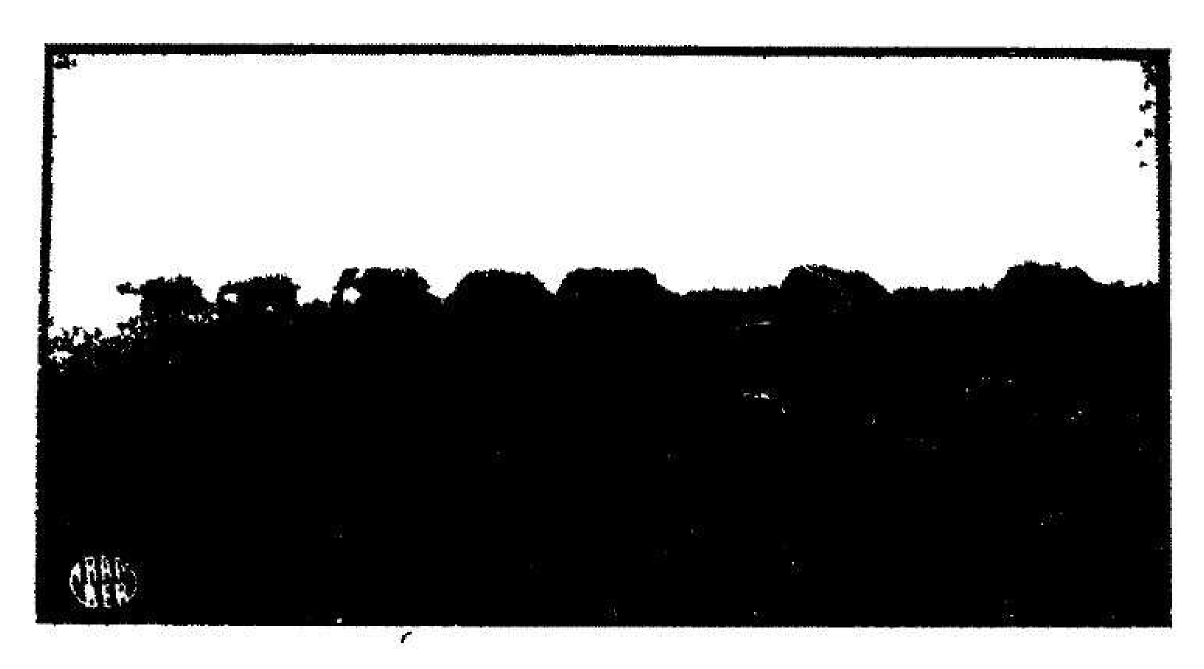
العاج : والفيل الذى يقطن الجهات الجافة التى يقل فيها الغـذاء تكون أنيابه قاسية ، على أن أجود العاج ما كان لينا ، وهكذا يكثر فى الجهات وفيرة المياه حيث تطول الأنياب ويجود نوعها ، ويندر اليوم أن نعثر على فيلة ذات أنياب كبيرة ، ونحن إذا قسمنا إفريقية من وسطها تماماً بخط رأسى كان العاج فى غرب هذا الخط أشد صلابة منه فى شرقه ، لذلك كان أجود العاج فى الشرق وأسنان الأنثى أصغر وأخف وزناً ، فسن الأنثى يبدأ من ١٥ رطلاً والذكر من ٤٠ رطلاً ويزيد ، وأثقل سن عثرنا عليه يحفظ اليوم فى متحف كنزنجتون بلندن وزنه ٢٢٦½ رطل . والفيل الكبير قد يصل علوه إلى كتفيه ١٢ قدماً وقد يزن ستة أطنان ، وأكبر الفيلة أسناناً اليوم فى أوغندا وفى أعالى النيل والكنغو البلجيكية ، وقلما يزيد سن الفيل فى السودان والحبشة على ٤٠ رطلاً ، وأكبر الفيلة أسناناً



(شكل ٩٩) بعض أبناء بيوتيابا على البرت نيارا

لا تسير فى جماعات بل فرادى ، وكثير من العاج المصدر من إفريقية مأخوذ من هيا كل الفيلة التى يعثر عليها القوم ميتة فى الغابات ، وأعلى ثمن عرف لرطل العاج الجيد جنيه ونصف ، ومن هذا تصنع كرات (البلياردو) .

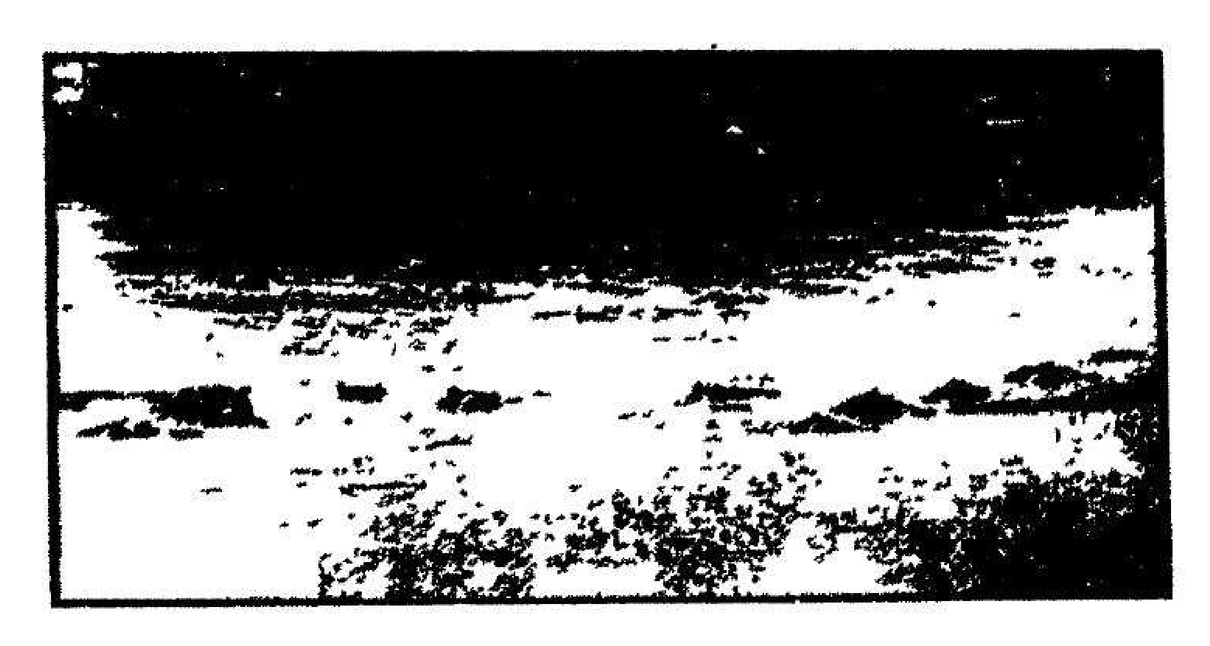
والنيل من هنا إلى منطقة السدود شمالا عاص بأفراس الماء التى كانت تنفر فى الماء بكثرة مروعة ، والتى كانت تصادم باخرتنا صدمات عنيفة ، وفرس الماء غذاء محبوب للأهلين الذين يلتهمون لحمه نيئاً ومجففاً ، وهو ثانى الحيوانات وزناً بعد الفيل ، يزن ثلاثة أطنان وسمك جلده بوصتان ، وهو أصلح ما يكون لصناعة السياط (الكرابيج) ، وكان لأسنانه قيمة كبيرة يوم كانت تتخذ منها الأسنان الصناعية ، والأنياب السفلى يصل طولها ثلاثين بوصة خصوصاً إذا لم ينطبقا على الأنياب العليا ، وأطول ناب عرف ٥٥ بوصة ، وصيده خطر لأنه حيوان مهاجم مهيب ، ويقول صيادوه إن خير مكان لقتله أن يضرب تحت العينين وخلف الأذن ، ويغلب أن تصوب الرصاصة إلى الأنف الذى يطفو فوق الماء ، وهو



(شكل ١٠٠) تسير الفيلة فى قطعان يتقدمها دليل

سريع الغوص جداً فان أصيب عاص ولا يطفو إلا بعد ست ساعات من قتله .

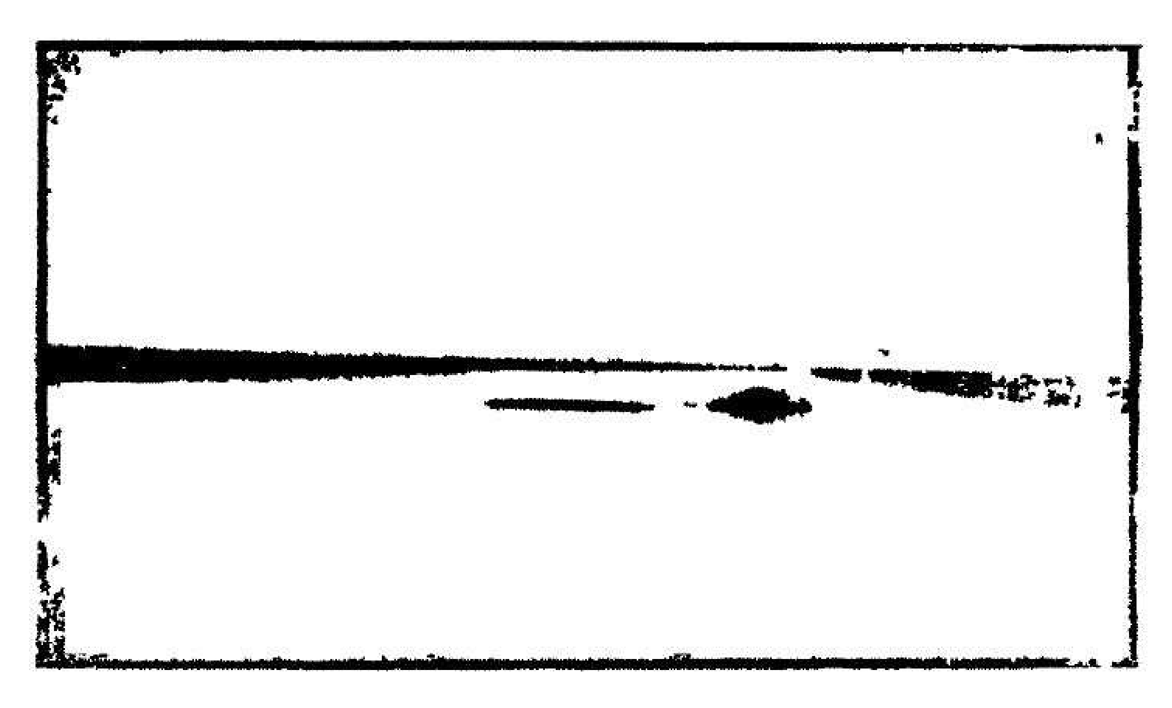
ولعل أكثر بقاع الأرض بهذا الحيوان النيل من هنا إلى بحر الجبل شمالاً ، والحيوان يظل فى النهر نهاراً لا يرى منه ظاهراً سوى الآذان والعيون ، وفى المساء يقصد البر ليأكل ولا يعود للماء إلا فجر اليوم التالى وهو يصعد مناطق العشب والسدود بسهولة ويتخذ له طرقاً ثابتة للخروج والعودة والأهالى (خصوصاً الشلوك والنوير من سكان بحر الجبل) يصيدونه بحرابهم فيكمنون له عند الغروب على جوانب تلك المسالك و إذا قرب أرسلوا حرابهم ذوات الأسنان الجانبية وهى تتصل بحبال طويلة فيسرع الحيوان بالعودة لكنهم يتعقبونه حتى يموت و يجرونه إلى الشاطئ ، على أن بعض الأفراس تهاجم عدوها ، و بفكها المخيف قد تتناول زورقاً بمن فيه وتغرقهم جميعاً ، على أن ذاك الإنسان الهمجى لا يبالى بحياته قط ، و إذا مات الحيوان جروه إلى الشاطئ وسرعان ما يقطعونه و يشعلون النيران و يأكلون شواءه وكثير منهم يلتهم اللحم نيئاً والباقى يقطعونه فى شرائح تعلق على الأشجار المجاورة بحيث لا يبقى من الحيوان إلا هيكله فى أقل من ساعتين .



(شكل ١٠١) أفراس الماء فى منطقة السدود

وكثير منهم يدفع الضرائب من أسنانه و يظهر أن أفراس الماء كانت تمضى غالب وقتها فى البر نهاراً وليلاً لكن هجمات الإنسان لها اليوم ألجأتها إلى الماء طوال النهار ، وساعده فى غذائه وسط النهر كثرة الأعشاب الطافية خصوصاً كرنب الماء الذى يكثر فى منطقة السدود ، و يبدو كالزهر الأخضر الكبير يطفو على السطح وهو الذى يسد النهر ، لذلك يظن أن طرد أفراس الماء إلى النهر يساعد على إنقاص تلك الزهور فتخف كثافة السدود . وكثيراً ما كنا نسمع صوت أفراس الماء تنبعث من أعماق الماء دون أن نرى علامة تدل على موضع الحيوان حتى ولا فقاقيع الغاز التى تتخلل الماء ساعة تنفسه ، ولحمه خشن لكن القوم قد امتدحوا طعمه . و يأكل بعض البيض هناك لسانه فقط .

اختنق النيل وأضحى كالقناة بعد مغادرتنا لبحيرة البرت ورسونا على (بكواش) من قرى الضفة اليسرى حيث انتقلنا إلى باخرة أصغر تستطيع مواصلة السير فى مجرى النيل الضحل ، وما كدنا نرسو عليها حتى هالنى جماهير السود الذين وفدوا ليروا البواخر ونزلاءها ، وما كان أشد دهشتى حين رأيت الكثير منهم عرايا



(شكل ١٠٢) النيل قبيل نيمولى وبه الأعشاب الطافية

تماماً نساء ورجالاً وأطفالاً ، تضع المرأة حول خصرها عقداً من خرز تتصل به دؤابة من ورق الموز أو جدائل من سلوك الحديد أو الخرز أو حزمة نحيلة من العشب لا تكاد تستر العورة ، ومن خلاف يتدلى شريط أو (زر) من فتايل رفيع طويل يتحرك ذهاباً وجيئة كلما تحركت هي فى شكل يبدو على بعد وكأنه الغورلا أو القرد الكبير بذنبه المتدلى وألوانهم جميعاً فاحمة براقة ، والناس يختلطون هكذا فى غير حياء كأنهم البهم على فطرتهم الأولى جن الليل وسادت الوحشة وإذا بسحائب البعوض وصغار الهوام الطائرة تحيم حولنا حتى كادت تعشى الأبصار لكثرتها إذ كانت تخترق كل شىء رغم أن الأبواب والنوافذ تكسوها شباك السلك لمنعها ، لذلك اضطررنا أن نطفىء المصابيح كلها ، وبعد العشاء مباشرة آويت إلى مضجعى وحول الثالثة صباحاً أيقظنى قصف للرعد مخيف وهزيم للعاصفة مرعب فقمت مذعوراً وإذا بشدة الرياح تكاد تلقى بالسفينة إلى البر ، وسيول المطر كانت تترى فى غزارة غير مألوفة ، ولقد دفعت العاصفة ماء النهر



(شكل ١٠٣) مرسى رسو كامب على النيل البرت

إلى البحيرة فهبط مستواه أكثر من قدم وخشى الربان ان استمر ذلك أن تدرك السفينة الأوحال فيتعذر المسير ، وفى الثامنة صباحاً مررنا بمرسى :

موتير : فى مكان مختنق من النهر يحفه من الجانبين ربوتان صخريتان ولذلك اختار المهندسون المكان لاقامة سد البرت المنتظر ، على أنى أخال الماء إذا ما علا خلفه بين سبعة أمتار وتسعة كما هو مزمع يغرق من البلاد الجانبية لضفتى النهر والبحيرة نفسها مساحات شاسعة كانت تبدو وطيئة من حولنا ، على أن التعويضات لن تكون كبيرة لأن الأقليم مهمل لا يكاد يطرقه إنسان .

ولقد اتخذ أمين باشا موتير هذه معسكراً له وأقام حصنه بها ولا تزال ترى أنقاضه على بعد ، ومنه كان يشرف على الإقليم كله من قبل خديوى مصر ، لذلك أثار المكان فى نفسى ذكريات جعلت له قيمة كبيرة عندى رغم أنك لا ترى اليوم إلا مرسى صغيراً ووراءه استراحة واحدة ليس غير ، وقد هدانى بعض القوم إلى مكان هناك تدفن فيه بعض جثث الجنود المصرية التى كانت مع أمين باشا .



(شكل ١٠٤) حسلات من قبائل نوبة على نيل البرت

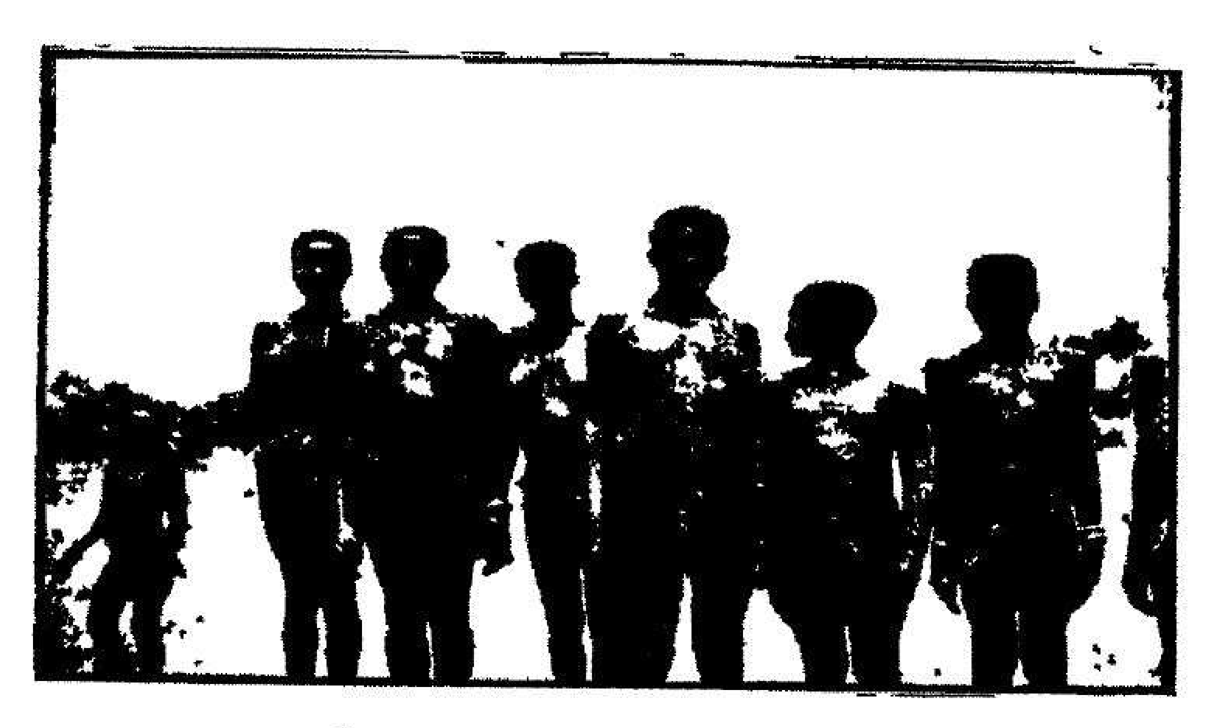
وحول تلك المنطقة قوم ينتحلون اسم (النوبة) يظن أنهم من سلائل الجنود السودانيين الذين حلوا مع أمين باشا وتوطنوا الاقليم بعده وغالبهم مسلمون إلى اليوم وهم يعدون أنفسهم أكبر شأناً من سائر القبائل يتكبرون ويفاخرون عليهم وتتخذ منهم حكومة أوغندا أجناداً أشداء ، وأجمل ما استرعى نظرى رداء نسائهم يتخذ من جلد المعزى وبعد صقله يقطعون الجلد خيوطاً طويلة (شرابة) ويعملون منه نطاقاً يربط حول الخصر فتتدلى أهدابه النحيلة الطويلة وتسترهن إلى نصف الفخذين فتكسبهن جمالاً وجاذبيـة خصوصاً وهى تهتز مع أعجازهن إذا ما سرن ينهادين وأجسادهن جميلة وإن أعوز الوجوه الجمال لـكثرة ما يعلوها من تخطيط يميز كل قبيلة عن الأخرى ، وقد كانت هذه العلامات فى الأصل تطبع على وجوههم علامة الرق ، والنساء هناك مجدات خصوصاً فى اتقان السلال والخوص والأصباغ التى يتخذونها من قشور الشجر وعصاراته وهن مهرة فى القتال كالرجال تماماً .

أما النيل نفسه هناك فيرى عادى الاتساع إذ يقل عن سعة نيل مصر لـكنه فى الواقع عظيم الاتساع ، لأن أكثر من ثلثيه يغطيه نبات الماء خصوصاً



(شكل ١٠٥) على ضفاف النيل الأعلى فى رينو كامب

الغاب والبردى فيبدو كأنه جزء من الشاطىء لكن كثيراً ما كنا نرى كتلا كبيرة منه طافية يحاول الربان تجنبها خشية أن تمسك بهدارات الباخرة فتحطمها ، وأكثر ما يرى ذلك العشب عند المنحنيات . فى جانبها المحدب غير المواجه للتيار على أنه لا يكاد يخلو منه مكان ، وجزائره المنفصلة لا تحصى بعضها بالغ الامتداد يتشعب النيل عندها شعبتين أو ثلاثاً ، أما أفراس الماء والتماسيح وطيور الماء فلا تدخل تحت حصر ، ولا تزال الفيلة ترى بكثرة فى حرجها إلى يميننا هذا إلى التباتل والقردة على الجانبين وماء النهر أملس هادىء عديم التيار على أن لونه عكر . وصلنا مرسى (رينو كامب) وكان عرايا القوم يتطعمون إلى السفينة فى تزاحم وكان يومنا يوم السوق لبيعهم لذلك اجتمعوا تحت شجرة كبيرة قرب المرسى وكانت السلع المعروضة بعض أنواع الحبوب كالسمسم والذرة وسعف النخل والسمك الطازج والمجفف وكنت أخال رينو كامب عاصمة بالخرتيت لأن معنى اسمها (معسكر الخرتيت) على أنى علمت أنها كانت محط رحال جماعة الصيادين الذين كانوا



(شكل ١٠٦) على تبل الرت — ريبو كامب

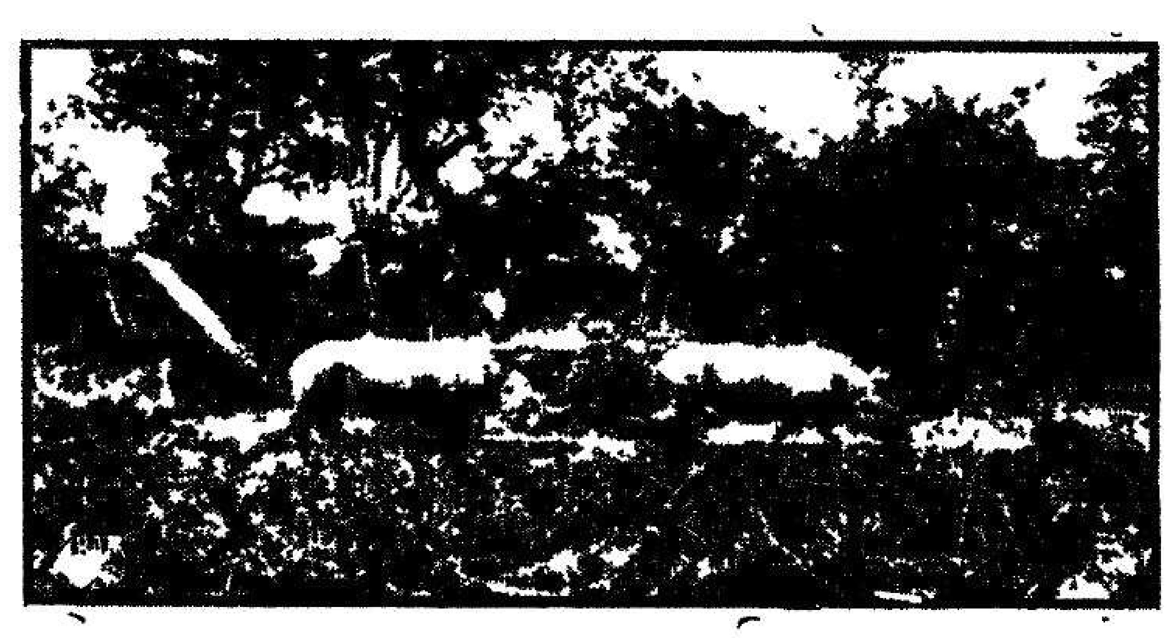
ولا يزالون يخرجون للصيد فى جماعات (سفارى بلغتهم) وأخص الحيوان هناك الحرتيت الذى أصبح نادر الوجود لدرجة أنه كاد ينقرض حتى أن الحكومة تحرم صيده اليوم بتاتاً ، والحرتيت : يقطن حيث يوجد الفيل خصوصاً على ضفاف النيل الأعلى وهو يلجأ النوم إلى سكنى الشجيرات ويهجر السهول وقرنه عظيم القيمة خصوصاً لدى الصينيين الذين يتخذون منه مقويات لأعضاء التناسل وتعمل منه آنية لشرب الماء ، والناس يعتقدون أن أى شراب مسموم إذا وضع فى كوب منه تصدع وانفلق ، وحاسة الشم عند الحيوان قوية . أما السمع والبصر فضعيفان حتى أنك لو وقفت ساكناً ومر بجانبك لم يحس وجودك ، وقرنه الأمامى أطول من الخلفى ، وطول الأول ٤٣ بوصة والثانى ٢١ والحيوان يزن ثلاثة أطنان ، وجلده سميك جداً لا يكاد يخترقه إلا الرصاص المصمت الثقيل ، وهناك نوع اسمه الحرتيت الأبيض أكبر جثة وأطول قروناً ، ولونه كلون أخيه ولا يمتاز عن العادى فى اللون بل بالفم المربع و بنتوء من العظم فوق الجمجمة يمنعه



(شكل ١٠٧) عرايا نيل البرت يصيدون السمك بحرابهم

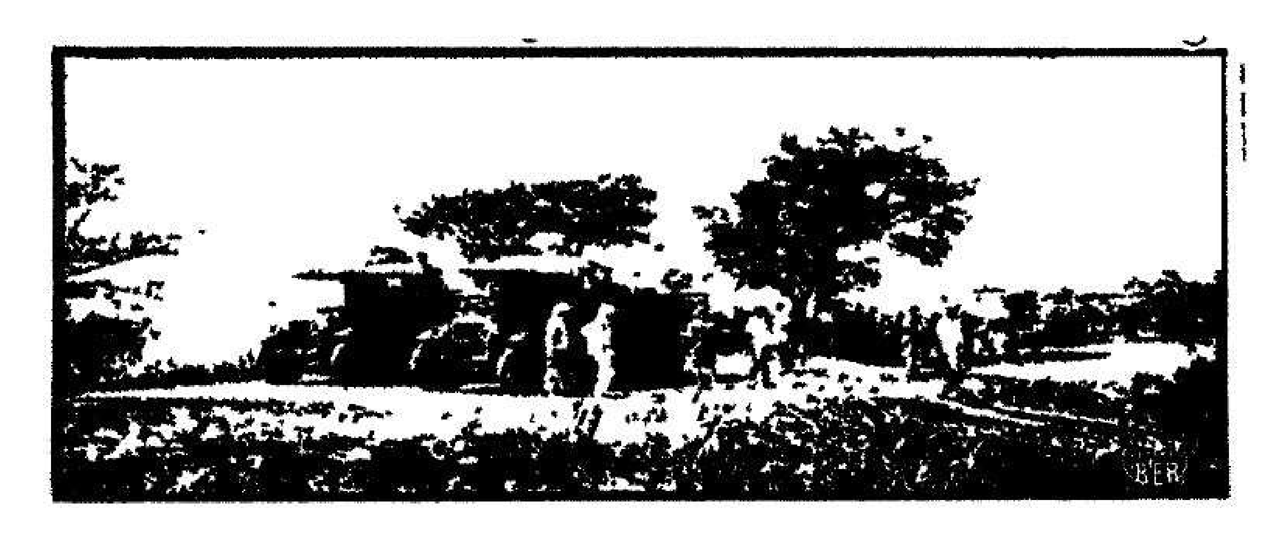
أن يرى ما يقع أمامه إن كانت الرأس أفقياً وهو أندر حيوان ثديي في الوجود ويظن أن ما يوجد في أوغندا كلها لا يجاوز ١٣٠ ، والخرتيت حيوان مهاجم خطير قوي ، حدث مرة أن مهربي العبيد كانوا يسوقون إلى الساحل واحداً وعشرين عبداً توثق رقابهم إلى سلسلة واحدة كما كانت العادة فهاجمهم خرتيت ضرب العبد الأوسط ، ومن قوة الصدمة قطعت السلسلة رءوس العبيد جميعاً وفصلتها عن جثثها .

غادرنا (رينو كامب) نشق طريقنا وسط النهر الضيق لا يزيد على سعة قناة في عرضه ، وكان يساعدنا تياره الضئيل وهو هنا بين ميلين وثلاثة في الساعة وكانت تبدو إلى يميننا سلسلة من جبال وطيئة ، وكان عهدي بالنهر الاتساع العظيم والتيار الضئيل لكن ألفيته على خلاف ما أعرف على أن جوانبه يكسوها العشب إلى سفوح التلال المحيطة بالوادي فامل هذا داخل ضمن مجرى النهر وإن أخفاه ذاك العشب وعلمت أن الإنسان يتعذر عامه السير فوقه لكن الفيلة تجد السير



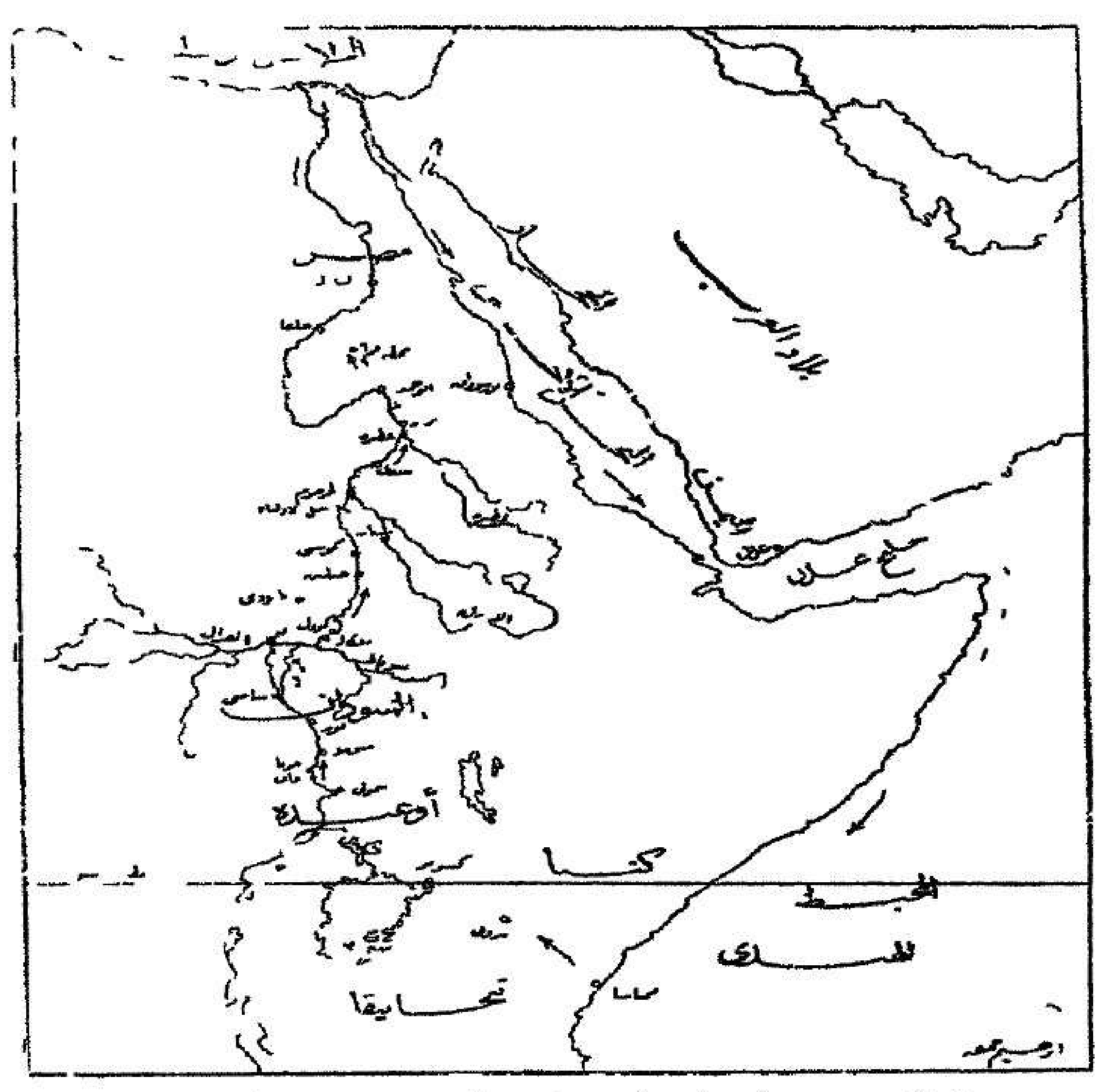
(شكل ١٠٨) الخرتيت من أندر الحيوان وجوداً وأخطره صيدا

عليه سهلاً لضخامة أرجلها التي لا تغوص بين فتحاته ، وأنت إذا دانيته خيل إليك أنها أرض منزرعة مع أنه نبت كثيف يطفو فى تماسك شديد وجذور ملتفة ، وكان النهر أحياناً يتشعب فنرى خلف العشب مستبحرات شاسعة وطالما وقفت الباخرة وأرسلت زورقاً إلى ناحية من ذاك العشب انقل بعض المسافرين من الأهلين ، وفى المحاط التي وقفنا بها كان بعض الانجليز يفدون ليتناولوا بعض الشراب والطعام من الباخرة التي لا تزورهم إلا مرة كل أسبوعين لذلك لا يصلهم البريد إلا كلما مرت بهم ، وهم يضبطون ساعاتهم على الشمس إذ لا صلة لهم بالعالم الخارجي ، ولهذا كنا نجد فرقاً قد يزيد على نصف الساعة بين زمننا وزمنهم ، وكلما سألناهم عن مبلغ اغتباطهم بتلك العزلة أبدوا استمتاعهم الكامل وسرورهم لما هم فيه فأعود أكبر فيهم تلك الهمة العالية ، والحق أن الانجليزى لقدير على خلق السرور والاستمتاع فى كل مقام سهل أو صعب ، وهنا تبدو التضحية للواجب والاخلاص فى خدمة الأوطان ، بتنا ليلتنا فى محطة اسمها لاروبى ومنها قمنا إلى نيمولى ، وهنا بدت الجبال المعقدة وأخذ النهر يتلوى رغم اتساعه وإلى



(شكل ١٠٩) مرسى نيمولى حيث ركبنا السيارات خمس ساعات إلى جوبا

يسارنا مررنا ببقايا حصن لأمين باشا فى دوفيلى (Dufile) وأخـذ النخيل الذى يسمونه (براس بام brasspalm) ينتشر بكثرة هائلة بورقه المروحى ، وحيث يوجد تكثر الفيلة لأنها تأكل ثمره الأصفر الكبير ، ويقال ان الفيلة هى التى تنشر النوى وهى تلقيه على طول السواحل ولذلك يؤم صيادو الفيلة البقاع التى يكثر فيها هـذا النخيل ، وقبل الظهر ظهرت نيمولى ، واسمها أكبر منها لأنى كنت أخالها مدينة فاذا هى مرسى صغير لا يجانبه شىء سوى مظلة من حديد ، وقد كان لهـا شأن يذكر من قبل لكنها اضمحلت اليوم كثيراً ، وهى وما يليها شمالاً من ضفة النيل الغربية كانت تابعة لأوغندا ، أما الساحل المقابل لها فكان تابعاً للسودان من نيمولى جنوباً إلى مخرج النيل من البرت فتبودلت المناطق سـنة ١٩١٣ وجعل خط الحدود أفقياً يتبع الجبل المجانب لنيمولى من الجنوب مباشرة .



(شكل ١١٠) طريقنا فى وادى النيل من منبعه إلى مصبه

السودان المصرى

قطر مترامى الأطراف يزيد على ربع مساحة أوربا كلها أو نحو مليون ميل مربع ، أعنى أنه ثلاث مرات ونصف قدر مساحة مصر بصحاريها ، أو نحو مائة مرة قدر المساحة المنزرعة من أرضنا ، ومع ذلك لم يستغل من مساحته الهائلة إلا بضعة آلاف أميال ، وهو إلى اليوم برية فطيرة لم يفسدها الدخيل ، ولا يزال موطن الوحشى من إنسان وحيوان ، حتى قيل عن شعوب الشلوك هناك بأنهم (أكثر همج الدنيا وحشية) ، والسودان ينقسم طبيعياً إلى شطرين الشمالى ومداه ستمائة ميل ، أى إلى جنوب الخرطوم بمائة ميل ، بين عرضى ١١ و ١٢ وهو صحراوى مجدب لا أمل فى استغلاله ، فهو امتداد الصحراء الكبرى ، والجنوبى ويمتد بعد ذلك ألف ميل إلى الجنوب كلها سهول خصيبة ذات تربة سوداء من أرساب النيل طوال الأجيال الغابرة وهى — إذا استثنينا إقليم السدود — جديرة بإنتاج الحبوب والقطن والبن إذا فلحت ، والمطاط والغلات الاستوائيـة من غاباتها الطبيعية ، وأهل هذا القسم الجنوبى أعجب متوحشى الدنيا قاطبة هم والحيوان سواء ، يمكن للانسان دراستهم حتى ولو جهل لغتهم ، كما يفعل دارس العجماوات فهم أبناء الطبيعة الفطيرة بسطاء ذوو أجسام شامخة وعضلات مفتولة مدربون على التمرينات العضلية وأخصهم بالذكر الشلوك والدنكة والنوير ، فهم حقاً المادة الآدمية الغفل الذين لم يتقدموا خطوة واحدة منذ عهد أمين باشا واسماعيل باشـا الكبير ، أولئك سكان النصف الجنوبى ، أما فى السودان الشمالى من نحو ٣٠٠ ميل جنوب الخرطوم إلى حدود مصر ، فالجنس السائد هو العربى ، وهم أرقى بكثير من أهل الجنوب رسخت فيهم المدنية العربية ولم ترسخ فى الجنوب ويقولون انها آخذة فى الزوال فى تلك الأنحاء الجنوبيـة ، وآخر قبائل العربان جنوباً

البقارة ، ولا يكادون يفوقون جيرانهم من الشلوك حضارة ، أما قبائل العرب حول النيل الأزرق فهم من أرق الناس أدباً وشجاعة ، وهم صيادو أخطر الحيوانات بالحراب من متون خيولهم ، ويسمونهم قبائل (هام رام) وأمثالهم أهل نهر المطبرة ، ثم نزلاء البحر الأحمر وقبائل (فوزى ووزى) أشياع (عثمان دجنا) الذين غالبوا المدافع الحديثة إبان ثورة السودان ، وهؤلاء يعرفون بالقسوة لدرجة هى الوحشية بعينها ، والبقارة وفدوا من الشمال الغربى من بلاد البربر ، وفى سنة ١٧٧٦ ظهر السلطان هاشم الذى اتخذ الأبيض عاصمة له وبعد ذلك بعشر سنين غزا بلاده شعوب دارفور (الكنجارا) وسادوا حتى كانت الحملة المصرية سنة ١٨٢١ ، أما عن تاريخ بحر الغزال فلا نعرف شيئاً باليقين ، ويظهر أن قبائل الدنكا غزوه من الشمال ثم أعقبهم قبائل (أزاندى) من الجنوب منذ مائتى سنة ثم كانت بعثة محمد على باشا إلى بحيرة نو سنة ١٨٤٠ ثم أعقب ذلك بعثات من سفن تجارية وصلت إلى مشروع الرق ، وإبان ثورة المهدى نشط تجار الرقيق من العرب فكانوا يسوقون إلى السواحل الشرقيـة ثمانين ألفاً من العبيد فى كل عام .

من نيمولى إلى جوبا : أقلتنى سيارة لشركة النقل التى تتعهد لدى حكومة السودان بالنقل فى تلك الشقة مقابل ثمانية جنيهات عن كل مسافر وأربعة ملليمات عن كل رطل من المتاع ، ويظهر أن للشركة الحق فى رفع الأجور هكذا وبخاصة فى هذه الأيام الكاسدة فمثلاً لم يكن معى يوم سافرت أحد فكنت أنا المسافر الوحيد الذى جاء من أجله سيارتان إحداهما صغيرة للركاب والأخرى كبيرة (لورى) لنقل المتاع مع العلم بأن هـذا النقل لا يحصل إلا مرة كل أسبوعين ، والطريق ١٢٥ ميلاً قطعناه فى خمس ساعات ، هنا بدأنا نسير صعداً فى طريق معبد متسع يتلوى فوق الجبال التى تكسوها الأشجار القائمة ، وكلما علونا ظهر



(شكل ١١١) على قنطرة نهر أسوا بين نيمولى وجوبا

النيل من دوننا فى طية فضية نحيلة بجانبه بساط متسع من الخضرة ، ثم أخذنا تنزل الجانب الآخر لتلك الربى فهوينا نحو ٣٥٠ متراً إلى سهول سوداء التربة عظيمة الخصب بلغ من خصبها أن العشب البرى طغى على الطريق المرصوف فغطاه فى غالب جهاته إلى علو كان يخفى سياراتنا تماماً وكل تلك أراض مهملة لا إنسان فيها إلا نفر من قبائل مادى وأشورى مبعثر عار حتى عن ذلك الشريط الذى كنا نراه يتدلى وراء أهل نيل البرت . هنا قلت أين الأيدى المصرية التى اعتادت فلاحة الأرض فتستنبت منها ذهباً خالصاً وفيراً ، وهى هنا لا تحتاج إلى كبير عناء فالرى بالمطر مكفول طوال ثمانية شهور فى العام ، وليس بها من الحزون التى رأيناها فى أرض كنيا وأوغندا إلا اليسير ؛ وقد كان هذا من رأى اليونانى سائق السيارة الذى أخذ يحدثنى عن الأيدى المصرية وفعلها السحرى فى الحقول — وقد أقام عندنا أمدا .

هنا لاقانى بعض إخواننا من الموظفين الأقدمين ، وأضافونى برهة وقصوا على طرفاً مما يجرى فى السودان اليوم ومحاولة الفصل بينه وبين مصر بكافة

الوسائل كابعاد الجند و إقالة الموظفين ، وقد بدأوا محو اللغة العربية و إهمالها فى المخاطبات الحكومية ، على أن الحالة المالية كاسدة منذ برح الجيش المصرى البلاد وكل سنة تمر تخلف عجزاً مالياً كبيراً وهم السلطات منصرف إلى الانفاق على القطن فى الجزيرة على أنه لا يبشر كثيراً . مررت فى الطريق على سبع قناطر تعبر نهيرات سريعة أهمها نهر (أسوا) الزاخر المضطرب كثير المساقط ، وفى أخريات الطريق عادت الجبال وأخذنا نعلو ونهبط وسط ذاك النبت الوفير حتى وصلنا حافة النيل المضطرب كثير الجنادل التى رأينا من بينها جندل فولا ، و بعده دخلنا بسياراتنا سابحة تجرها باخرة صغيرة عبر النيل الذى كان إذ ذاك طامياً بالماء إلى حافته فى لون قاتم وتيار جارف ، ووراء الجانب الآخر دخلنا :

جوبا : وهى منشأة حديثة بها مجموعة من المبانى الصغيرة ذات السقوف المتحدرة ، وينزل الطريق الوحيد الرئيسى إلى النيل حيث ترسو البواخر التى تقوم مرة كل أسبوعين ، اتخذت المدينة مبدأ الانتقال إلى الشمال بدلا من الرجاف التى تقع بجوارها إلى الجنوب وهى قرية قديمة وأكبر من جوبا ، وكانت البواخر تقوم منها مخترقة فجوة بين الجنادل فآثر القوم اجتناب أخطارها واستبدلوا بها جوبا والربوة التى تقع عليها الرجاف ترتجف أبداً ، ويقول القوم إن هزات الأرض أخذت تتزايد فى هذه الأيام ، فلقد اهتزت منذ أول العام ثلاث هزات عنيفة ويخشى القوم انفجاراً بركانياً يحتمل حدوثه ، أما جوبا فليس بها إلا بعض محال تجارية أكبرها لطائفة من الاغريق يبيعون فيها كل شىء بين مأكل وملبس ومشرب ، ولاحظت أن الهنود اختفوا تماماً رغم أنهم كانوا أصحاب المتاجر فى كل شرق إفريقية ويلى الاغريق من الغرباء السوريون ثم السودانيون وأقلهم المصريون ، على أنى هنا بدأت أشعر بأننى فى وطنى إذ بدأت اللغة العربية تحل محل السواحلية وكثير من الأهلين على وحشيتهم يتكلمونها . حللت الباخرة التى تدفع أمامها باخرة أصغر منها لركاب الدرجة الثانية بجانبها صندلان كبيران



(شكل ١١٢)
تدمع باخرتنا أمامها كل تلك السابحات زودت بالروافع لانتشال أعشاب السدود

يونقان فيها و يحملان ركاب الدرجة الثالثة و بعض البضائع وخشب الوقود ، وفى الثامنة من صباح الأحد ٤ سبتمبر أقلعنا نشق النيل الطامى العكر ، وأخذ يتلوى ليات وعرة تحف ضفافه أراض وطيئة يكسوها عشب برى كالحلفا وهى أرض خصيبة تعوزها الخبرة والأيدى العاملة ، وفى التاسعة مررنا بمكان غندكرو إلى اليمين فلم نر ما يدل على وجود مدينة قط بل عدة أكواخ من خلفها بعض التلال وهنا كانت بقايا محطة السير صموئيل بيكر واضحة ، وكانت محطة عسكرية هامة للجنود المصرية منذ عهد أمين باشا ، أما الجو فكان دفئاً جميلا ، وما حل الظهر حتى كنا نرسو على منجلا فظهرت بها بعض المبانى من الآجر الأحمر ، وفريق من الأهلين افترشوا الأرض بمبيعاتهم من قصب السكر والفاكهة خصوصاً الموز والجوافة واليوبوز ، والقشدة التى كنا نشترى الواحدة منها بمليم ، وغالب البائعين من قبائل البارى أشداء الجسوم طوالها فكثير منهم يصل سبع أقدام ويزيد ، وقد وقفت بجانب أحدهم فكنت قزماً ، وأعجب ما فيهم رجالهم الذين يسيرون عرايا

وكأن عدم ستر العورة أمر فطرى طبيعى ، و بعضهم يضع سواراً أو اثنين حول الساعد وعند الرسغ و بعض الخواتم والأقراط ، وأخصاصهم دقيقة البناء نظيفة لكنهم لا يزالون على الفطرة ، وكثيراً ما يضع الرجل عقداً من خرز أزرق أو أحمر حول خصره العارى ، والمدينة كانت مقر المديرية ، لكنها هجرت الآن واتخذت جوبا مكانها فأصبحت قرية لا شأن لها وكنا نراهم يهدمون المبانى المصرية شأنهم فى جميع البلدان التى تبدو متمصرة عن غيرها محاولين أن ينسى الناس بعد حين كل ما هو مصرى .

بعد ساعتين مررنا بمرسى (سمسم) الصغير الذى تزود السفينة فيه بالأخشاب وكانت مكدسة على الضفاف بمقادير كبيرة وأخذ النيل يتلوى ليات متعاقبة كانت تبدو فيها وظيفة الجرف فى الضفة المواجهة للتيار فكان يرى الطين فيها مشرفاً زهاء ثلاثة أمتار ، أما الجانب المقابل له فتكاد تسده الأوحال والرواسب وكانت السفينة كلما دارت دورة اندفعت إلى العشب رغماً عنها فأوغلت فيه بقعقعة مخيفة ، ثم تتخذ سبيلها بعد فى ماء النهر الطامى ولا أدرى ماذا تفعل إبان انخفاض الماء بين نوفمبر وابريل ، و بعد أكثر من ساعة وصلنا :

تركاكا : إحدى بلاد قبائل البارى باخصاصهم الجميلة و بعدها اختنق النيل وزادت لفائفه وأعشابه التى تسده حتى خيل إلىّ أنى دخلت فى صميم منطقة السدود مع أننا لا نزال فى مبدأها ، وقد ألفت نظرنا فى ذلك العشب أربعة فيلة يعرفهم القوم وتحميهم الحكومة مع أنها تصرح لمن يطلب أن يصيد فيلا واحدا ، ولما كانت الرخصة تكلف الصياد عشرين جنيهاً ، وثمن قنطار العاج هبط الآن إلى عشرين جنيهاً رغب الكثير عن الصيد إلا خاصة الهواة .

هنا جرنى الحديث مع بعض المسافرين من السودانيين والأجانب و بعضهم من القائمين بشئون التعليم عن نظامه ، فعلمت أن هناك من المدارس الابتدائية حوالى العشر فى عواصم المديريات الشمالية إذا أتمها الطالب انتقل إلى كلية



(شكل ١١٣) ترسو على محلا وترى بعض المبانى المصريه بهدم

غوردون فى الخرطوم وهى تنقسم إلى فروع عدة ، الغرض الأساسى منها تخريج طائفة من الموظفين ، وفروع تلك الكلية هى فى عرفهم الأقسام العالية يتمها الطالب فى أربع سنين ، والدراسة هناك سطحية وتقوم على التحفيظ وغالبها باللغة الانجليزية . وعلمت من الكثير من الطلبة أن التدريس قد انحط مستواه منذ برح الكلية جماعة المصريين من الأساتذة وبعضهم كان من المخضرمين الذين حضروا العهدين ، أما فى جنوب السودان حيث نحن الآن ، فالتعليم فى أيدى المبشرين ، والبعثات الدينية التبشيرية هنا تشجع كل التشجيع ، فمثلاً تخفض لهم نفقات الانتقال إلى الربع ، وتقدم لهم الاستراحات يشغلونها أنى شاءوا ، وكان معى منهم فى الباخرة ثلاثة ، وكان بعضهم من الطليان ، وكانت الباخرة تقف خصيصاً فى مكان صغير ليس من مراسيها لنزول واحد منهم وتلك خطوة شبيهة بما رأيته فى أوغندا حيث التعليم كله فى أيدى المبشرين وليس للحكومة به علاقة إلا المعاونات المالية .

أما الدعاية للاسلام فتعاكس كل المعاكسة فاذا فكر أحدهم فى جمع اعانات لاقامة مسجد صغير منع من ذلك ، وقد بلغت الحال أن بعض المسلمين لا يشجعون على أداء شعائر دينهم هناك علانية ، وليس ذلك تعصباً دينياً بل هى فكرة متممة لفصل السودان الجنوبى عن الشمالى ليشبه أوغندا ، يؤيد ذلك ما قرأته فى الكتب الانجليزية عن السودان تلك التى تحاول التفرقة بين السودانيين ببراهين واهية ، إلى ذلك أن أهالى الشمال والجنوب يمنعون من السفر من طرف لآخر إلا بترخيص رسمى مع أنهم سودانيون من أبناء البلاد ، وكان يسافر البعض خلسة وكثيراً ما عوقبوا على ذلك وأعيدوا من حيث أتوا .

ولشد ما كان عجبى لأسلافنا الذين لم يحاولوا تمصير هذه البلاد وتحويل أهلها الهمج البسطاء إلى الدين الإسلامى الذى لو كثر معتنقوه لما أمكن محاولة الفصل بين الشمال والجنوب وتلك هى الفكرة السائدة فى نشر الدعوة فى كل شرق إفريقية والسودان الجنوبى ، وما حركة نقل الموظفين الذين ينتمون إلى السودان الشمالى فى اللغة والدين من الجنوب إلى الشمال أو الاستغناء عنهم هم والمصريون إلا أثر من آثار خطة الفصل بين السودانين ، ويشاع أن السودان الجنوبى من نصف الجزيرة سيضم إلى شرق إفريقية ، ويميل الساسة إلى إطلاق اسم اتحاد شرق إفريقية على هذا الجزء مضافاً إلى أوغندا وكنيا وتنجانيقا ، وستكون حكومته شبيهة بحكومة اتحاد جنوب إفريقية !

بور : فى اثنتى عشرة ساعة وصلنا بور على الضفة اليمنى من النهر وهى مدينة كبيرة بيوتها أخصاص دقيقة الصنع منسقة يفصل كل مجموعة منها سور من الغاب ، والطرق كلها تحد بسورين من جدائل البوص ، وبها بعض المحال التجارية فى أخصاص فسيحة ومربعة وليست مستديرة كالمساكن ولها شرفات (برندات) على عمد من خشب من جهاتها الأربع ، ومقر المركز الحكومى على المرسى مباشرة ، وهنا كان يقوم العلمان المصرى إلى جانب الانجليزى ، والمأمور



(شكل ١١٤) فى أعالى النيل يصيدون الفيل بالحراب

سودانى قوى الجسم ، وقد كان المآمير من المصريين الذين استعيض عن بعضهم بالوطنيين السودانيين ، والغالب أن يحل مفتش انجليزى فى المراكز الشمالية محل المأمور ، وقد كان لمركز بور مأمور ووكيل لكبره ، والمكان وطىء تحفه المناقع وأعشاب النهر التى لا آخر لها ، لذلك يعرف بكثرة البعوض كثرة مروعة ، وغالب الأعشاب من حشيش النمر والغاب وأم الصوف كسائر المناطق السابقة ، ولقد بدأنا ندخل بلاد شعوب الدنقة بدل أمم البارى . فمنا نتخبط فى جوانب العشب التى كانت تعلوه باخرتنا ، ثم نحاول التخلص منه بمشقة كبرى وكم صدمنا من تماسيح وأفراس الماء ، وقد مرت بنا باخرة صغيرة عليها العلم المصرى وبها فريق من المهندسين المصريين الذين يقومون بأبحاثهم فى تلك المناطق الغامضة ومركزهم الرئيسى الملكال ، وقد خبرنى بعضهم أن تصرف النيل هنا كبير إذ يبلغ ٩٠٠ متر فى الثانية لكن المسارب الكثيرة هى التى تبدده ، رأينا منها مسرباً اسمه (ميقنو) بدا كالنهر الصغير لكن البحث أثبت أنه يسحب وحده نصف ماء النيل ويبدده فى إقليم السدود .

ومن المشروعات التى يبحثونها تعقب ذلك المسرب الذى يجرى إلى جهة

هي أجف من منطقة السدود الصميمة إلى شرقها ويقارب منبع الزراف ثم يعود فيلتوي عائداً الى ملاقاة بحر الجبل بعد أن يكون قد بدد ثلاثة أرباع مائه وهم يبحثون في وصله بالزراف الذى هو أقل خطراً على الماء من بحر الجبل إذ أن تصرف الأخير حول ألف م٣ فى الثانية والآن لا يصل منهـا بحيرة نو سوى مائتين والباقى يضيع بالتبخير ، وفى الحق أن المنطقة لمن المعضلات التى تحار فى حلها كبار العقول ، لذلك لبثت مصلحة الرى دائبة على بحثها منذ ١٩٠٧ إلى اليوم ، ولما توفق بعد إلى طريقة لانقاذ المـاء لا ولا جزء ممـا تبدده تلك النقائع التى لا يبدو لهـا من نهاية ، و بواخر الرى المصرى كل يوم تدون الأرصاد الجوية والتصرفات وتقيس المسائح المحيطة بالأقليم دون جدوى .

لبثنا اليوم كله نمخر عباب ذاك العشب اللانهائى وكل آونة تطلع علينا مجاميع صغيرة من أخصاص أقيمت فوق العشب مطلة على النهر فى مسافات متباعدة الواحدة تلو الأخرى ، وكان أهلها العرايا يسرعون بالظهور لتحيتنا من بعد .

وظلت تتلقفنا مطاو يه فندخل صميم العشب بسفننا ونحاول التخلص منه بقوة البخار ومجهود الرجال الذين يقفزون فى اليم والعشب وهو يغص بالتماسيح والأفراس وطالمـا اغتالت منهم عاثرى الحظ ، وكان ربان السفينة الزنجى يقذف بنـا عمداً إلى الضفة كى يكسر شرة التيار . وفى الصباح كان الجو غائماً مطيراً كما كان بالأمس ، وقد لاحظت أن العشب أضحى كله من البردى الذى امتد إلى الآفاق حتى خيل إلى أن الله قد خص تلك المنطقة لجمع فيها عشب الدنيا كله إلى ذلك فان تيار النهر بدا فاتراً ذلك لأنا نقارب منطقة السدود الصميمة ، وفى التاسعة من صباح اليوم التالى رسونا على :

غابة شامبي : وهى قطعة من أرض وطيئة وسط المستبحرات الشاسعة وإلى جانبها يمد النيل بحيرة آسنة فسيحة وقد علا فيض النيل هذا العام فكانت البيوت سابحة فى نقائعه وهى مجموعة من أكواخ أنيقة غالبها مستدير ، وبهـا



(شكل ١١٥) فى غابة شامبى وسط بعض العرايا والنقائع

محلان تجاريان فى ملكية بعض العربان من سودان الشمال كما هى حال غالب المتاجر فى الجنوب ، وعلى البحيرة مباشرة تقوم المستشفى ودار الحكومة (وهى نقطة للبوليس) والاستراحة وأخص ما استرعى أنظارنا أهل البلاد من الدنكا حالكى السواد فى وجوه جمالها فائق الحد رجالاً ونساء وغالبهم ينقشون جباههم بالتجريح البارز فى خطوط أفقية أو رأسية ، وكان بينهم كثير من أبناء النيام نيام لأن هناك طريقاً يمتد من شامبى إلى بلادهم فى بحر الغزال ، هنا استوقفنا جمع من الصبية يرقصون على نغم آلة موسيقية كالطنبور وهم يحركون أرجاهم حركات منظمة ومعقدة كأنها رقصة (شارلستون) وهم لا يملون الرقص مهما طال بهم الوقت .

الدنقة أو الدنكا : بعد أن كان يطلق عليهم اسم زولو أعالى النيل بسبب قوتهم وبأسهم تفرقوا من أثر الحروب الداخلية وغارات تجار الرقيق عليهم وقد امتدت بلادهم من شمال بحيرة نو إلى جنوب السدود حول شامبى إلى شرق

النيل الأبيض من كودك والرنك وتلك المنازعات الداخلية هى التى حدت بهم إلى ذاك التفرق والسكنى من قرى صغيرة قد لا يزيد عدد الواحـدة على أفراد عائلة واحدة ، وتاريخهم عامض لـكنهم أغاروا على العرب فى أخريات عهـدهم وقبيل دخول الأتراك فى السودان . وتقدموا شمالاً على الضفة الشرقية للنيل الأبيض (كما فعل الشلوك على الصفة اليسرى) لأن مناطق السدود قد ضاقت بهم لضيق المساحة اليابسة فيها ، ويظهر أن هذا هو السبب الذى حدا بكل القبائل المتوحشة أمثالهم فى أعالى النيل أن يطغوا على العرب شمالا فى آخريات القرن الثامن عشر ولولا ظهور أسلحة الجنس الأبيض الحديثة فى الشمال لا كتسحوا جميع السودان ، ونعرف باليقين أن الدنكا عبروا السوباط وغزوا بلاد الفنج سنة ١٧٧٥ وتقدموا تحت قائدهم (أكواى تشا كاب) فوق ٣٠٠ ميل شمالاً إلى جزيرة آبا التى هب منهـا الدراويش يكتسحون الشمال لـكنهم ردوا إلى جنوب الرنك ، وقد قاسوا من تجار الرقيق مرارة فقد كان يساق منهم فى العام عشرون ألفاً بين نساء ورجال وأطفال .

والدنكا شعب رعاية قطعانهم هى كل شىء لديهم ، لهم زرائبهم التى يقر فيها الرجال صباح مساء يراقبون القطعان وهم يغنون أغانى البقر المقدس وينامون على فرش من روث هذا الحيوان ، وأكواخهم شبيهة بأكواخ الشلوك إلا أنها قذرة وغير منظمة ، وهم يسيرون عرايا إلا إذا زاروا منطقة أخرى حين يحملون خرقة مهفهفة ، والمتزوجات يلبسن جلدين لمعزى واحد من أمام والآخر من خلاف ، وهذين يقدمهما لهـا الزوج عند الزفاف ، أما التزين بالخرز والودع فللجميع نساء ورجالا ، وكبر العقود للرجال دليل على جاههم وثروتهم ، وشبانهم يكثرون من لبس الخرز فوق رؤوسهم بعد حلق شعورها إلا الناصية التى يكون شعرها فى أشكال مختلفة وهم كالشلوك يدهنون الشعر بمخلوط من بول البقر والروث ومسحوق الثرى الأحمر ويزيدون قذارة عن الشلوك فى دهن الجسد



(شكل ١١٦) زينة الرجال عند الدنكا

كله بهذا المخلوط الذى يصعد من الروائح الكريهة ما تعافه النفوس ، خصوصاً عقب استعماله مباشرة .

والرقص لديهم أقل جلالا وأبهة من رقص الشلوك ، وعلامة الحداد عندهم أن يلبس الرجال والنساء حزاماً رفيعاً من حبل من مجدول العشب حول الخصر وأسلحتهم الحراب القصيرة والصوالج والتروس وغالبها من جلود خشنة ، وأعجب عاداتهم ما اختص بالزواج والميلاد والموت ، فقبل ميلاد الطفل تحجز الحامل وحدها فى كوخ و يحوطها من الخارج حبل يدل على وجوب عزلتها ، وكل من تخطى ذاك الحبل السحرى يصبح مسئولا عما يصيب المرأة والطفل من مرض أو أذى ، وثروة الرجل تقاس بقطعانه وعدد بناته اللاتى بلغن الحلم ، و يغلب أن يكون ذلك فى سن الخامسة عشرة لأنهن يمهرن عند الزواج بين ثلاثين بقرة وأربعين على حسب جمالها ، ولما كانت المرأة عرضة للبيع فهى لا ترث ، وهم يخالفون الشلوك فى مراسيم الزواج ، إذ بعد أن يدفع الزوج جزءاً من المهر يخول له الاختلاط مع الفتاة ولا يدفع الباقى إلا بعد ميلاد أول طفل حين يحل دفع

باقى المهر ، وللرجل أن يطلق زوجته العقيم فإذا ثبت صدق قوله رد له أبوها ما دفع وللفتاة أن تتزوج من غيره ، فإن طلقها للسبب عينه وتزوجها ثالث فلا مهر لها فإن حملت وولدت فى هذه المرة كان الأطفال لها لا للأب ، ولها حق بيعهم ، وفى قوانينهم أن الزوج المسن الذى يعجز عن إتيان النساء له حق فى أن يزوج ابنه من زوجته فإن لم يفعل طلبت هى الطلاق ، والرجل لا يرغب فى الطلاق مخافة أن يضيع عليه ما دفع مهراً من الأبقار ، وعلى ذلك فالبقر لديهم أهم من النساء ، لأنه معيار التبادل ، وهم يقدسونه فيظل الرجال فى حراسة الزرابى وهم يغنون للبقر أو يرقصون أمامه لكيلا تمرض الأبقار أو يقل نسلها ، وينام الرجال مع البقر ليلاً وتشكل قرونها وهى صغيرة حتى تأخذ رونقاً جذاباً ، وهو يستخدم روثها وبولها فى زينته ، وقد ألف رائحتها التى أصبحت محبوبة لديه ، والغنى يملك من البقر بين خمسمائة وألف ، وأخص غذائهم لبن البقر يمزج به نوع من الفول يسمونه (كوردالا) والذرة تؤكل مع لحوم الغزلان والسمك ، ولتسهيل ازدراد ذلك الطعام اللزج تقتلع الأسنان الأربعة السفلى منذ الصغر بواسطة إحدى الحراب التى يصيدون بها السمك ، ومن أحب الأطعمة لديهم دم الماشية فير بطون الثور ويضربون وريداً منه بحربة فيسيل الدم إلى إناء ثم يضمد الجرح بالروث والثرى ويقيم الرجل الإناء إلى فمه مرتشفاً الدم فى لذة غريبة ثم يناوله لجاره وكثيراً ما ترى على جباههم خطوطاً من التجريح بارزة فى أنظمة مختلفة وهذه تميز قبائلهم المختلفة .

ورغم وحشيتهم هذه فهم على دراية ببعض الفنون يجيدون الضفر والجدل وصنع الطبول والخزف والسلال والأسلحة كذلك الصيدلة والجراحة وطب الأسنان والتدليك وطب الحيوان ، فالعقاقير التى يستعملها طبيبهم تؤخذ من الجذور والأعشاب ، ولها فى الشفاء أثر كبير ويدفع القوم ثمن الدواء بقرا ، والتدليك علاج عام نافع خصوصاً فى المغص المعوى الذى ينتشر بينهم ، وكثيراً



(شكل ١١٧) منطقة السدود قبيل بحيرة نو وترى سداً طافياً

ما يستخدمون الحجامة ، وعادة اقتلاع الأسنان الأمامية يعللها البعض بأنها تسهل لهم النطق بلغتهم التي تحكي الهمس ، لأنها فقيرة بالالفظ ، وقيل ليستطيعوا الأكل إذا أصابهم مرض تصلب الفكين الذي يتعرض له كافة المتوحشين ، ومما يتعرض له صغارهم من القسوة تجريح جباهم ليحملوا شعار قبيلتهم إلى ذلك دفعهم وهم في مقتبل العمر إلى الوحوش والأفاعي كي ينالوا شرف قتلها فرادى وهم يتخذون شعاراً من الحيوان ، فالأفعى البصاقة دليل المطر ، فاذا نزل بعد الجدب أقاموا لها حفلة كبيرة عند بيت الساحر الأعظم ، فيشعلون النار في وسط الدائرة التي يحوطها القوم وهم يرقصون ، ثم يتقدم زعيم السحر وبيده أفعى فينسحب الجميع ما خلا رجلاً عارياً يمد ذراعه فيطوى الساحر الأفعى حول هذا الذراع ، ولا يخاف هذا الرجل وإلا لحقه عار كبير ، وتوثق ثلاث أفاعي في الأرض إلى عمود بجانب النار لحراسة المكان حتى تنتهي الحفلة ، وعجيب ألا يخشى القوم تلك الأفاعي التي تبصق السم دائماً فاذا وصل جسم الإنسان آلمه ألماً شديداً ، وإذا لحق العيون أعماها .

فى صميم منطقة السدود

ساد البردى خشن الملمس شاهق العلو فى تماسك بالأرض شديد ، ووجوده دليل على زيادة العمق لأنه هو الذى يغالب العمق فيمد جـذوره طويلاً حتى تمسك شعابه باوحال القاع ، ولا يؤثر فيه المـاء قط ، ولم يكن مجرى النيل خلاله إلا قناة مختنقة فى ليات متعاقبة تـكاد تكون طياتها متوازية تماماً ، وما فتئت باخرتنا تعانى صدمانها بارتجاج يهز القلوب كلما تلقفتها لية عن سابقتها ، وهنا كنا نمر بمحاط وسط النقائع يغطيها العشب ولم تـكن إلا ثلاثة أكواخ أو أربعـة يخرج منها جمهرة من العرايا يخوضون المـاء وهم يطلون علينا ، وهذه متاجر صغيرة يفد إليها الهمج من أقاصى إقليم السدود يبتاعون متاعهم الضئيل ، وقد باغتنا سحاب من الجراد الذى كان يحط على ذاك العشب ويأكله رغم خشونته ، والجراد هناك من أخطر الآفات ولو أن الأهالى يأكلونه بكثرة ، وكان يتعقب تلك السحابات أسراب من طير المـاء الأبيض ليلتهم منه ما استطاع ، وبحر الجبل هنا هادئ المـاء رائقه سطحه أملس لا تعلوه موجة قط اللهم إلا كلما نفر تمساح كسول أو فرس مروع فقد بدا كالزيت لوناً وشـكلاً وأخذت جزائر العشب الطافية تعترضنا بين فترة وأخرى أو ترتطم بالضفاف فى سدود لانهائية وفى الحق فالمنطقة بأعشابها وسدودها ومناقعها ليحار فيها اللب ولا يعرف مداها إلا علام الغيوب ، وعجيب أن كان البردى يكسوه كثير من النبات الطفيلى المتسلق عليه ، وكم أمسكت مع جمهرة من صحبى فى السفينة بأعواده محاولين اقتلاعها فـكانت تجتذبنا إليها فى متانة لا يصدقها العقل ، وهنا كان يكثر فى الماء نبات يطفو وهو يشبه (الـكرنب) الصغير أو الزهرة الخضراء الـكبيرة إذا انتشلتها كانت أعراشها وجذيراتها مايدة كثيفة تبلغ أضعاف حجم الزهرة نفسها ، وقد لاحظ بعض من أقاموا حول منطقة السدود طويلا خصوصاً عنـد بحيرة نو

أن كرنب الماء هذا يسير واحدة فواحدة كأنها الطبق الصغير ، وفى المكان الهادىء يتجمع ويدور فى هدوء وحيث يقل العمق تمسك جذوره بالطين ، وبعد ساعة واحدة يصبح حجم الجزيرة الصغيرة التى تألفت من ذاك الكرنب كالمائدة الكبيرة ، وفى الصباح كانت الجزيرة فى حجم الكوخ الكبير ، وبعد يوم آخر ضوعف حجمها ست مرات ، ولما فحصت جذوره كانت متماسكة بشدة فى أوحال القاع ، فإذا كان هذا فعلها فى يومين فصور لنفسك ما تم هناك فى الأجيال السحيقة الغابرة فلا عجب أن ترى فى منطقة السدود جزءاً من النيل طوله ٤٠٠ ميلا يركد ماؤه ويتجمع حول كتل (الكرنب) هذه نبات الماء الآخر كأم الصوف أو حشيش النمر والبردى ، وبعضها يفوق خمسة أمتار فى العلو وضعف ذلك فى جذوره .

هكذا تكونت منطقة السدود التى تسد مجرى النيل فى وسطه فى مساحة قدرت بنحو خمسة وثلاثين ألف ميل مربع ، أى نحو أربعة أمثال الأراضى المنزرعة من القطر المصرى ، ولا تلبث أن تنفصل كتل من ذاك العشب المتماسك ولشدة ضغط الواحدة على الأخرى تراها تعلو بعضها البعض ، ومثل هاتيك تخشاها السفن فإن لامست إحداها فقد يتعذر عليها الخلاص ، وإن حصرت السفينة بين كتلتين تضغطانها حتى تتهشم الباخرة تماماً ، وقد حدث ذلك مراراً وتلك الكتل تلتئم تارة فتسد الآفاق ولا تلبث أن تنفصل بقوة الضغط عليها فتندفع إلى غيرها وهكذا . هنا يقف ماء النيل ويتخللها فيبدد نصفه على الأقل بالبخر والمسارب الجانبية مما أعاق التقدم الزراعى بين كثير من شعوب تلك الجهات ، على أن بعض هذا الماء المبدد فى المسارب يرد إلى النهر إبان الغيض .

منطقة لا ينساها من يخترقها ، إذ يظل يذكر منظرها الموحد الممل المقبض طوال حياته ، هنا يلبث العابر يشق الإقليم يوماً بعد يوم فى طريق مختنق شقه وسط العشب ولا يزال يعانى الإنسان كثيراً فى المحافظة عليه خشية أن تسده

تلك الطافيات وكلما طوح ببصره لم يلق غير العشب ، ويزيدها كآبة أنها موات لا يكاد يرى بها من الحياة الحيوانية شيء اللهم إلا فى بعض الفيلة وأفراس الماء والتماسيح ، ونوع من الغزال خاص بها هو (ستوتونجا Situtunga) أعدت حوافره لتلائم المناقع ، فهى حوافر طويلة مرنة أقرب إلى الطير المائى ، وفى أسفلها نتوءات مرنة كالمطاط بدل الشعر الذى نراه أسفل حوافر الغزلان عادة وذلك لتسهيل السير فى الأوحال والأعشاب .

وسحائب البعوض وبخاصة إذا جن الليل لا يمكن مغالبتها ، بعوض كبير الحجم كان ينفذ إلى صميم شبا كنا من سلك وقماش ، فلا نشعر إلا والالتهاب الممض قد أخذ من سوقنا وأذرعنا رغم ثقيل الثياب ، وخير ما كنا نتقيه به التعجيل بالنوم بعد تطهير الفراش ، ولذلك لم نعجب إذ كانت المنطقة مهددة بالملاريا والحمى السوداء التى يتقيها القوم بتناول السكينين كل يوم ، ورغم ذلك قلما ينجو منها أحد . إلى ذلك نوع من ذباب تسى تسى الذى ينشر :

مرض النوم : وتلك الذبابة تمرض به ، وهى أكبر حجما من ذبابة مصر وأجنحتها مخططة كورق الشجر وتراها إذا حطت يتقاطع جناحاها كالمقص ، وهذه تكثر فى الأخوار كثيرة المياه التى يظلها الشجر ويملؤها العشب ، لذلك يجب نقل الناس بعيداً عن هذه كلما تفشى المرض ، وهى لا تحط على شيء أبيض اللون قط ، لذلك قل الخطر على الجنس الأبيض هناك بسبب لونهم ولون ملابسهم ، والذبابة أعجب الحشرات فى أنها لا تضع بيضها كالعادة بل تفقس بيضة واحدة داخل بطنها ثم يخرج الجنين فيختفى فى الطين ، وعلى ذلك تكون نسبة التكاثر فى هذا الذباب قليلة جداً ، ولا يمكن أن تلد الأنثى طوال حياتها أكثر من عشر مرات ، ويجب أن تلقح أكثر من مرة فى كل دفعة ، على أن قلة تناسلها هذا زادها احتفاظاً بحياتها فتنوعت فصائلها حتى أحصى من هذا الذباب اثنان وعشرون نوعاً فى المنطقة الحارة ، وخرطومها يخترق اللحم بسهولة . وعوارض



(شكل ١١٨) كيف تجنح السفينة فى أعشاب السدود الكثيفة

المرض تورم فى غدد الرقبة يزيد تدريجاً ثم يصحبه صداع مستمر أو حمى خفيفة حرارتها ٣٨° وتجىء متقطعة ، و بعد ستة شهور يشعر المريض بميله للنوم خصوصاً فى فترات الظهر ويتزايد هذا الشعور لزيادة تأثر الأعصاب ويعرو الوجه كآبة مستمرة وتتثاقل الخطى وتخور القوى ثم يلى ذلك غيبوبة وذهول لا يفيق منها المريض وخلال ذلك يضمحل الجسد فيبدو هيكلا ، وفى سنتين يموت المريض ، ويمكن علاجها بالحقن ويعزل المريض مخافة أن تلدغه ذبابة غير مصابة فتنقل العدوى منه إلى غيره ، والعجيب أن الذبابة نفسها يفتك بها المرض فتموت بعد ستة أشهر ، والعادة أن يمر الطبيب على كل قرية ويجمع له مشايخ النواحى جميع الأهلين لفحصهم ، وإن ظهر مصاب عزلوه وبحثوا عن الأخوار فقطعوا الشجر حولها واستأصلوا العشب وأمروا الناس ألا يقربوها . وأصل هذا المرض وفد من الكنغو وكان ظهوره عقب حلول جنود أمين باشا فى بوسوجا بعد تركهم شواطىء ألبرت وتفشى سنة ١٩٠١ خصوصاً حول البحيرات وجزائرها ، وقد مات به فوق ربع المليون ، ولقد نقلت الحكومة من جزائر بحيرة فكتوريا اثنى عشر ألف

نفس إلى الداخل لتنجيهم من المرض ، وأوشك المرض أن ينتقل إلى مصر شمالا وإلى رودسيا جنوباً ، لولا مراقبة طرق الاتصال بينها .

الى النيل الأبيض : لبثنا نسير شمالا وقد استقام المجرى وأخيراً بدت إلى يسارنا فتحة فى النهر يكاد يسد العشب عالبها ، ولما أن جانبتها ظهرت فى امتداد إلى الآفاق ناحية الغرب ، وكنا نرى الضفاف إلى شمالنا وجنوبنا ، وكان الماء راكداً ليس للتيار فيه من أثر ، وتلك هى بحيرة نو أو مقرن البحور ، مصب بحر الغزال ذاك الذى لا يمد النيل بشىء يذكر رغم سعة حوضه وتعدد روافده . أخذنا نميل إلى الشرق داخلين إلى بدء النيل الأبيض ، ويظهر أن بحر الجبل لا يصب فى البحيرة بل إلى شرقها بقليل ، هنا انفسح المجرى وأخذ العشب فى القلة ، وقد مررنا على مرسى هام هو (تونجا) بمخازنها الحديدية تشرف على النهر وأخصاصها النائية ، ومنها يمتد طريق إلى تالودى عاصمة جبال النوبة لذلك كانت شهرتها التجارية ذات شأن يذكر ، وغالب السكان هنا من قبائل النوير والنيام نيام الوافدين من بحر الغزال إلى غرب بحيرة نو .

والنوير : يشبهون الدنكا فى أجسامهم ولهجتهم ولو أنهم أضعف بنية يسيرون عرايا ولونهم أميل إلى البياض فكأنهم منا ويضعون عقداً من الخرز حول الخصر إلا أن الزوج لا يصح له أن يقابل حماه إلا بعد أن يغطى عورته وأكواخهم أقل تنسيقاً من جيرانهم وهم يلطخون جسومهم بالرماد ، وكذلك وجوههم ، ولا يتعهدون شعورهم بل ينفشونها فى مقدم الرأس ويقصونه فى خلفها والنساء يكورنه فى أشكال مختلفة ، وكنا نرى على أجسادهم خطوطا من التجريح البارز فى الصدر تتلاقى فى الظهر عند نهاية العمود الفقرى ، ويعمل هذا التجريح بمدية من العاج منذ الصغر ، ويقولون بأن الآباء لا يضربون أبناءهم تأديباً بل يكلفون الغير أن يفعل ذلك لأن فى ضرب الأب إذلالا للصبى ! وعيونهم تبدو



(شكل ١١٩) بعض آيات التحمل عند النوير

حمراء بسبب الدخان الذى يصعدونه حولهم من إحراق روث البقر ، وهم مشتتون
فى جماعات صغيرة أخصهم حول بحر الزراف والسوباط وعلى بحر الجبل بين حلـ
نوير وغابة شامبى وعلى بحر الغزال وراء بحيرة نو ، ورغم ميلهم الشديد للغارات
والحروب لا يوحدون صفوفهم كما يفعل الشلوك ضد أعدائهم ، ويعرفون بالغـدر
والقسوة ، ومن أخص أعمالهم الصيد والرعاية ، ومن صناعاتهم العجيبة عمل غلايين
التدخين فالدواة من طين تتصل بها أنبوبة طويلة من الغاب وفى ناحيـة الفم كر
من القرع ، ويزرعون الطباق بكثرة لـكنك تعجب إذا علمت أن أغلب الطباق
الذى يحرقونه مزيج من أعشاب المناقع والفحم وروث البقر ، وجراب الطباق أعجب
فهو قطعة من خشب (أمباش) طولهـا متر وسمكها نصف قدم وفى تجويفها يحمل
الطباق ويقعر وسطها لـكى تمسك فى اليد وتستخدم فى الدفاع ، ويستعملها القو
وسادة ينامون عليها ليلا وجميعهم يدخنون هكذا نساء ورجالا . وطعامهم يوضع ف
أطباق من خشب ، ويتناولونه بواسطة أصداف البحر ، ولا يستخدمون اليد
كالدنكا والشلوك وأحب الغذاء لحوم الحيوان البرى كالتمساح وفرس الماء ثم الذر

واللبن وهم كالدنكا يحبون دماء البقر لكن بعد غليها ، وساعة الأكل ينفصل الذكور عن الأناث ، ويصطف كل جيل متقارب السن معا ويوزع عليهم الطعام وبعض المريسة ، ويلبسون فى اليد سواراً من عاج أو سلك من طيتين يبرز منهما خطافان يستعملان فى الدفاع وفى تأديب الزوجات . وطريقة التجريح أن تحصر قطعة اللحم بين مقبض من الخشب ثم تجرح بمدية ويصب عليها الماء البارد كل يوم حتى تتصلب ، وهم يصيدون الفيل فى الحفر التى تغطى بالعشب أما سائر الحيوان فباشعال النار فى العشب من حوله فى مساحات شاسعة ، وتلك الطريقة خطرة لأنها تتلف جماهير هائلة من الحيوان وقد تهدده بالانقراض .

وإذا بلغ الغلام الخامسة عشرة يحلق رأسه وينام على ظهره ثم يوضع رأسه فى حفرة ويتقدم رجل ويجرح جبهته ستة جروح متوازية تبدأ من الأذن اليمنى إلى اليسرى ، ويغسل الدم بريشة يبللها بالماء البارد ثم يعزل فى كوخ خارج القرية حتى يشفى فيهيم فى البرارى وحده أياما كى يقوى ويألف الشدة وإذا ما نجح فى صيد زرافة بحربته دون أن يساعده أحد عد رجلا فيعود إلى قريته ويساهم فى بقر القبيلة ويعطى حربتين ثم يتزوج ويقام له كوخ خاص ، والعادة أن يعمل ذلك مع الشبان متحدى السن فيخرجون للصيد سويا ثم يعودون إذا ما أنجزوا تلك المراسيم ويجب على أفراد ذاك الفريق أن يخلصوا لبعضهم ويتعاونوا على العدو وعلى إقامة الأكواخ وعلى الصيد وعلى الحصول على مهر الزواج ، والنوير يعتقدون فى روح عليا خلقت الدنيا ولهم فكرة مبهمة فى الحياة الأخرى ، وهم يدفنون موتاهم بعد رش المقبرة بمزيج اللبن والمريسة ويوضع بجانب الجثة غليون التدخين ليتسلى الفقيد حتى يصل إلى عالم الأرواح ، وجثة الزعيم تطلى بالزبد وتوضع على قطعة من خشب وتدفن سراً خشية أن يجد أعداؤه طريقهم إليها فينتقموا منه ، وأعجب مقابر وسط إفريقية جميعا مقبرة (هرم دنكور) التى يدفن بها أحد أطباء السحر علوها ١٢ قدما وفى قمتها حربة تعلوها بيضة نعامة وبعض ريشها . فمن أين

جاءتهم فكرة الأهرام، أكانت لهم علاقة بمصر؟ وهم يعتقدون أن مناقع بحر الجبل يقطنها نفر من أفاعى الجن طول الواحدة أربعون قدما ، وفى أذنابها قرون مخيفة ، والعادة أن يحمل الواحد منهم حربتين واحـدة للحرب ، والأخرى لصيد السمك، وقطعانهم أهم شىء لديهم ، ولا سبيل إلى جباية الضرائب الحكومية إلا على الماشية كأن تجبى على كل زريبة تؤوى ثلاثين رأسا ثور فى السنة وزعماؤهم هم المكلفون بذلك ، وهم من أشد المتوحشين قسوة وأصعبهم مراسا وحتى



(شكل ١٢٠)
عادة من حسان النوير ذوات القوام الشامخ

حملات الحكومة التأديبية التى ترسل إليهم إذا ما اقترفوا جرما لا تحدى قط إلا إذا سلبت الحكومة قطعانهم ، وأنشط ما يرون عقب الفيضان وقت أن كنا هناك ترى الواحـد منهم أو الاثنين فى زورق من منقور الشجر يتلمس الحيران ليصيد ما تخلف من السمك بعد نزول الماء ، وأظهر شجر المنطقة الطاق والهجليج والحروب ومن الأخير يتخذ نساؤهم الزيت الذى يتدهنون به للتجمل أما الأول فللصمغ والثانى للخشب وكلاهما شائك ، وللهجليج ثمرة صفراء يأكلها القوم إبان القحط رغم أنها مرة المذاق ، و يستمدون الماء من حفر يقومون عليها حتى ينز ماؤها ، وهم يستقون منها رغم قذارتها ثم يغطونها خشية التبخير .

والنيام نيام : اسم قبائل بحر الغزال ، ولا ندرى من أين جاء هـذا الاسم إذ أن غالب القبائل هناك يحملون لقب (زاندى) وهم قصار القامات لا يزيدون على خمس أقدام إلا نادراً ، وذلك بسبب قصر سيقانهم ، وهم يزينون بالتجريح ويتعهدون شعورهم طويلا نساء ورجالا ، ولا يلبس نساؤهم شيئا ، بل يدلون حزمة من عشب على العورات ، أما الرجال فيلبسون أزاراً من جلد ، وهم مهرة فى صيد الفيل ، سلاحهم الحراب والخناجر التى يلقون بها على بعد قصيب الغير ، ويحاربون فرادى وهم مختبئون وراء الشجر ويلقون سهامهم وحولها حزمة من عشب سريع الاشتعال لاحراق أكواخ عدوهم ، وهم أذكى من القبائل الأخرى وأميل إلى المرح وهم يدفعون مهور زوجاتهم بالحراب لا بالبقر ومتوسطه عشرون حربة ، ونساؤهم أميل نساء السود للنكاح ، وكثيراً ما تطلب المرأة إلى رجل غير زوجها أن يأتيها ويعلم الزوج عنها ذلك وهى تحتج لديه بأنه أقدر منه على هـذا العمل ، وكثيرا ما يأتى الأخ أخته أو يتزوج الأب بنته ، والعفاف عندهم والبكارة لا قيمة لها ، وغالب السود من الوثنيين الهمج كذلك . وللفتاة عدة أصحاب قد يزورونها فى مقصورتها ، والفتيات تخصص لهن مقصورة فى كل بيت ويختلى الواحد بها ويراه الأبوان ولا ضير فى ذلك ، والشهوة عند السود قوية جداً ، ويزيدونها قوة بعادة التدليك الذى يقوم به الخدم للزوجة والزوج كل ليلة ، وبعد تعهد كل عضلات الجسد بالأدهنة المختلفة تقوم المرأة وتشعل النار وتطلق البخور مما يثير الميول الجنسية .

ولا تزال أمم النيام نيام تتهم بأنها من الأمم الذئابية آكلة لحوم البشر وكان زعيم قبيلة (مابجيسو) فى أقصى الغرب على حدود الكنغو كلما أعوزه اللحم قصد مع رهط من أخصائه أكواخ بعض زوجاته وعددهن ألفان وهناك يقتل من الناس من لاقاهم زائرين ويأكلهم ، وهذا الزعيم مات قريباً وابنه الحالى (أوكوندو) له ١٧٦ زوجة فقط .



(شكل ١٢١)
الخصر الأهيف والشفاه الممدودة عند نيام نيام

ولا يزال كثير من مواطن النوير والنيام نيام فى معزل عن العالم الخارجى ، وليس للحكومة عليها أى سلطان ، ولهم هناك جمعيات سرية لا يجرؤ أحد أن يخالفها أو ينم عنها وإلا قتل غيلة بالسم ، وكثيراً ما كشف الغرباء السم يدس لهم وهم فى طريقهم إلى تلك الجهات ويسمونها جماعة Bili يرأسها سحرة مشهورون وترمى إلى حماية أعضائها واغتصاب ما يشاؤن وإقامة شعائر مخيفة يستخدمون فيها المخدرات والفتيات والضحايا البشرية ، وهم يستلبون بنات كثيرات فان بحث عنهن الآباء قتلوا بفعل السحر ، وكثيراً ما يختفى بسببهم زعيم هو وعائلته ، وفى بيت الزعيم تقوم حفلات الرقص حول نار موقدة ، ولهم جواسيسهم وكلمات السر الخاصة بهم بحيث يستحيل على البوليس تعقبهم وتلك الجماعة تمتد إلى بلاد الكنغو البلجيكية وفرنسية .

الى السوباط : أخذ النيل الأبيض فى الاتساع والهدوء ، وقد اختفى البردى والغاب الطويل ، وأضحت الجوانب أرضاً مبسوطة إلى الآفاق يكسوها عشب برى قصير ، ولا يعترض هذا البسيط الأخضر سوى بعض الشجر المنثور ، على أن النهر فى وسطه يغص بجاميع النبت وورم العشب فى كتل مختامة الحجم وهى

التي يدفع بها بحر الجبل إلى هنا لذلك كانت تعوز النهر النظافة وأخيراً لاقانا نهر سوباط بزاوية قائمة في تيار هادىء يبدو على بعد أملس كأنه النيل الأبيض لكنا لما جزناه لاحظنا تغييراً في لون الماء وغزارته ، فقد كان جانبه الأيمن عكراً لكنه يغاير طمى مصر في أنه أميل إلى الحمرة ، وإلى اليسار ظل ماء النيل الأبيض رائقاً إلا في بقايا النبات المنحل الذى يكسبه لوناً خفيف الحمرة ، وبعد قليل ساد ماء السوباط العكر ، وكان قد هبط فيضه إذ ذاك أما اتساعه فمحدود ضيق إذا قورن بنيل مصر ، ومن هنا بدأنا نرى جرفا طينية للنهر واضحة ولو أنها لم تكن متصلة بل تخللتها بعض المناقع ، والجوانب يكسوها عشب كأنه الشعير وقد جزنا خرائب التوفيقية التي كان لها شأن يذكر من قبل لكنها أهملت تماماً شأن سائر المدائن المصرية العريقة وأقبلنا على :

الملكال : عاصمة أعالي النيل ، ظهرت مدينة كبيرة ذات مبان ممدودة وحدائق منسقة تطل على النهر الذى كان يزينه عقد من بواخر غالبها لمصلحة الرى المصرى ، والمدينة محطة الرى المصرى الرئيسية ، تقوم فيها مكاتبه ومساكنه مشرفة على النهر في هندسة أنيقة ، ومن ورائها مدينة الأهالى في مجموعة من أكواخ غالبها دائرى مخروطى من جدائل القش يكسى بالطين ، وفي طرف من المدينة المطار الذى ترسو عليه سفائن البريد الجوى الامبراطورى وإلى جانبه دار المديرية والمركز ، وخلفهما مساكن الموظفين من الانجليز ، وبين قسم المديرية وقسم الرى المصرى يقع السوق في كتل من المبانى الساذجة تغطيها سقوف من حديد ، ولها شرفات مظالة تفتح الحوانيت أبوابها عليها ، وغالب المتاجر في أيدى اليونانيين ونرى في الحانوت الواحد كل شيء على صغره ، من بدالة وأقمشة وخبز وطعام ، وسكان المدينة أخلاط منهم السودانيون المسلمون ويظهرون في ملابسهم البيضاء الفضفاضة وعمائمهم الكبيرة ، ومنهم مشايخ البلد يسيرون وراء مأمور المركز وهو ضابط سودانى ، أما الهمج فغالبهم من الشلوك .



(شكل ١٢٢) هيئة المحكمة عند قبائل بحر الغزال

ولعل أجمل ما راقنى بالمدينة القسم المصرى ذاك الذى تقوم قصوره تحفها حدائق غناء وتزود كلها بالمياه المرشحة من مضخات آلية وتضاء بالكهرباء وتزود بالأثاث الفاخر فى مظهر يدل على السخاء المصرى العظيم ، والغريب أن أغلب الموظفين من غير المصريين ، وتحت تصرف القسم أسطول كبير لا عمل له إلا القيام برحلات إلى مناطق السدود وما جاورها ذهاباً وجيئة ، لم تفدنا عما يعادل نفقات سنة واحدة طوال السنين التى خلت ، ومن رأى غالب المهندسين المصريين الذين تحدثت إليهم أنها أبحاث ضائعة لا خير فيها ، على أنها إحدى وسائل التفريج عن الكربة التى يعانيها السودان اليوم ، ولم يقف سخاؤنا عند هذا الحد بل أنهم شرعوا يقيمون فى الخرطوم دار عمارة للأسطول المصرى زرتها وستكلفنا عالياً ، ولا يكاد يرى أحد ما وراءها من فائدة !

غادرنا الملكال فكانت الشواطىء تزينها أشجار من (نخيل دايب) فروعه تبدو فى مراوح مسننة (كاللاتانيا) وله ثمر أصفر فى حجم النارجيل ذو لباب شبيه

بالشمام شكلا وطعماً ، وهو غذاء هام للأهالى إلى ذلك جذوعه التى ينقرها الناس فى زوارق لا يزيد عرضها على ذراع وقد يبلغ طولها الأمتار ، وكثيراً ما كنا نرى الرجل يمسك بمجذاف قصير و يسير به سراعا فان قارب السفينة انزوى بزورقه فى العشب ، وهناك نوع من الزوارق هو حزمة من عاب اسمه (امباش) تربط مدببة من طرف ، وعريضة من الآخر يرميها الرجل فى النهر ، ويجلس وسطها ورغم الماء الذى يتخللها فهى لا تغرق لخفتها ، و إذا ما انتهى الرجل من صيده صعد البر ، وحمل زورقه هذا على كتفه ، بعد أن يجففه فى الشمس برهة .

لبث النيل طويلا فى اتساع عادى هو دون اتساع نيلنا فى مصر فلم يؤيد ما كنا نعلمه من مداه الشاسع على أن العشب كان يحف به وكنا كلما قاربناه وصادمته السفينة قفز منه تمساح أو اثنان ، ويظهر أن ذلك العشب داخل ضمن اتساع النهر يؤيد ذلك أنه كان يخلو من الشجر إلا عند الأفق ، وتلك المتسعات لا شك سيغمرها ماء النهر عقب إتمام خزان جبل الأولياء ، و يصل الماء إلى جوار الأراضى الخصيبة النائية ، ويمكن من ريها على حسابنا بسهولة وقد أخذ النهر يتشعب بين جزائر متعددة عند إحداها رأينا كودوك مقر ملك الشلوك .

الشلوك : (عمالقة السود وأكثر الهمج وحشية) طائفة من الزنج تحل قسما من منطقة السدود فى أعالى النيل ، ويحكمهم ملك يسمى (Ret) ولا يزالون يتعقبون ملوكهم إلى الجد السادس والعشرين ، ودولة هذا الـ (Ret أو Mek) كما يلقبونه تمتد غرب النيل بين كاكا وتونجا وشرق النيل من جنوب كودوك إلى التوفيقية وعلى ضفتى السوباط الأدنى ، ولهم نحو ١٣٠٠ قرية من أكواخ مخروطية من القش والطين يسكنها نحو أربعين ألفاً . وهم خاضعون تماماً لملكهم الذى يبلغه الجواسيس كل أمر جل أو صغر أولا بأول . ومن أقصى حدود بلاده إلى مركزه المختار فى فاشودة على بعد ستة أميال من كودوك . وهم معروفون بالقوام السمهرى و بطول السوق و بروز عضلاتهم ، جلدهم لامع براق ، والمقاتل منهم لا يرى خارج



(شكل ١٢٣) بعض زينة الوجه مدو وكأنه القمد

كوخه بدون حربته الطويلة ذات السن العريض . ومعها حربتان قصيرتان وسلاح من خشب كأنه الوتد مدبب الطرف ، ويستخدمون التروس بعضها من خشب مستدير من جلد فرس الماء ولا يحملون الأقواس والسهام .

وأخص مايسترعى النظر شعور الرجال التى يرسلونها تنمو ثم يشكلونها أشكالا غريبة بعد أن تبطن بروث البقر . أما النساء فيحلقن مقدم الجمجمة ويتركن شعراً قصيراً جداً فى مؤخرها فتبدو المرأة كأنها صلعاء . ويتعهد شعر الرجال (حلاق) عمله محترم لديهم يتوارثه عن أجداده وهو فى شهرته ومقامه يلى الرماة والمقاتلة ، يأتى الرجل ويجلس أمام كوخ الحلاقة فى الشمس المحرقه ، ويبدأ الرجل غسل الشعر ونفشه ببول البقر ثم يترك مدة فى الشمس تناهز نصف ساعه وأنت ترى القمل والحشرات تجرى على رقبة الرجل ، وأيدى الحلاق والرائحة الكريهة منبعثة منها تعبق الجو . وخلال ذلك يعد الحلاق المادة التى سيشكل بها الشعر . فيأتى بإناء من فخار ويخلط به بعض الطين والروث والبول والصمغ ويعجنه ثم يبطن به الشعر فى مهارة فائقة ، ثم يجففه فى الشمس ويأخذ فى قطع زوائد الشعر لإعدية

حادة ويدهن جسد الرجل ببول البقر الذى يستخدمونه جميعاً رجالا ونساء . بعد ذلك يرش فوق الشعر مسحوقاً من حرق روث البقر ممزوجاً بالثرى ليأخذ الشعر لونه المطلوب . والعادة أن يتعهـد الحلاق شعر رجلين معاً لكى يعرف كل نظام شعره إذا ما رأى شعر أخيه ، ولا تستخدم المرآة عندهم . وأجر هذا العمل شاة أو معزى ، ويغلب أن يتعهد الشبان شعرهم هكذا قبل الزواج والحرب ، وقبل الرقصة الدينيـة . ولـكيلا يفسد نظام الشعر إذا أحس إيلام الهوام التى تتزايد فى رأسه كل يوم يضع الحلاق أثناء العملية إبراً من الخشب فتخلف خروقاً منها يمكن للرجل أن يحك رأسه بعصى مثلها . وأصعب ما يعانيه الشخص من شعره ليلا إذ ينام على قطعة من خشب يرفعها حاملان وهو لا ينجو من هذا العـذاب ولا من عذاب القمل إلا إذا مات أحد أفراد العائلة ، فعندئذ يجب حلق الرأس وتركها حتى ينمو الشعر ويستأنف تعهده من جديد .

ومما يعانيه شبانهم الاختبار الذى يجوزونه كى يحرزوا لقب المقاتلة فى سن الخامسة عشرة فتصحب كل واحد منهم خليلته ، ويذهب الجميع إلى ضفة النهر ، وتمسك كل خليلة برأس صاحبها وتميلها نحو النهر وتأخذ فى تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم . وسرعان ما يجىء طبيب ويشق جبهة الغلام بمدية حادة فلا يجرؤ واحد أن يتأوه وإلا كان خزياً كبيراً ، وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم فى النهر وتنتهى الحفلة . وكل صبية هذا الجيل يلقبون باسم حيوان معين يتخذ شعارهم كالأسد أو الأفعى وما إليها ، وكثيراً ما تقطع المدية شريانا فيموت الصبى من كثرة ما يفقده من الدم ، والذى يعيش منهم يصبح مساهماً فى بقر القبيلة ويخول له الحق فى الاشتراك فى الرقص العام ، وينظر إليـه الجميع نظرهم إلى الرجال ، وقبيل اجتياز هـــذا الاختبار يعتبرون أطفالا مفتقرين إلى حماية الرجال وينامون فى أكواخ الخدم .

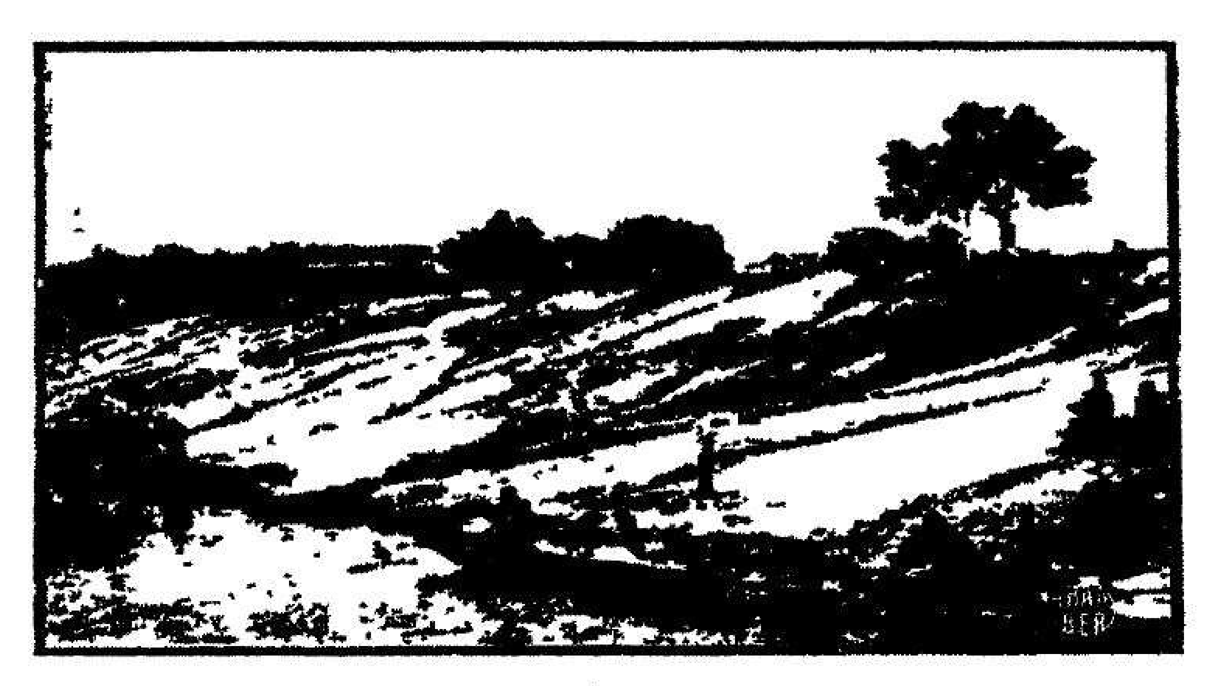
والشلوك أهل مياه وأنهار لا عمل لهم سوى الرعى وصيد الحيوان والسمك ،



(شكل ١٢٤) زينة الشعر عند رجال الشلوك

فهم يسيرون فى المياه بسرعة حتى ولو غاصوا فيها إلى أكتافهم . ولا يذبحون ماشيتهم قط ، بل يستمدون منها اللبن . و بعد ذلك تستخدم بدل النقود فى المبادلة وهى لديهم مقدسة و يبتاعون من النوبيين شمالهم الفول السودانى وهو غذاء رئيسى عندهم وقلما يزرعون شيئا ، اللهم إلا بعض الذرة والطباق فهم كسالى ، وكل عائلة تحل كوخين أو ثلاثة يحوطها سور وفى جانب داخلى اصطبل ، والبيوت نظيفة تحوى ثلاثة أكواخ واحد للزوج وزوجه والثانى للطبخ والثالث للخدم والأولاد ، وأحب مشروباتهم المريسة ، وزوارقهم جذور منقورة من نخيل دليب ، أو أعواد توثق فى شكل مجوف يحمله الرجل إذا شاء ، والشلوك إذا صادوا فرس المـاء حفظوا لحمه لوقت الحفلات ، و إذا صاد أحدهم فرساً بدون مساعدة غيره لبس سواراً من عاج حول ذراعه ، وكثيراً ما يهاجمهم وحش كالأسد والفهد فيرديه الواحد منهم بحربته وعندئذ يأخذ جلده ليحفظه و يلبسه فى الحفلات ليدل على بسالته .

والشلوك يعيشون فى قرى مكتظة عكس أم البارى والنوير الذين لا تزيد مجموعتهم على عائلة واحدة ، فالشلوك لهم نظام عائلى وثيق وقانون موحد ، لذلك قلما تقتتل شيعهم وكثيراً ما يستعملون السم الذين يلطخون به سهامهم فى قتل الغير وملكهم لا يذوق طعاماً ولا شراباً إلا بعـد أن يتناول منه أحد تابعيه قبله ، أما زينتهم فعقود من خرز ملون تلبس صفوفاً بعضها فوق بعض ، وقد تغطى الرقبة كلها وقسما من الصـدر ، وهى دليل الغنى والجاه ، و يلبسها الرجال أيضاً ، واللون الأزرق عندهم بشير الحظ السعيد لذلك يلبسه الأطفال ، وكلما كثر الخرز دل على جاه الأبوين ، و بعض الشبان يلبسون سواراً فى الساعد والعقب ، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسداً أو فهداً أو فيلا ، والطبخ والزراعة وعمل الخزف والمريسة وحمل المياه من عمل النساء ، أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الأعمال المهينة إلا إذا طعنوا فى السن ، ولعمل المريسة يوضع بعض الذرة



(شكل ١٢٤) صفحة النيل فى ملكال حيث يقام مبانى الرى المصرى

فى سلة مع مزيج من مسحوق روث البقر والترى وكلها توضع فى ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر ، ثم تنقل إلى جرة من فخار وتغلى فى الماء ويؤخذ السائل العلوى ويبرد ثم يشرب ، وكلما نضبت أضيف الماء إليها ، وأعيد غليها وهكذا ، وهذا الخمر قوى مسكر .

ويخال بعض الناس خطأ أن اللحم أهم غذاء لديهم على أنهم لا يأكلون إلا لحوم السمك وأفراس الماء ، أما لحوم البقر فلا تؤكل إلا فى الحفلات . ومن أطعمتهم المحبوبة خليط من مسحوق الفول السودانى والذرة والسمك النىء يطهى فى جرة من فخار ، وكذلك لحم فرس الماء يمزج بالفول السودانى وعشب اسمه صفصاف . وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة فى الليالى القمرية خصوصاً ليلة البدر ، وكلهم يرقصون والحراب فى أيديهم ، وقد لعبت الخمر بلبهم ، ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التى تتجمع بيوتها فى شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة والطبول تقرع من وسطها فى باكورة الصباح اعلاناً للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة ، وكلما اختلفت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه أهو للمطر أم الحرب أم الدين أم الفتيات أم الموت ، ورقصة

الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات إذ ترى الفتيان قبل الغروب مرحين انتظاراً لملاقاة فتياتهم و يصرفون زهاء الساعة فى تمهد شعورهم ولبس جلود القطط والأنمار والتحلى بصنوف لا تحصى من الخرز والودع وما إليها ، وقبيل الغروب تفد الجماهير شباناً وشيباً وتصف جرار المريسة بحجومها الكبيرة وسط الدائرة و إلى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ فاذا بزغ النور بدا المسنون من النساء والرجال فى دائرة ، ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين ، و يظلون مرحين يتحادثون حتى يقبل الزعيم ومن خلفه أتباعه يحملون الطبول وأدوات الموسيقى فينصت الجمع و يتداخل الفتيان والفتيات فى صفين ثم تعزف الموسيقى والطبول ، و بين آن وآخر يرتل الكل أغنية . وما تكاد تنتهى حتى يعلو قرع الطبل وتموج صفوفهم و بيدهم الحراب التى تتلألأ فى ضوء القمر . ثم يسرع أحدهم إلى الوسط مخترقاً صفوف الشابات والشبان وهناك يتمايل و يهاجم كأنه يصارع وحشاً ثم يعاد الغناء ثانية ، و بعد ساعة على تلك الحال يشرب الكل المريسة ، و يبدو صف آخر من الراقصين بعد انسحاب الأول الذى يظل عاكفاً على جرار المريسة يرتشف منها ما يشاء ، وأخيراً يختلط الكل فى الرقص تاركين الحراب ، و يتقدم كل شاب فى صف الشبان إلى فتاة فى صف الفتيات ، وترفع السواعد بمحاذاة الأكتاف و يقفز كل زوج قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته ، والفتيات يظهرن دلالهن و يحاولن أسر الرجال واستمالتهم بما يفوق ما تأتيه المرأة الغربية فهى مثلاً تبرز ثدييها بين آن وآخر ، ثم ترفع عنهما قطعة القماش المهفهفة ثم تعيدها ، وكثيراً ما تفعل ذلك أمام القاضى فى المحاكم فتؤثر فيه ، وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهم فيختلط الحابل بالنابل ، و بمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين فى السن يأتى الشبان والشابات بما لا يتصوره العقل بل و بما يستنكره الخلق الفاضل القويم .

الزواج : ولا تتزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة ، و بفضل رقصة الفتيات



(شكل ١٢٦) لحم أفراس الماء شهى لديهم نيئاً ومطهياً وهم يصيدونه بحرابهم

يمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان ، والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان . وللرجل شراء ما استطاع من الزوجات ، لأن ذلك دليل الجاه والغنى ، وقبل أن تتم صفقة الشراء هـذه يجب أن توافق هى على هذا الزوج ، وفى العادة تكون قد رغبت فيه إبان حفلات الرقص ، وهى تحب أن يكون غنياً بقطعانه ومزارعه ، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذى يستطيع بماله أن يشترى زوجات كثيرات غيرها . وقبل إتمام الزواج تقدم الهدايا (الشبكة) كعشر من المعزى ونبلات من الحراب وعشرين خطافاً للصيد (سنارة) وما إليها ، وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما — نظام شبيه بنظام الغرب — ففى حفلة الرقص يقود الأخ أخته إلى حلقة الرقص والخجل يبدو على وجهها ، وهناك سألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب مع فتيان آخرين من قبل ، وهى تخشى ألا تقول الصدق لأن الأخبار كلها تصل الزعيم أولا بأول . وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرع الطبول فينصت الجميع ، وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر كل واحد منهم إلى وسط الدائرة ويحكم عليه بغرامة من الماشية

والأغنام ، ومتى جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج ، أما الفتاة فلا عقاب عليها متى صدقت فى الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ، ولا عار على الفريقين من ذلك ، فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كاف وترضية حسنة . والظاهر أن هذا التصرف لا يرمى إلى منع الفساد الخلقى بقدر ما يرمى إلى تزويد الزوجين بالمال والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص .

وعند ميلاد غلام تقدم الهدايا للأب من قطعان يربو عددها بالتوالد حتى إذا ما أضحى الطفل رجلا قدمت له بعد أن يجوز (حفلة الرجال) ، و إذا مات أحدهم دفنت الجثة أمام الكوخ الذى يقطنه ، و يلف الجسم فى أفخر ما كان لديه من ثياب إن وجدت و إلى جانبها الأسلحة وأدوات الطبخ وكل ما يلزم للحياة الأخرى ما عدا أدوات الزينة . والجسم يمدد فى القبر على ظهره وتوضع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال ، ومن قش للنساء والأطفال ، و إذا مات الزعيم دفن داخل باب كوخه وأغلق سنة كاملة بعدها يهدم ، وعند دفن الميت تقام حفلة (رقص الموتى) فيجتمع الأهل وقد لطخوا جسومهم برماد من حرق روث البقر و يولول الجميع وفق قرعات الطبول البطيئة ، و يمثل الراقصون ما يدل على شجاعة المتوفى وفضله ، و يقدم الناس لأهله الطعام والشراب ، و تستهلك مقادير عظيمة من المريسة ، وقبل شروق اليوم التالى ينسى الحزن بتاتاً .

وفى رقصة الحرب يمثلون موقعة يؤخذ فيها النساء والأطفال والماشية أسرى وهذه الرقصة تقام فى أى وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداء لها فيتزين كل بما لديه من أدوات البسالة من ريش وجلود وحراب وما إليها ، و يتقدم المقاتلون ذهاباً وجيئة و يضربون الأرض بأرجلهم وحرابهم التى كثيراً ما تنثنى أو تنكسر ثم يهاجمون الأكواخ التى فيها أسراهم و يسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسط تهليل يصم الآذان مسرعين نحو الزعيم والدماء تسيل من الجروح



(شكل ١٢٧) مجموعة من بيض التماسيح بدأت فقسها على ضفاف النيل

التى تخدش بها وجوههم وجسومهم ثم يتقدم الطبيب بعد قبضمدها بعصير بعض الأعشاب .

و إذا قام نزاع بين قبيلتين أدى إلى قتال عنيف ولا تتنازل إحداهما عن الأخذ بالثأر إلا إذا تساوى عدد الضحايا من الفريقين ولا يمكن لأية قوة مقاومتهم لأنهم يلجأون إلى صيد الناس بسهامهم المسمومة .

تاريخهم : و يرجح بعض الكاشفين أنهم وفدوا من منطقة البحيرات ولم يحلوا مكانهم هـذا إلا منذ أربعـة قرون ، وفى سنة ١٥٠٤ غزوا سنار لكن غزاهم البقارة سنة ١٨٦١ وفى سنة ١٨٧٤ ثاروا على الحكومة المصرية فى السودان ، وفى ١٨٩٠ خلال ثورة المهدى ثاروا ضد تجار الرقيق من العرب والدراويش لكنهم هزموا وسيق عدد كبير منهم إلى أم درمان ولهذا السبب تجدهم يبغضون العرب ، ويظهر أنهم يمتون بصلة إلى الدنكا و بعض قبائل البحيرات مثل (كافروندو) لتقارب لغاتهم و بعض عاداتهم .

الدين : ولهم إله اسمه (فوك Fuk) قادر ومسيطر خلق كل شىء إلا أنهم

خاضعون لما يسمونه نيكوانج ، وهو خليط من الوثنية وعبادة الأجداد والأرواح ، فهم يرون أن أول جد لهم هو نيكوانج الذى يعمل وسيطا بينهم و بين الإله الأعظم الذى لا يدركه أحد وهو (فوك) فهم يقولون فى وقت الضيق (إن فوك قد غضب علينا) و يصلون لنيكوانج للشفاعة وروح هذا تحل كل ملوكهم ، و يرون روح الموتى تزورهم فى المنام وتؤثر على حياة الأطفال ، وهم يتخيلون الله دوامة هوائية تنتابهم كثيراً وتحمل الرماد عقب احراق العشب فى عمد سوداء عالية ، و يقولون بأن الله أسود اللون لأنه لا يرى و يسكن الظلام ، و إذا مات الإنسان عاد إلى ر به وعند الصلاة يقول الشلوك : يا آلهى اتركنا وحدنا ننج فأنت عظيم ، لا يمكن لأحد أن يتكلم معك أنت الله ومن تقتل منا يمت ، أنت مقر روحنا فاتركنا ننج ، والباقون يستمعون وهم منصتون وحرابهم فى أيديهم بعضهم واقف والبعض را كع ، ولتقريب فكرة الآلهة من الناس يفترضون لها وكيلا شبيها بالإنسان هو نيكوانج ، و يتوسلون إليه قائلين : نيكوانج قد أعطاك الله الأرض فاحكم الشلوك وارج لنا ر بك يجعل البقرة التى سنذبحها قرباناً مقبولا لديه ، ثم يقتلون البقرة و يغسلون دم الحربة بالماء و يخلطون هذا الماء بالروث الذى يخرجونه من أحشائها و يرشونه على الناس جميعاً ، ورأيهم فى الخلق يتلخص فى أن الله هو الخالق خلق طبقتين مسطحتين : العليا وهى السماء ، والسفلى وهى الأرض ، ثم خلق النبات والشجر ، وأول حيوان ظهر الجاموس ، ثم الإنسان وكلم الله الجاموسة قائلا : تعالى غداً أعطك حربة فسمع الإنسان ذلك وذهب خلسة لما خيم الظلام فلم يره الله فتقدم وهو يمشى على أربع و ينفر كأنه الجاموس . فقال الله من هذا ؟ فأجاب أنا من له قرون متجهة إلى الوراء فجزع الله وأعطاه الحربة ، ولما جاءت الجاموسة تخور قال الله : ألست أنت التى أخذت السلاح منى ؟ قالت بل الإنسان فأعطاها قرونه وأهاجها على الإنسان أنى لاقته .

ولما خلق الإنسان كان أحمر اللون لأنه شكل من طين النهر ثم ذهب إلى



(شكل ١٢٨) زينة الرجال عند السلوك تفوق زينة النساء

التربة السوداء وخلق الجنس الأسود ، ولما انتهى من خلقه فرك يديه فسقط الطين منها فتاتاً هو القمل الذى التصق بشعر الانسان وضايقه ، ولذلك اخترع الله الموسى للتخلص منه ، وفريق منهم يرى أن الله أمر زوجته فولدت توأمين أسود وأبيض ، وكانت تحب الأسود وتبغض الأبيض وأمر الله بتربيتهما ، وحدث مرة أن مد الأب رجله وأمر أن يلعقها الولدان فخضع الأبيض لأنه عبد

وأبى الأسود فأحب الله لذلك الأبيض وحاباه وقال لزوجه إف ابنى هو هذا وسأملكه على الأسود يبيع فيه ويشترى وسأمده بالأسلحة التى تسوده على كل شيء .

والطبقة الارستقراطية تشمل (Ret أو Met) وأولاده نيارت (Nia-ret) وأحفاده نى آريت (N-aret) وأحفاد أحفاده كوانى آريت (Kwaniaret) وهؤلاء فقط وارثو الملك ، أما العائلات المتفرعة عن الملوك الأقدمين فتسمى أوررو Ororo ولهم نفوذ عظيم .

إلى هؤلاء طبقة قوية Kujurs وهم أطباء السحر تتمثل فيهم قوة القسس والأطباء وأم نيكوانج تسمى كيى يا Kieya تتمثل فى التمساح ، ولذلك قدسوه وفى كل قرية هيكل لنيكوانج وهو كوخ باسق حوله كوخان عاليان تزين أعلاها حراب عليها بيض النعام ، وذلك لأن نيكوانج وفد من الصحراء يمتطى نعامة ، وإذا مات الملك تزوج صغار زوجاته من بعض أقربائه أما الطاعنات فى السن فيصبحن خفر المعابد ، وبنات الزعماء هن بنات نيكوانج وعند زواجهن تقدم الضحايا لزوجة نيكوانج الكامنة فى بطن التمساح فيؤخذ عنز ويذبح على حافة نهر ، وعجيب أن تفد التماسيح لأكل الدم أما اللحم فيرسل لحارسات المعابد ، وهم إذا رأوا دوامة سجدوا لها لظنهم أن الله (فوك) يسير مختبئاً فيها ، وهذه العواصف تكثر فى شهور الجفاف خصوصاً بعد اشتعال النار الذى يكثر عندئذ فى العشب والغابات .

وإذا تخلف المطر أقاموا رقصته لمدة ثلاث ليال أو أربع حول معبد نيكوانج عند الغروب وهذه هى الرقصة الوحيدة التى يلبسون لها الأردية ، والعادة أن ينتظر الزعيم (كوجور) بعد الجفاف متحيناً فرصة يرجح نزول المطر فيها ، ثم يقرع الطبول للرقص . ويصلون وهم وقوف وجوههم إلى السماء فى غير حراك ساعات طويلة ، وكلهم إيمان بأن المطر سينزل سراعاً ، وفى داخل المعابد ترى مذبحا



(شكل ١٢٩)

قبائل دار النوبة وقد زودت شعورهم بأصابع ممدة من معجون الدقيق والزبد

للضحايا من الغنم يقام من الخشب وترى فوقه بعض الطعام والمريسة يقدمها كل من أراد التقرب من الوسيط نيكوانج .

حفلة تتويج الملك : والملك Mek ينتخبه زعماء القبيلة من أفراد العائلة المالكة ، وفي يوم التتويج يفد من فاشودة إلى الضفة الجنوبية لنهرهم المقدس تحوطه مجامع الحرس بحرابهم ، ويجتمع أهل القبائل بجيوشهم سائرين من القرى نحو أسبوعين على الأقدام ، ويجب ألا يتخاف أحد الزعماء ويلبس الملك جلبابا مخططا وحزاماً مزدوج اللون الأزرق والأحمر وطربوشاً أحمر عاليا وهو شعار الملكية ثم يركب حماراً ويظهر على ضفة النهر يحوطه الجند من العمالقة وعليها الجلباب الأحمر فتحيي الجماهير الملك بحرابهم المرفوعة حتى يجلس على جلد نمر ، ويقدم أهل كاكا أقصى بلاد الشلوك شمالا عجلا أبيض ، ويقدم أهل تونجا أقصى بلادهم جنوباً فتاة

صغيرة ، والبلاد يقسمها النهر المقدس قسمين : جار Garr ولواك Luak ولكل منهما زعيم وتحت هذين زعماء القرى ، فيتقدم أهل الشمال بالثور إلى النهر فى مواجهة الملك ويهجم زعيمهم فيخترق جسم الثور بحربته ثم تتبعه سهام الناس من كل جانب فيسقط الثور ويسيل الدم إلى النهر ، ثم يتقدم زعيم الجنوب إلى الملك وبيده الفتاة عارية فيتسلمها الملك ويصيح الكل قائلين (أيوه ! أيوه !) وعندئذ يمكن لأهل الشمال أن يتخطوا النهر إلى الضفة الجنوبية ويبدأ التتويج بأن يغسل الملك بالماء الساخن ثم بالماء البارد لكيلا تؤذيه تقلبات الجو حراً وبرداً ، ثم يعامل بخشونة وقسوة من الجميع وعليه أن يطيع ويخضع لكى يتعلم التواضع ، ثم يركع له الجميع إجلالا لأنه ابن نيكوانج ، ثم يلبسونه خفاً فى قدميه من جلد فرس الماء الغفل الخشن ليمشى به على مضض فيفهم معنى الفقر والتقشف ، ثم يقدم له الخدم بعض لحم الغزال وفرس الماء إشارة إلى توافر اللحم والقناعة فى أكله ، ثم تقدم المريسة بمقادير كبيرة ، لكن عليه ألا يسرف فى شربها ليدلهم على أنه قنوع ، ثم يجرى ثلاثة شبان بحرابهم تصوب إلى صدورهم فيدفعها الملك بيده إلى تلك الصدور حتى تدمى دلالة على أنه سيحكم حكماً صارماً لكن فى عدل ورحمة ، وأخيراً يقف الملك ويخاطب الزعماء ، ثم يتقدم سائراً على الأقدام فيركع الجميع إجلالا — وهذا ما يفعله القوم دائماً كلما رأوا الملك — وهو يتكلم فى تؤدة ووقار ، فيجيب القوم بصيحاتهم (أيوه ! أيوه !) كلما فاه بعبارة واحدة .

فى النيل الأبيض : أخذنا نشق عباب النهر الذى زاد اتساعه وقربت الأشجار من جوانبه . وإن كانت لا تزال تكسوها الأعشاب القصيرة وخصوصاً أم الصوف وأخذت كتل العشب الطافية تندر كلما سرنا شمالاً ، وأخذنا نرسو على محاط صغيرة بعضها لم يزد على دير واحد وقفنا لنلتقط بعض القسس أو نلقى إليها بعض المبشرين ، ولعل أكبر المحاط : كاكا التجارية على يسار النهر ، وكان



(شكل ١٣٠)
(دار النوبة) يعتصمون بجبالهم العاتية ونراهم فى استعراض حربى

لها شأن تجارى عظيم لأنها تتصل بمديرية جبال النوبة بطريق للقوافل إلى تالودى عاصمتها ، وقد بدت أخصاص المدينة ممتدة إلى مسافة عظيمة فى الداخل وعلى النهر تشرف مبانى الحكومة ومركز المأمور وأجمل ما كان يزينه العلم المصرى ، ثم دار التلغراف ومساكن الموظفين الذين أنقص عددهم اليوم جداً قصداً وتوفيراً ، هنا أدهشنى رخص الدجاج والخراف ، فقد رأيت رجلا يساوم فى شاة كبيرة انتفخ بطنها بالحمل فبدأ بخمسة قروش ، وكان صاحبها مستعداً أن يبيعها بعشرة أما الدجاجة الكبيرة فبقرش واحد . وقد ألفت نظرى استخدام القوم جميعاً للسواك فترى الواحد يكلمك والسواك فى فمه يدعك به لثته وأسنانه بعنف شديد عناية بالأسنان التى يتمدحون فيها صفاء لونها ، ولقد نظر إلى غلام من الدنكا فى غاية شامبى فلم تعجبه أسنانى ، ونظر إلى صديق لى كانت أسنانه أكثر لمعاناً وأنصع بياضاً ، وقال له : أنت رجل عظيم لأن أسنانك بيضاء . على أنهم يكثرون من البصق فى شكل منفر . ولقد استرعى نظرى هنا قوم من السود هم أقصر قامة وأغلظ أجساداً من الشلوك ، وكان بعضهم يلف على جدائل شعره أصابع بيضاء

علمت أنها غذاؤه اليومى يعجنه حول شعره و يأكل منه أنى شاء ، وذلك لديهم أسهل حملا خصوصاً وأنهم عرايا ليس لديهم من جمب أو جيوب ، وهذا الشعب يطلق عليه اسم :

دار النوبه : الذين يقطنون الجبال الجنوبية من كردفان ألجأهم إليها عرب البقارة والهوازمة الذين طاردوهم جنوبا عند ما وفدوا من بلاد المغرب وحلوا غرب النيل الأبيض ، والقوم يتحصنون اليوم فى تلك المفاوز بحيث لا يستطيع أحد غزوهم قط ، ومما علمته عنهم : أن الزوجة لا تقبل أن تتزوج من رجل لم يقتل رجلا غيره ، وهم يسيرون عرايا إلا المتزوجين نساء ورجالا ، و يحلقون شعورهم إلا شعر الناصية الذى يتركه الكل منفوشاً ، وهم يسيئون الظن بالغريب بسبب ما قاسوا من تجار الرقيق ، ومن أشياع المهدى الذين كانوا يهاجمونهم ويسوقونهم رقا ، وكل قبيلة منهم تحتل ربوة تتكلم لهجة لا يفهمها جيرانها من الربى الأخرى ، وغالبهم وثنيون ، ومن عاداتهم أن الطفل بعد ميلاده يجتمع أهله فى حضرة القسيس وتذبح دجاجة يغمرها الرحل فى الماء و يرفعها وهى تقطر ماء فوق رأس المولود ثم يعطيه القس اسما يكرره أهله ، ثم يحمله الرحل إلى بيت العفاريت و يبصق عليه لتحل فيه بركته ، وقد أخبرنى أحد الانجليز أنه زار أحد هؤلاء القسس مرة وبمجرد تعرفه به بصق القسيس على صدر الانجليزى ، وتلك خير تحية يبارك بها الناس . ومعبودهم فى السماء يسمونه (بعل) يباشر عمله فى الأرض بواسطة أرواح أجداد الناس (آرو Arro) التى تراقب كل شىء ، وتنزل الثواب والعقاب ، و يعتقدون أن الآخرة دار سعادة للجميع يحشر الناس فيها جميعاً ، و يتزوجون بدون قيد ، ولا يلدون مطلقاً ، وما الدنيا إلا دار تجربة لكنهم لا يعتقدون فى جهنم ، والجنة طبقات حسب أعمال الناس ، وكل روح يقيم له وكيلا فى الأرض هو القسيس (كوجور) يتخذ السحر سلاحا له و يقع فى المرتبة بعد الملوك . و يزعمون أن حكم القسس الذى ساد مصر القديمة حيناً

جاء من سلائل هؤلاء النوبيين قبل أن يبعدوا عن حدود مصر هكذا . فإذا مات زعيم ديني انتخب القوم خلفاً له ، وفى الاجتماع يأتى كل من يأنس فى نفسه كفاءة المنصب لتختبر الأرواح قوته ، وبالالهام ينتخب الخلف وهو فى حالة إغماء ثم يمشى متكئاً على كتف الملك إلى بيت الروح إشارة إلى التعاون بينهما ، ثم يظهر للناس ، وإذا رفضه الروح كان غير أهل للعمل هذه المرة ، وله أن يرشح نفسه مرة أخرى ، والعادة ألا يحل الروح جسم شاب بل كهل مسن ، ويسود الجمع ساعة الحفلة ذهول شامل كأنه تنويم مغناطيسى .

(شكل ١٣١) صبيان كردفان من البقارة

وأخص ما يفصل فيه القسس بين الناس حوادث القتل والسرقة ، وفى الأولى يجب على أهل القاتل أن يقتلوه أو يقدموا الفدية التى يطلبها أهل المقتول ، وفى السرقات يستدعى أهل المكان ويخبرهم القسيس بأنه إذا لم يرجع الشىء المسروق قبل أن تشرق الشمس سبع مرات سينزل به عقاباً أليماً ، وكثيراً ما يجدون المسروقات فى بيت الروح فى ظلام الليل ، ولا يجوز للملوك ولا للقسس أن يزينوا بالذهب والحلى رغم توافرها لديهم . والقسيس يزور البيوت

ويبصق فيها ليباركها وتقدم له المريسة ، وفى وادى الملوك عندنا نقوش تؤيد صلة هؤلاء بأجدادنا من قدماء المصريين .

ومن أعجب عاداتهم حماية اللاجىء المستجير بهم فهم يضيفونه ويكرمون وفادته مهما طال مكثه بينهم ، وإذا قتل فى نزاع شجر بينهم يطالبون بدمه حتى ولو كان اللاجىء قاتلا .

ولما كانت المطالبة بدم القتيل لازمة أدى الدفاع عن القاتل إلى القتال بين القبائل ، وغالب ظنى أن تلك العادة نقلوها عن العرب ، وهم يقوون العلاقات بالدماء ، بأن يجرح الرجل ذراعه فيسيل الدم ويخلطه بدم رجل آخر أتى العمل نفسه ، والنوبى يتزوج أى عدد شاء من الزوجات ما دام قادراً على دفع المهر ، وهو بين عشر بقرات وأربع عشرة ، وإذا دفع ربع المهر خول له أن يخالط الزوجة لكن فى بيت أبيها حتى تلد طفلا ولا يأخذها إلى بيته إلا بعد دفع الربع الثانى ، وإذا بلغ الأطفال سناً معينة وجب تسديد كل المهر ، ويغلب أن يدفع هذا مما يتسلمه الأب مهراً لبناته وإن لم يخلف من الأناث وجب على الأولاد أن يشتغلوا حتى يسددوا باقى مهر أبيهم وإذا ماتت الزوجة ولم تعقب طفلا طالب زوجها بنصف المهر والعادة ألا يقارب زوجته إلا بعد ميلاد الذكر بنحو اثنى عشر أسبوعاً وبعد ميلاد الأنثى بنحو ثمانية أسابيع ، وإذا مات أحدهم ولول النساء وبقيت الجثة يوماً كاملاً قبل الدفن لاعتقادهم أن الروح ترفرف فوقها — وتلك عادة مصرية قديمة — قبل أن تصعد إلى السماء (Twala) وتدفن الجثة نائمة على جانبها أو واقفة ، وجبالهم مخروطية الشكل ذات مغارات عدة يزودونها بالذخائر والمؤن احتياطاً للحروب ، وتلك تجدد كل حين خشية أن تفسد ، ومن أسلحتهم كثير من البنادق التى تسربت إليهم يوم ساقهم المهدى ليحاربوا فى صفوفه فهربوا بسلاحهم ، وهم يجهزون البارود من الفحم والنطرون الكثير لديهم ، وهم فى موقفهم فوق الجبال يغلبون كل مهاجم بالرصاص والصخور ،



(شكل ١٣٢) نساء كردفان يسحقن الذرة

لكنهم قاسوا كثيراً من فرسان البقارة خصوصاً إذا لاقوهم فى السهول ، ولكى يؤذوهم فى خيلهم أدخلوا ذباب (تسى تسى) واستطاعوا نشره كلما أرادوا الفتك بدواب عدوهم كأن يملأوا قرعة بدم حيوان ويتركوها فى مكان موبوء بهذا الذباب ثم يدسونه ليلا جهة أعدائهم على أنهم بذلك نقلوا العدوى إلى بعض قطاناتهم .

ومساكنهم أكواخ من الطين فى شكل مخروطى كالجرس ، وبيت العائلة مؤلف من ثلاثة واحد للرئيس وآخر للزوجة والأولاد وثالث احتياطى أما الطبخ ففى كوخ الزوجة ، وطعامهم الذرة والفول السودانى واللبن واللحوم من بينها الخنزير والكلب والقرد والحيوان المفترس والكلى ، والكبد تؤكل نيئة طازجة ، ومن أشهى طعامهم الذباب والجراد تؤكل حية مع العسل وكذلك بعض الأفاعى وليس لهم ملابس قط اللهم إلا المتزوجات .

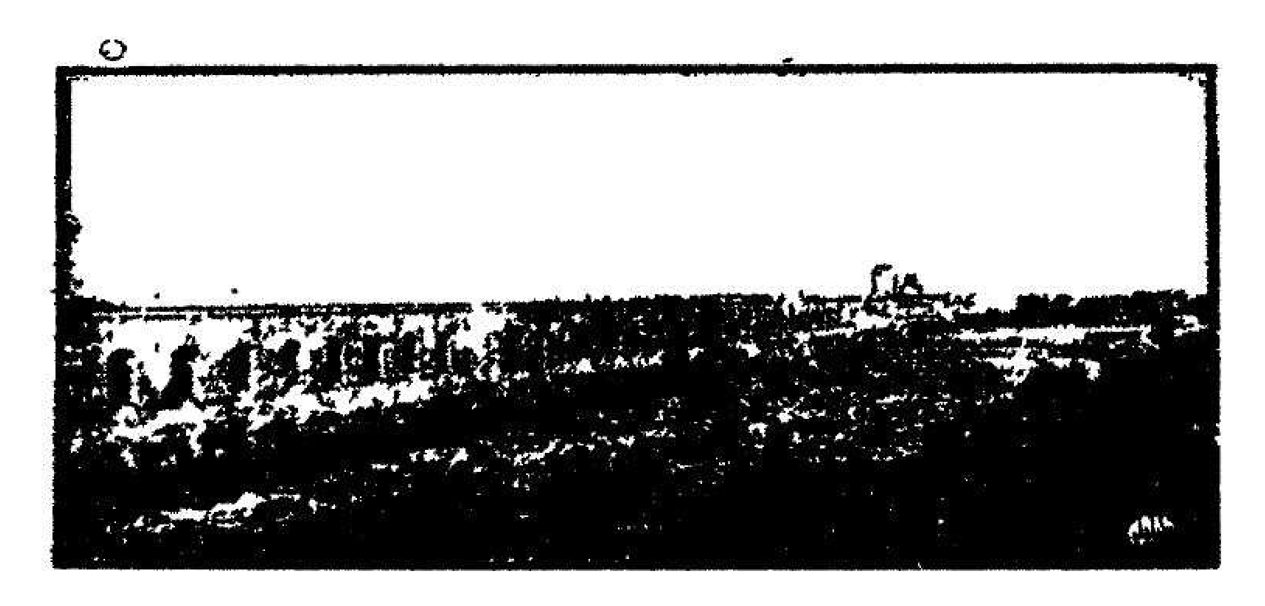
وللرقص : حفلات تقام حول بيت الملك فوق جبل (جلود) حيث يجتمع بين مائتين وثلاثمائة يحلون بالريش والخرز والأساور من العاج ، ويدهنون

أجسادهم باللون الأبيض ليثلوا حيوانات خاصة كأن يبقع الجسد ليحكى الفهد ، ويمسكون بعصى الرقص الملونة ، ثم تدق الطبول والموسيقى المملة الساذجة فيهجم صف من الشبان ويرمى كل حربته أبعد ما يمكنه ويفوز بالاعجاب أقدرهم فى ذلك ثم يتقدم صغار الفتيات عرايا إلا فى مجموعة عقود تستر العورة ، ويرقصن وفق أنغام الموسيقى ، والكل يهللون عالياً ثم يتلو هذا سكون يشربون خلاله المريسة وأخيراً يختلط الشبان والفتيات فى الرقص ويحاول كل اجتذاب خايلته ويستريحون حتى يشرق القمر فتصعد فتاة على ربوة وتغنى للقمر ، ومن عجيب ما يرى جمع من الفتيان يضربون أجسادهم بالسياط حتى تدمى ، لكى يظهروا شجاعتهم أمام الغانيات .

وإذا خرج رجالهم للصيد يعجنون الذرة مع الزبد فى أصابع يلف كل حول خصلة من شعر الرأس ، وكأنها تبدو ذؤابات غليظة بيضاء مدلاة إلى الحاجبين فى شكل غريب ، وذلك لافتقارهم إلى الملابس والجيوب ولكيلا تشغل أيديهم ساعة الصيد ، ومن أحب حفلاتهم المصارعة التى يتبارى فيها شبان القبائل المختلفة فى مهرجان كبير وفى حضرة الملك عادة .

هذا وكثيراً ما كان يختلط علىّ اسم النوبيين الذين مررت بهم فى ثلاث جهات : عقب البرت نيانزا شمال أوغندا وهؤلاء أخف سوداً ، ويدين غالبهم بالإسلام وعلمت أنهم من سلالة جنود أمين باشا . وفريق غرب النيل الأبيض وهم هؤلاء ذوو البشرة السوداء والديانة الوثنية ؛ والفريق الثالث فى بلاد النوبة شمال الخرطوم وهم (كالبرابرة) عندنا سمر البشرة ومسلمون جميعاً .

إلى الخرطوم : تقدمنا فى النيل الأبيض الذى زاد اتساعه على كيلومترين ، وكانت المناظر حوله تنتثر بالشجر غالبه من السنط ولم نر الربى إلا فى موضعين : جبل أحمد آغا ، وهو مخروط بركانى وطىء تكسوه الخضرة والاسم لمليب تركى أقام هناك ، ويروى القوم عنه أنه لما رأى الضباع قد كثرت حول



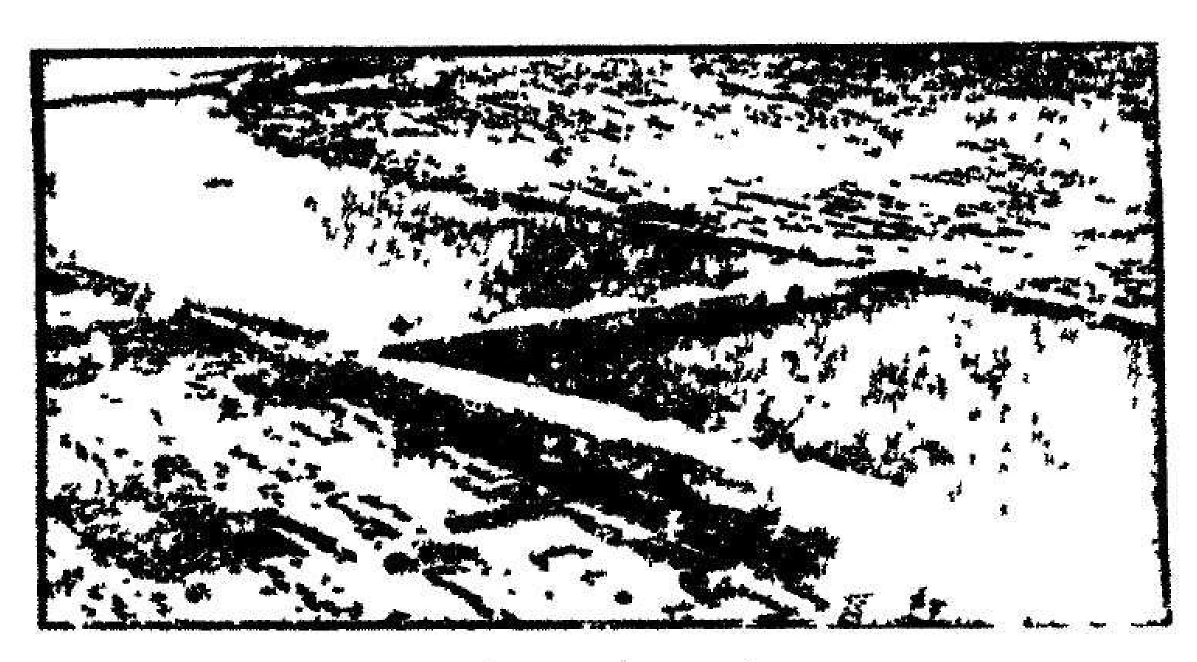
(شكل ١٣٣) قناطر سنار (مكوار) لرى الجزيرة

المكان فأضحت خطراً جهز سماً وناوله ضبعاً وتركه فمات ، وانقض عليه قطيع من الضباع وأكلوه — والضبع يأكل جيفة أخيه — فماتت متفرقة ونشرت بذلك الجيف المسممة التى كادت تقضى على النوع كله . أما الموضع الثانى فاسمه (الجبلاين) وهى سلسلة من مخاريط بركانية فى مجموعتين وأديمها نصف عار ، وغالبها من الجرانيت البراق ، وعلى سفوحها المجانبة للنهر تمتد مدينة لها شأن فى تجارة السمسم والفول السودانى ، وهنا تقريباً خط ١٢° من العروض الشمالية وهو الذى يعدونه فاصلا بين السودان الشمالى الإسلامى والجنوبى الوثنى ، حتى أن الموظفين الذين يقيمون جنوبه تحسب لهم السنة بسنة وثلث فى المعاش ، وكانوا يمنحون بدل مناخ وإن كان قد أبطل ذلك اليوم بسبب الأزمة الحاضرة ، وهنا لاحظنا ظهور البيوت من اللبن يكسوها الطين وتغطيها سقوف مسطحة ، وفى أربع ساعات وصلنا بقعة من النهر قليلة الغور يكسوها الحصى الكبير لذلك يسمونها (الزلاطة) تقوم فيها وسط الماء علامات بها يجتنب الربان السير إلا فى الجزء المختنق من أقصى يمين النهر .

ولقد استرعى نظرى فى أيدى الناس هنا الغلايين الطويلة التى يدخنون

فيها مادة اسمها (البانجو أو الكنجة) هي مخدرة للغاية وتشبه (الحشيش) والنبات ينمو كالبرسيم ثم يزهر ويثمر حباً يقطف أعلاه ويجفف ثم يباع للتدخين ، ورغم أنه محرم فإن القوم رجالا ونساء وأطفالا يدمنونه ، ويقال إنه يزرع بمقادير هائلة فى الجهات النائيـة عن رقابة البوليس . ونظام الحكم فى الريف ينحصر فى الناظر وهو رئيس القبيلة ومن تحته العمـد ومن تحت هؤلاء المشايخ وكلهم تعينهم الحكومة وقد ربطت لهم مرتبات ، وهم يشكلون محاكم لها سلطة محدودة تدون فى (دفتر السلطة) الذى يتسلمه الرئيس ، وقد كانت العادة قبل أن تربط لهم المرتبات أن يتناولوا نصف الغرامات التى كانوا يحكمون بها على الأهالى لذلك كان القضاة يحكمون بأقصى العقوبة لأتفه الأسباب وتكاد تعم هـذه الطريقة البلاد كلها حتى التى كانت من قبل مراكز هامة إبان العهـد المصرى ، وهناك مفتش انجليزى يمر ويشرف على الجميع ، ولقد كان الناس يبغضون المآمير المصريين قديماً لأنهم كانوا قساة فى تنفيذ الأوامر ، يجبون الأموال قبل حلول ميعادها كى يحوزوا خطابات الشكر من المديرين .

دخلنا قنطرة كوستى معبر سكة الحـديد إلى كردفان وبتنا ليلتنا بجوارها وفى باكورة الصباح جزناها ، وفى مدينـة كوستى آثرت أن آخذ القطار إلى الخرطوم بدل مواصلة الرحلة بحراً اقتصاداً فى الزمن إذ بالحديد اثنتا عشرة ساعة وبالماء يومان ، وشجعنى على ذلك أنى علمت بأن جبل الأولياء لم يبدأ العمل فيه حتى ولا التمهيدى ، أما كوستى نفسها فتحكى مركزاً صغيراً عندنا غالب بيوتها أخصاص بسيطة ليس بها ما هو جدير بالذكر . غادرناها نشق عرض الجزيرة فى أرض مبسوطة مهملة تربتها حمراء يكسوها العشب البرى وتتخللها نواتئ الجرانيت وهى بقايا الصخور القديمة التى حلتها عوامل التعرية وكست بفتاتها تلك المتسعات تاركة هذه النواتئ لأنها أشد صـلابة وأبقى على الزمان ، وكانت القرى التى مررنا بها صغيرة ونادرة وعند سنار — وهى مدينة صغيرة لا تفوق كوستى —



(شكل ١٣٤) الخرطوم وأمامها إلى اليمين (الخرطوم بحرى)

انحدرنا شمالا وأخذت التربة تسمر قليلا وتشوبها المركبات الطفاية المصفرة التى كما نراها ذائبة فى مياه المطر الغزير وكان يملأ مسائح شاسعة ويهدد سكة الحديد بالقطع ، ثم بدت قناة الجزيرة الرئيسية وهى دون رياح من رياحاتنا تسير موازية للنيل الأزرق ومجانبة له ، ويحفها من الجانبين سلاسل متصلة من كومات الثرى الذى استخرج من جوفها يوم حفرتها (الكراكات) التى كنا نرى الكثير منها صدئاً مهملا وبين آونة وأخرى كنا نمر ببقاع زرعها ذووها ذرة وإن كانت أعاب الأرض مهملة وكلما تقدمنا شمالا انفسحت السهول إلى الآفاق فى انبساط لا تكاد تشوبه ربوة أو حفرة أو انحدار ، وتقاطع القنوات الفرعيـة التى تسير فى استقامة متعامدة لا يدخل تحت حصر وهنا زادت مسائح الذرة وبعد حصدها يزرع القطن عماد ذاك المشروع ، والتربة هنا شبيهة بتربة مصر السوداء إلا أنها أخف وأميل للاصفرار ، وقد علمت أن سمكها لا يزيد على ثمانين سنتيمترا من دونها الصخر الصاب إلى ذلك فإن درجة خصبها لم تحقق آمال ذويها ، فقد كان محصول القطن فى جميع السنين السالفة غير مرضى لافتقار التربة إلى الخصب



(شكل ١٣٥) فوق سطح بيت الحايمة ومنه كان يشرف على الميدان

والبلاد إلى الأيدى الماهرة ، إلا أن محصول عامنا هـذا كان وفيراً كما يقولون لكنه كلف الحكومة نفقات هائلة فى التسميد والعمل لا يعوض ما أنفق القوم عليه ، والقطن هناك يزرع شتاء ويحصد فى الربيع وينضج سريعاً فى خمسة شهور والأرض التى تكسوها الذرة الآن من أملاك الشركة تبيح للأهالى زرعها غلالا على شرط أن يدفعوا ثلثها للشركة والثلث ضريبة الحكومة والباقى لهم ، وقد اشترت الشركة جل أراضيها هـذه من الأهالى بمتوسط قدره خمسة جنيهات للفدان ، والإقليم كله نادر السكان مبعثر القرى غالبها يبنى بالطين واللبن وقل أن نرى الأخصاص المخروطية ، والسكان جميعاً من سلائل العرب يلبسون الجلابيب البيضاء الفضفاضة والعمائم الخفيفة الضخمة والأحذية الحمراء (مراكيب) ويتكلمون العربية المحرفة ويدينون بالإسلام وأنت ترى على خدودهم خدوشاً طويلة يشقونها لتدل على قبائلهم بعضها ثلاثة خطوط طوليـة متوازية والبعض عرضية ، وآخرون خطان طوليان يصلهما فى الوسط ثالث أفقى كحرف H وغيرهم ثلاثة خطوط كبيرة فوقها ثلاثة صغيرة



(شكل ١٣٦) في بيت الخليفة وهو اليوم متحف تعرض فيه مخلفاته — أم درمان

الخرطوم : واسمها مشتق من خرطوم الفيل لأن شبه الجزيرة التى تقع عليها يمتد لها طرف معوج فى شكل خرطوم الفيل وهى تقع على الضفة اليسرى والجنوبية للنيل الأزرق يقابلها على الضفة اليمنى الشمالية (الخرطوم بحرى) والنيل الأزرق يتركهما غربا فتشطره جزيرة توتى إلى شعبتين أفقيـة ورأسية والأفقية تلاقى النيل الأبيض فى زاوية قائمة يمتد بعدها شمالا إلى النيل الأعظم ، وعلى الضفة اليسرى الغربيـة تقع أم درمان التى سميت كذلك وراء امرأة تقية كانت تتعبد وحدها فى ذاك المكان ، أنشأ الخرطوم محمد على باشا الكبير بين سنتى ١٨٢٣ و ١٨٣٠ ، وقد رآها النمساوى (أرسلان بك) موفداً من قبله وهو الذى أشار بأن موقعها أمنع مواقع شرق إفريقية قاطبة . ولم يكن بها إذ ذاك إلا بعض أكواخ حقيرة للزوج . والمدينة حديثة التنسيق حاول اللورد كتشنر تنقيح تصميمها كى تحكى تخطيط العلم الانجليزى Union Jack وليسهل استخدام مدافعه فى رءوس الشوارع متى أراد ! وقد كان يحاول ذلك فى القاهرة نفسها ، وطرق الخرطوم

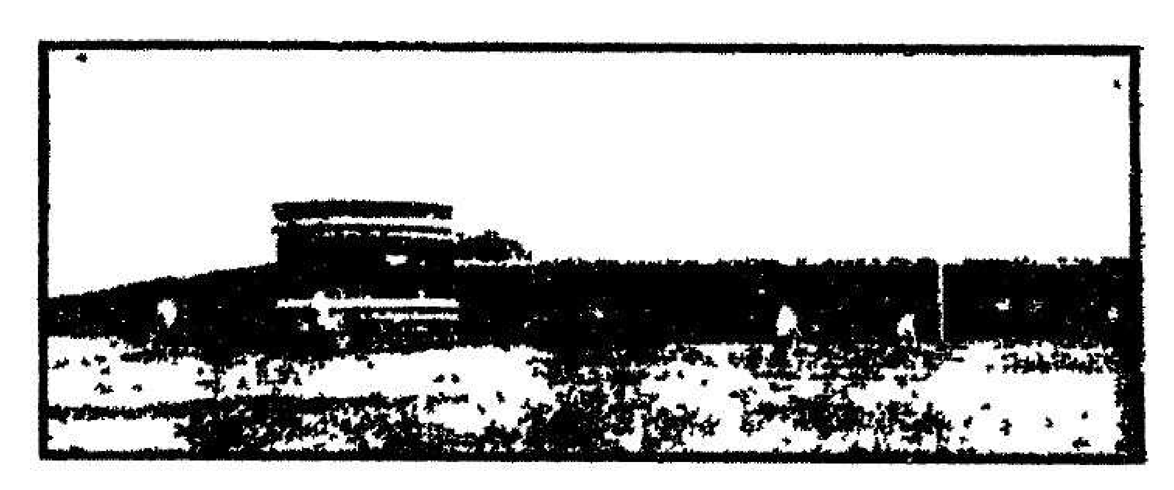
فسيحة مرصوفة الوسط رملية الجوانب فى غير اطار تحفها أشجار مختلفة غالبها لم يبلغ علواً كبيراً ، ولقد أذكرتنى (بالزيتون) فى أنها رملية وكل بيوتها من طابق واحد غالبها يقام بالآجر الأحمر الصغير ، ولعل أجمل شوارعها شارع البحر (شارع كتشنر) وعليه حديقة الحيوان الصغيرة التى زرتها فبدت مجموعتها بائسة صغيرة . ثم قصر الحاكم العام وهو أفخر قصور المدينة بنى على النظام القوطى يعلوه العلمان المصرى والانجليزى ، وفى جزء منه بقايا قصر غوردون والمكان الذى قتله فيه الدراويش ثم قصر سلاطين باشا وفى آخر الشارع كلية غوردون التى أقامها كتشنر تذكاراً لغوردون بمال اكتتبت فيه جهات الإمبراطورية البريطانية كلها وهى أقسام أهمها : قسم الطب وله بناء خاص يجاور محطة سكة الحديد وقسم المعلمين وقسم الحساب ، وكلها ترمى إلى تخريج طائفة من الموظفين فحسب والمواد تدرس فيها باللغة الانجليزية وغالب المدرسين من الانجليز ، وكان للمصريين فيها نصيب لكنهم استبدلوا بهم طائفة من السودانيين ، وكان بالكلية قسم حربى لتخريج الضباط لكنه أغلق عقب ثورة سنة ١٩٢٤ عقاباً للبلاد وإماتة للروح العسكرية فيهم والضباط يرقون من الجنود . وبناء الكلية فاخر للغاية مقسم إلى أجنحة من خلفها حديقة منسقة على نظام حديقة (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) ، وأجمل ما راقنى منظر الطلبة وهم يلبسون الجلابيب البيضاء والعمائم المنتفخة المهفهفة والأحذية الحمراء (المراكيب) كل يتأبط كتبه ، وخلف الكلية بناء خاص لمنازل الطلبة وغالبهم يتخذون المدرسة سكناً (داخلية) ، ومن المبانى الفاخرة فى شارع البحر (جراند أوتيل) يحكى (شبرد) عندنا ثم غالب مبانى الحكومة ، والشارع تزينه أشجار اللبخ على جانبيه وتتعانق فى أعلاها فتحكى أقواس النصر وله رصيف على النيل مستقيم ، وهو خير مستراض ساعة الاصيل يليه فى الأهمية شارع (غوردون) الذى يليه موازياً له وتقوم عليه غالب قصور الانجليز يتوسطه تمثال غوردون يلبس الطربوش ويمتطى جملا . وبالمدينة ترام حديث يصلها بالخرطوم



(شكل ١٣٧) بعض آلات الطبع القديمة فى بيت الخليفة بأم درمان

بحرى و بأم درمان ، وهو لشركة انجليزية وأجوره غالية و بين الخرطومين قنطرة على النيل لمرور الناس والترام وسكة الحديد ، والخرطوم بحرى قرية أشبه (بعين شمس) غالب بيوتها صغيرة وطيئة تبنى باللبن أو الطين ، وهى متفرقة بينها متسعات من الأرض الرملية .

وعلى النيل تقوم مساكن الجيش المصرى الذى كان يرابط فيها وغالبها اليوم خاو ، وقد شعر الناس ولا يزالون بالكساد الشديد ووقوف دولاب أعمالهم منذ خرج الجيش المصرى الذى كان يفرج عنهم بما ينفقه ، وكم تحدث إلى العامة بأنهم منذ خروجه وهم فى بؤس شديد وهنا قصوا على نبأ انسحابه حين ذهب (الكمندان) بعد أن أمر الجنود بالاستعداد لضرب الخرطوم كلها فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً إن هو تأخر محجوزاً عند الحاكم إلى ما بعد ذلك ، ولما ذهب إلى الحاكم خاطبه قائلا بأنه لا ينسحب إلا بأمر كتابى من جلالة ملك مصر فرد عليه بجفاء وغلظة وهدده أن يمنع عنه المؤن والغذاء فقال له إن لحق بنا أى شىء من ذلك هدمنا الخرطوم كلها وموعدى مع الجند الظهر فهاد الحاكم وهدأه ! وظل الجيش



(شكل ١٣٨) سجن الخليفة الذى زج فيه كثيراً من الانجليز فى أم درمان

حتى جاء مندوب جلالة الملك يحمل خطاب الانسحاب فى طيارة ، هنا تألم الأهلون والجنود السودانيون ، وكانوا يرمقون اخوانهم المنسحبين بنظرات استهتار ولوم شديد .

انتهى بنا الترام إلى موضع فى خرطوم بحرى ، عنده يبدأ ترام صغير يسير بالبخار إلى طرفها الشمالى عند محلة يسمونها (سلامة الباشا) منها ركبنا الباخرة عبر النيل إلى أم درمان التى أسسها محمد المهدى سنة ١٨٨٣ ثم ظلت تمتد عهد خليفته عبد الله التعايشى الذى لبث أربعة عشر عاما ، وهو من عرب البقارة ، وكان القوم يسمون قلب المدينة (البقعة) يقوم بها مسجد كبير بمئذنتين وإلى جوار النيل مسجد المهدى ومبانيه وهى أهم ما يزوره السائح هناك ، دخلنا ردهة شاسعة كأنها ميدان عابدين كان يصلى فيها المهدى الأوقات الخمسة إماما بالناس كل يوم ومن تخلف عوقب بالجلد وبالسجن إلى ستة شهور ، هنا دخل الثائرون ورفعوا رأس غوردون باشا على أسنة حرابهم وسط تهاليلهم ، وفى ركن من الميدان بيت الخليفة وهو من طابقين ولا بأس بتنسيقه أقيم بالآجر الذى جاءت من كنيسة (صوبا) التى هدموها — وصوبا كانت عاصمة حكومة النوبة التى حكمت مصر يوما ما — وبعض أحجار البيت من أنقاض بيت غوردون وسقوفه من جذائل



(شكل ١٣٩) أمام قسم أم درمان يرفرف العلمان المصرى والانجليزى

الخوص تحتها الخشب وفيه اليوم متحف من مخلفاته : دروع وأردية وسروج وأسلحة من بينها الحراب والمدافع ، ثم مطابع الحجر التى كان يطبع عليها منشوراته ، وقد رأينا الكثير من تلك المنشورات كتبت بخطه فى نصائح دينية ولغه جميلة ثم خاتمه المربع ، وسريره من خشب ممسق مرتفع بجدل وسطه بسيور من جلد ، وبعض نقوده ، وهناك بعض آلاته لسك النقود ، وبعض الصحاف الكبيرة كان يقدم فيها الطعام للفقراء يومياً ، ومن المعروضات سيف الخليفة وعربة غوردون ، وعربة الخليفة التى جلبها من الحبشة على متون العبيد مخترقين بها الصحارى ، ولم يكن يبيح لأحد دخول أبوابه إلا لأخيه يعقوب ، وأمام البيت مقبرة المهدى دفن فيها ، وكانت تتوسطها قبة عالية هدمها الإنجليز بعد فتح أم درمان ، وبددوا محتوياتها حتى أن الملكة فكتوريا أرسلت تحتج على كتشنر لأنها لا تود إهانة العقائد هكذا فكان اعتذاره أنه قصد بذلك صرف الناس عن تلك الخرافات ولم يقصد إهانة الدين ، والمقبرة اليوم مغلقة لا يباح دخولها ، لكن رغم ذلك يفد الجماهير ليتبركوا بجدرانها ويقدموا لها القرابين .



(شكل ١٤٠)
المقرن فاصل النيل الأزرق إلى اليمين والأبيض إلى اليسار وفى المقدمة أم درمان

و إلى جوار المقبرة سجن الخليفة الذى زج فيه كثيراً من الإنجليز ، والمدينة مكتظة بالبيوت الوطنية غالبها من الطين إلا شارع واحد عليه مجموعة من (فلات) تؤدى إلى القسم (مركز البوليس) ثم إلى قنطرة أم درمان على النيل ، ومن فوقها يتجلى اللسان أو المحرن (Mogran) أى مقرن النيلين عنده لسان من الأرض يجانبه النيلان حتى يندمجا وأنت ترى الماء بعده بسير مسافات بعيدة اللون الأبيض الطفلى إلى اليسار من النيل الأبيض ، واللون الأسمر الطينى إلى اليمين من الأزرق ، وكان النيل الأزرق إذ ذاك فى أعلى فيضه بتياره الجارف ، أما الأبيض فكان تياره هادئاً لأن ماء الأزرق يحجزه فيتراكم ويعلو ويتسع ، ولذلك بدا الأبيض عظيم الاتساع مائج الماء ، والناس هنا يشبهون أهل صعيد مصر فى الشكل والعادات . غير أن ألوانهم أميل إلى السواد ، حتى أنى أحياناً كنت أنسى أننى خارج مصر وأنت نظرى ميلهم إلى الهدوء وعدم الضوضاء ، إذ كنت فى الترام لا أكاد أسمع كلاما وإن حدث فبصوت خافت ، وقد علمت



(شكل ١٤١) فى محطة شندى وإلى جانبى أحد طلبة كلية غوردون بملابس الدرس

أنهم لا يتشاجرون مطلقاً ويحب الواحد لأخيه الخير ويميل إلى معاونته ، وهم يذكرون مصر والمصريين أطيب الذكرى ويتكلمون عن مصر وكأنها وطنهم .

قصدت شجرة غوردون إلى جنوب الخرطوم فى مكان اعتاد غوردون أن يركب إليه كل أصيل ويجلس تحت شجرة لا تزال هناك مطلة على النيل الأبيض وقد زرتها لأرى ما تقوم به مصلحة الرى المصرى هناك من المنشآت فقد اتخذت المنطقة مستعمرة للرى ، أقامت بها البيوت الفخمة ، وهى تتخذ شاطئ النيل مرسى لأسطولها ، والعمل قائم هناك لتصبح المنطقة مقر عمارة وميناء للأسطول المصرى ، وقد أدهشنى ما بدا لى من إسراف شديد وتبديد فى الأموال وقد خبرنى كثير من مهندسينا ألا طائل تحته . وزاد عجبى لما رأيت غالب الموظفين والقائمين بالعمل من غير المصريين ، ولما أردنا الدخول لم يسمح لنا رغم من كانو معى من المهندسين المصريين وقالوا لا بد من ترخيص من الرياسة الانجليزية وكانت على الباب لوحة كتب عليها : جناب المستر فلان هو دون غيره المتصرف



(شكل ١٤٢)   الهبوب الرملى الذى يداهم الخرطوم فيكاد يطمرها

المطلق فى تعيين الموظفين والعمال وفصلهم ، والناس هناك مندهشون لهذه المنشآت التى تنفق فيها الأموال تحت ستار الإصلاح ، ولما سألت كم باخرة تحتاج للاصلاح سنوياً حتى تقام تلك العمائر التى بدت وكأنها مدينة صناعية صاخبة كان الجواب الضحك والسخرية لأن قطع الأسطول كله محدودة العدد والحجم !

برحت الخرطوم فى صباح منتصف سبتمبر فسار بنا القطار يشق أراض مبسوطة يكسوها العشب المنثور والشجيرات الشائكة إلا فى بقع قريبة من النهر كانت تقوم فيها أعواد الذرة (العويجة) وغالب تلك الأراضى الجيدة القريبة من الخرطوم تملكها عائلة المهدى والمرغنى ، وهما من الطوائف المرضى عنهم ! معهم بعض الأجانب ، ولهم آلات لرفع الماء (وابورات) على أن الأغلبية أرض مهملة وكلما تقدمنا شمالاً بدت الربى الجرانيتية متفرقة فى مخاريط حولها أراض شبه صحراوية ثم أخذت تتصل تلك الربى وتقترب فأضحت نجاداً ثم ظهر خانق شبلوكا فى سلسلتين من الجرانيت متجاورتين جداً بينهما ماء النيل وفى نهايته تبدو الجنادل مترامية . بعد ذلك عادت السهول واختفت الربى وأضحى المنظر صحراويا كثير



(شكل ١٤٣) فى المحطة رقم ٦ وسط عتمور أبو حمد

الرمل والحصى ثم دخلنا شندى ومن ورائها بدا النيل تقوم عليه بيوت من اللبن والطين ، وهنا فاجأنا مطر غزير لطف الجو وخشى القوم نزول السيول التى تهدد تلك المنطقة فى مواسم المطر ، وقد تبلغ من الشدة أن تجتاح طريق القطار وإذا وصل بعضها النيل اندفع فيه وأوقف تياره وشق له طريقاً إلى الضفة الأخرى ، ومصلحة سكة الحديد تعرف مواضع الخطر وتتقيه بأن تمد أسلاكا كما يدفعها الماء فتدق الأجراس فى المحاط وتأمر بايقاف القطر حتى يعاين المكان عمال الدريسة وها قد وقفنا ساعة فى المحطة التى تلى شندى . ومنطقة شندى وما حولها أشهر مناطق السودان بالمسلى لجودة مراعيها بكافة أنواعها .

ظل المنظر حولنا سهولا تكسوها الأشواك شبه الصحراوية وقد تتخللها ربى الجرانيت ولبث النيل ملازماً لنا ، وهو غامر الفيض يسامت ماؤه الضفاف ، وقد يعدوها إلى المنخفضات المجانبة له فتبدو فى قنوات متلوية حولها أرض خصيبة ، وقبل دخولنا مدينة عطبرة (اتبره) جزنا بلدة الدامر ثم بدت عطبرة حيث اخترق

القطار قنطرة على نهر عطبرة ، وكان فى أعلى فيضه عظيم الاتساع كأنه نيل مصر الفسيح فى تيار جارف وماء كدر أحمر حققى فى ظننا ما نعلمه عنه فى كثرة أمداد النيل بالطمى بنسبة تفوق أمداد النيل الأزرق نفسه على أنه بعد قليل يغيض ماؤه حتى يصبح شبه أخوار بها مسارب ضئيلة ، وقد خبرنى القوم أنهم يخترقونه إذ ذاك سيراً على الأقدام دون أن يصيبهم بلل .

دخلنا المدينة التى تقع على العطبرة والنيل وهى كبيرة كأنها أسيوط فى أضوائها الكهربائية ومبانيها المنسقة وأرصفتها الممدودة وهى نقطة تلاقى سكة حديد بور سودان وحركتها التجارية صاخبة ، ومن أغرب ما تصدره محصول (الدوم) أو (المقل) الذى رأينا من شجره الكثير ، وهنا ينقل إلى مصنع لتكسر الطبقة الخارجية ثم يخرط اللب (المقل) و يصدر عن طريق بور سودان إلى أوروبا واليابان لعمل الأزرة للسراويل ، على أنه قل اليوم عن ذى قبل وأضحت كسلا أشهر البلاد به . مررنا بعدها بمدينة بربر و اسمها أكبر منها لأنها بدت قرية بيوتها من اللبن والطين وهى وطيئة لا تعدو طابقاً واحداً .

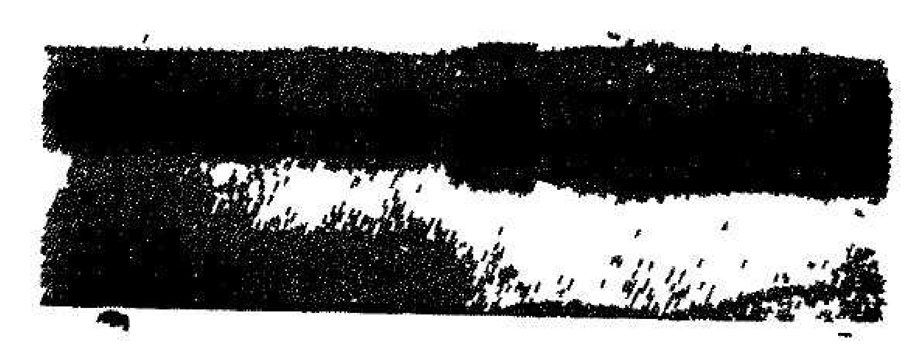
هنا جرى الحديث مع طائفة من علية القوم الذين أكدوا أن اخلاص أهل السودان جميعاً لمصر عميق متأصل على أنهم تددوا بالمصريين الذين كانوا فى السودان إذ لم يحاولوا إدماج البلاد فى مصر فكان ضباط الجيش مثلا إذا أرادوا الزواج هناك صاهروا الزوج المحطين ولم يحاولوا مصاهرة العرب ، وكان القضاة الشرعيون يترفعون عن أهل البلاد ثم قال بعضهم : انظر إلى وزارة الأوقاف المصرية مثلا كيف أهملت التعليم الدينى ولم تعاون على فتح المدارس الإسلامية و إقامة المساجد مقابل ما تفعله هيآت التبشير اليوم هناك ، والحق أن من حل السودان من المصريين لم يخلفوا شيئاً من ذلك ولم يخدموا مصر فكم قرأت أسفاراً نفيسة ومجلدات ضخمة كتبها الانجليز ممن كانوا موظفين بالسودان خدموا فيها الناحية الانجليزية وأغفلوا المصرية لا بل و بعضهم كان يتوج كتابه باسم (السودان



(شكل ١٤٤) وسط الشارع الرئيسى فى وادى حلفا

البريطانى) ويتهكم على المصريين ممن كانوا موظفين معه ويرميهم بالخمول والترفه وعدم الرغبة فى الإقامة هناك مظهرين أمانيهم أن ينقلوا إلى جنة القاهرة والتخلص من جحيم جواء السودان ، وما إلى ذلك من الحط من شأننا ، وكان من السهل على المصريين أن يمهدوا السبل لإخوانهم ممن سيحلون بعدهم ويهونوا عليهم أمر الارتحال إلى السودان الذى لم أر فى جوه كبير فرق عن جو مصر ، رغم ما كنت أسمع من مبالغات إخواننا فى حره اللافح ، لكنه الجهل أو الاهمال الذى أساء إلينا إلى هذا الحد ، وقد روى لى بعضهم حادثة ظريفة هى أن الخديوى سعيد باشا لما زار السودان أمر بإعفاء البلاد من الضرائب ذلك العام وبالافراج عن المسجونين تخليداً لزيارته ، ولما جاء عباس حلمى وزارها سنة ١٩٠٢ أعطيت الأوامر لكبار الموظفين أن يحتاطوا به دائماً احتراماً له وحفاوة به فى الظاهر ، والواقع أنهم كانوا يرمون إلى إبعاد الناس عن الاتصال به ، فأقبل رجل اسمه (محمد مكين) وتقدم ابصافح الخديوى فمنع بحجة أن الخديوى تعب فصاح



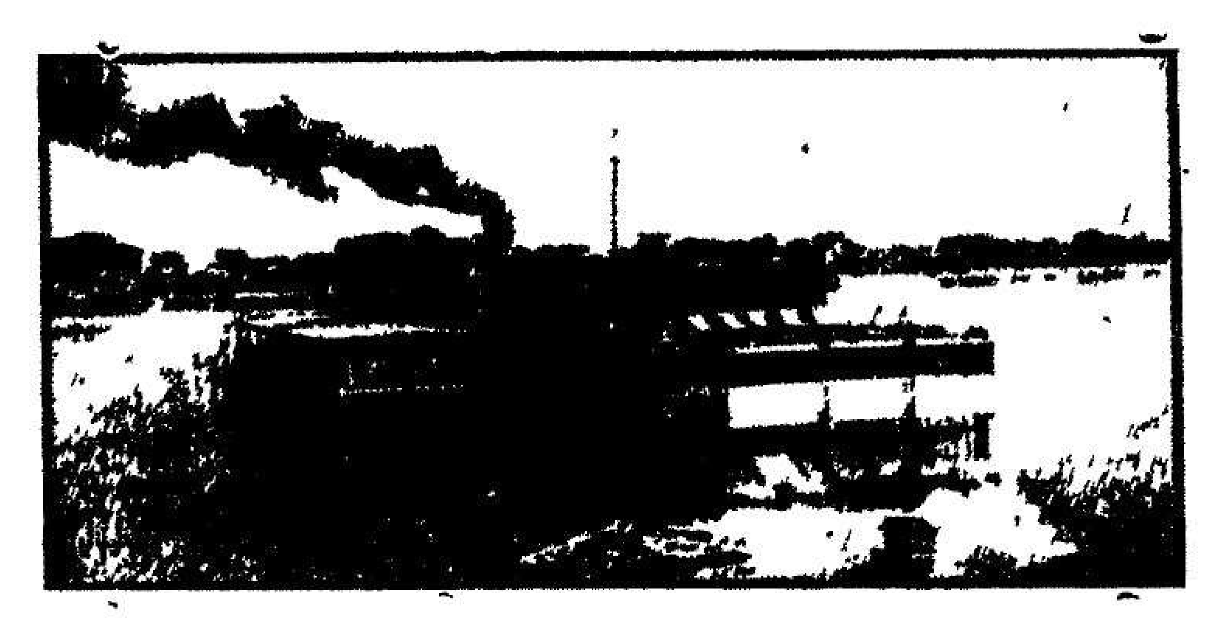


(شكل ١٤٥)
البيت الصغير الذى يقع نصفه الجنوبى فى السودان والشمالى فى مصر

الرجل قائلا بأنه غنى موسر لا يريد من وراء ذلك عطاء ، فسمعه الخديوى وكان يتفقد المكان الذى قتل فيه القائد اسماعيل باشا فى موقعة شندى فناداه وصافحه فقال الرجل : إن جدك سعيد قد خلف فى البلاد مكرمة كبيرة فما مكرمتك ؟ قال : زمن سعيد غير زماننا . يعنى أن السودان كله كان ملكا لمصر وحدها إذ ذاك فقال الرجل : (فى نصفك سَولَكْ شوّية) وهو عتب معناه إن لم يكن وابل فطل أو أنت فى حقك متهاون ، فجرى هـذا القول مجرى المثل على ألسن الناس جميعاً إلى يومنا هذا ويقولونه فى مقام طلب التصرف فى الجزء المملوك .

ومما قص بعضهم وهو متألم نبأ انسحاب الجيش المصرى أخيراً رغم تضامنه مع السودانى الذى فنى أغلبه دفاعاً عن حق مصر وحفظاً لعهـد التضامن بينه وبين الجنود المصرية .

دخلنا (أبو حمد) وهى بلدة صغيرة ريفية وبعـدها أوغلنا فى صحراء رملها ناعم كاد يطمرنا بهبوبه وكانت تبـدو نواتئ الجرانيت مبعثرة ويسمونها أحياناً صحراء العتمور أو عتمور أبو حمد ، والمسافة بين أبو حمد وحلفا ليس بها بلدان مأهولة كبيرة بل محاط لوقوف القطار كى يزود بالماء ، وهى عشر نمر أهمها المحطة



(شكل ١٤٦) الباخرة التي أقلتنا من حلفا إلى الشلال

رقم ٦ وسبب شهرتها أن منها طريقاً يؤدى إلى أم نبارة حيث توجد مناجم للذهب ، وقيل إن المأمون أرسل جيشه إلى هناك واستغلها ، وقد قاوم الجيش أهل البلاد من عرب البشاريين والبجا ، ويروون أن المأمون أزعج إبلهم بالدق على الصفائح وكان هذا سبب انتصاره عليهم ، ومنها طريق إلى دنقله غربا . والبشاريون مبعثرون شرقاً بين أبو حمد وأسوان ، أما النوبيون فكانوا فى الأصل سكان النيل نفسه لا الصحراء ابتداء من اسوان جنوباً ، ولما دخل العرب اعتنقوا الإسلام واختلطوا بهم خصوصاً أهل دنقله ولذلك يحاول كل نوبى أن يسمى نفسه (دنقلاوى) ويغضب إذا قلت له بأنه نوبى اللهم إلا أولئك الذين يجاورون اسوان وهؤلاء يحتقرهم باقى الأهالى المنتسبين إلى العرب ويرمونهم بالخسة بدليل احترافهم الأعمال الوضيعة فيما لا يزيد على عمل الخدم . أما الفريق من النوبيين الذى رفض الإسلام فهاجر جنوباً واعتصم بجبال النوبة حول تالودى وكلهم لا يزالون وثنيين وقد جئنا فيما سبق على طرف من سيرتهم .

لبثنا نسير فى بادية النوبة (العتمور) تسع ساعات . ثم بدت جبال الحرسان التى يحانها النيل الضيق ، حوله نطاق صغير من المزارع يزينها النخيل ، وهى مد-

حلفا التى وصلناها فانتقلنا تواً إلى الباخرة بعد أن مررنا بالجرك حيث سألنا الحراس عن الممنوعات أمثال : الأسلحة والعاج وريش النعام وشعر الزراف . أما الباخرة فربحة جميلة هى أفخر من جميع البواخر السابقة . ووادى حلفا جبناها فى أقل من ساعة ، فهى كالمراكز الصغيرة عندنا ، طرقها ضيقة يظلها شجر اللبخ ، وأظهرها طريق البحر (النيل) . قمنا نشق النيل تحفه الجبال الرملية تحتها المزارع والنخيل ولبثت تلك طويلاً والنيل يختنق تارة وينبسط أخرى ، وأخذت الخضرة تشح فى الضفة اليسرى حتى كادت تنمحى تماماً ، وسادت الصحراء والشجيرات الشائكة ، وبعد ساعتين مررنا بمحطتين لبوليس الحدود إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار ، وإلى جانب اليمنى بيت رجل يمتلك بعض الأراضى يتوسطها مسكنه الصغير ، وقد صادف أن خط الحدود بين السودان ومصر مر بالبيت فشطره ، ولما أرادت الحكومة تعويضه ايتركه أبى وأصر على الاحتفاظ به فترك له وهو اليوم يدفع عن جزئه الجنوبى الضرائب لحكومة السودان وعن الجزء الشمالى للحكومة المصرية .

تعددت الربى المحدبه ثم اتصلت فى سلسلة جبلية إلى اليسار ، ونحات وسطها تماثيل (أبو سمبل) الرائعة ، وهى جاثمة تشرف على النهر ثم أخذت تبدو المنابت نارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار وسط تلك الصحراء المحدبة وكان أظهرها النخيل والذرة . وفى كثير من البقاع كان الشاطئان مقفرين فى صخور منحدرة إلى سطح الماء فى درجات سريعة . بتنا ليلتنا نرسو على مقربة من الدر وفى باكورة الصباح أقلعنا وأخذت القرى تزيد عدداً فى بيوت متجاورة رغم ضيق النطاق المنزرع . وكلها من الطين النظيف تطلى بغشاء من الجير الأبيض ويزينها جميعها المسجد ذو المئذنة القصيرة وكثير من البيوت يقوم على مدرجات الصخر بعضها فوق بعض . وظهر فى الصخور الحد الذى يصل إليه مستوى الماء عند ما يمتلىء الخزان إذ يبدو

الصخر أسفله فى لون اردوازى يعلوه الصخر الجرانيتى الأحمر ، وأخذ ذلك الحد يزيد علواً كلما قاربنا (الشلال) وفى كثير من الجوانب كانت تظهر المعابد المصرية وفى الخامسة مساء رسونا وراء مدينة الشلال لندخلها صباحاً وذلك قصداً من السفينة فى دفع رسوم الميناء .

فهرس الكتاب

فهرس الخرائط والصور

الجولات المطبوعة للمؤلف

جولة فى ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة فى ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة فى ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

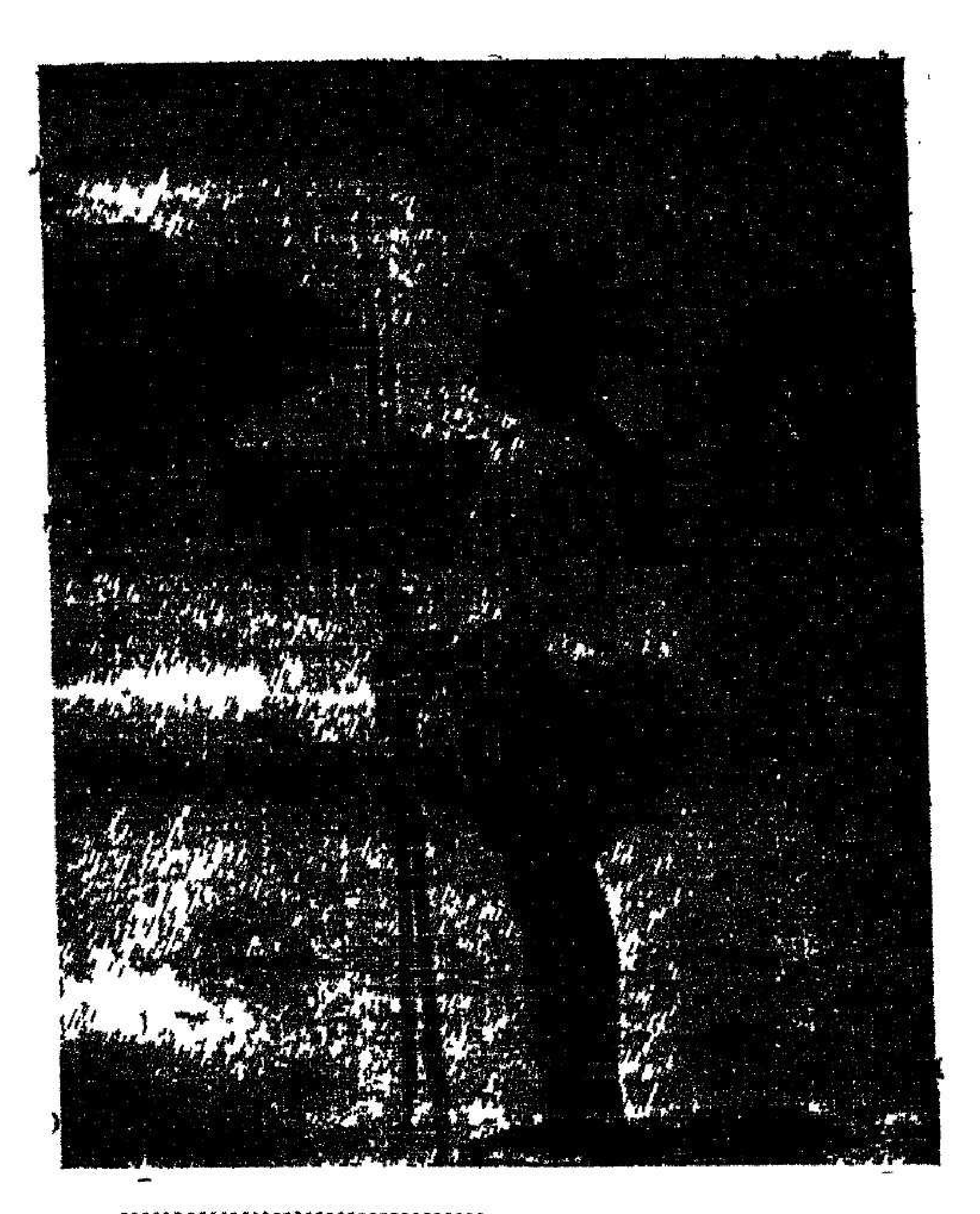
بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة فى ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس



م . لجنة التأليف والترجمة والنشر